ألكسندر جيرتسن

من المذنب؟

رواية

ترجمة: يوسف نبيل

مختارات من الأدب الروسي







مَنْ المذنب؟

ألكسندر جيرتسن

- المؤلف: ألكسندر جيرتسن
- العنوان: مَنْ المذنب؟
- ترجمة: يوسف نبيل
- الطبعة: الأولى 2022
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٠٢١ / ٢٩٧٤٠
الترقيم الدولي : ISBN
978-977-765-335-0



Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ألكسندر جيرتسن

مَنْ المذنب؟

ترجمة

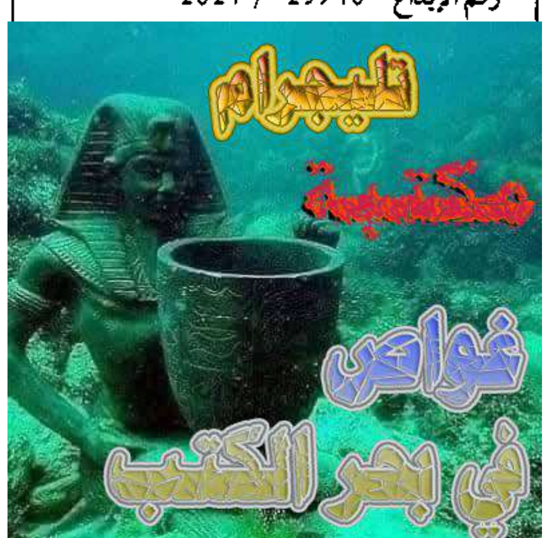
يوسف نبيل

مكتبة
t.me/soramnqraa

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جيرتسن، ألكسندر
مَن المذنب؟ - ألكسندر جيرتسن
ترجمة: يوسف نبيل
ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022
352 ص، 21 سم.
رقم الإيداع 29740 / 2021



مقدمة المترجم

من الظواهر المميزة في تاريخ الثقافة والأدب الروسيين، الدور الذي لعبه المهاجرون الروس في العملية الأدبية والفكرية. بدأت موجات هجرة متتالية من العصر القيصري؛ إما برغبة الأدباء والمفكرين، أو تجنبًا للقمع القيصري، ثم توالت هذه الموجات بكميات ضخمة جدًّا منذ أن اندلعت الثورة البلشفية في عام ١٩١٧.

في عام ١٨٤٦ صدرت رواية «من المذنب؟»، لألكسندر جيرتسن، وفي تلك الفترة لم يكن الروائيون الروس الكبار، من أمثال: دوستويفسكي، وتولستوي، وتورجنيف، قد ظهروا بعد، وفجأة وجد الوسط الأدبي في روسيا رواية ناضجة ومكتملة الأركان، مكتوبة بحس اجتماعي مميز جدًّا، كما تمتلئ بالتصوير النفسي العميق والمونولوجات الداخلية، وهي السمات التي ستصير ملازمة للأعمال الروسية الخالدة في العصر الذهبي؛ فمن هو ألكسندر جيرتسن مؤلف هذه الرواية إذن؟

ألكسندر جيرتسن مفكر وأديب روسي، ولد في عام ١٨١٢، وتوفي في عام ١٨٧٠، وقد اشتهر في الأساس بمشاركته الفكرية الفعالة في تهيئة الأجواء لتحرير الفلاحين الأقنان وصياغة نظرية اشتراكية ثورية،

كما أنه اشتهر في مجال الأدب بروايته الشهيرة: «من المذنب؟». وصلت شهرة هذه الرواية في روسيا إلى أن صار السؤال الذي يطرحه العنوان أحد أشهر وأهم الأسئلة في المجال السياسي والاجتماعي الروسي.

في عام ١٨٤٦ توفي والد جيرتسن، وترك له ثروة هائلة، مما مكَّنه من السفر إلى أوروبا، ومراقبة الأوضاع السياسية والاجتماعية في بلدان أوروبية مختلفة، ودراسة أحداثها الثورية. في فترة الهجرة التقى جيرتسن بأبرز الأدباء الروس، مثل: تورجينيف، وتولستوي، ودوستويفسكي، واستقر لبعض الوقت في لندن ليكرس حياته للعمل الفكري والثوري بعيدًا عن قبضة السلطة القيصرية، واشترى مطبعة في لندن، وأسس مجلة «نجم القطب الشمالي»، وجريدة «الناقوس».

تجدر بنا الإشارة إلى أن اسم جريدة «الناقوس» مستمد من مجلة سابقة أسسها الديسمبريون. الديسمبريون هم حركة سياسية انقلابية، قام بها بعض الضباط والمثقفين الشباب لإزاحة القيصر وتأسيس حكم قائم على أفكار تحررية، لكنها انتهت بالفشل وإعدام بعضهم ونفي الجزء الآخر. شكَّلت هذه الحركة أهمية فائقة في تاريخ جميع الحركات الثورية الروسية. استخدم جيرتسن إذن اسم مجلتهم، ووضع صورة المجموعة التي أُعدمت منهم على غلاف المجلة. نشرت هذه المجلة مختلف أنواع الأعمال الأدبية التي منعتها الرقابة في روسيا، ومنها أعمال مشهورة لبوشكين وجوجول وتورجينيف، كما نشرت لكُتَّاب أوروبيين مشهورين آخرين كفيكتور هوجو.

طاف جيرتسن بلدانًا أوروبية أخرى بعد لندن، واستقرت به الحال في باريس وتوفي هناك، وقد أنجز أعمالًا فكرية وأدبية شديدة الأهمية؛ ربما من أشهرها كتابه «الماضي والأفكار».

يقول جيرتسن: «الشخصية بالنسبة لي هي سجل حافل يُدوَّن فيه كل شيء». ربما يشير ذلك بعض الشيء إلى الطريقة المميزة التي شيَّد بها جيرتسن بنية روايته «من المذنب؟». تتكئ الرواية على بنية غريبة بعض الشيء، حيث تبدأ الحكاية بلقاء بين شخصيتين، ثم تتلوها حكاية كل منهما، وتتفرع الحكاية لنعرف حكايات الشخصيات الأخرى، وتتشابك شجرة الشخصيات وسيرها الذاتية، لنعود مجددًا إلى الشخصيات الأساسية التي ذُكِرت أولًا. هكذا نجد أمامنا في الرواية سجلًّا حافلًا يضم سير شخصيات عديدة وحكايات مكتوبة بدقة نفسية واجتماعية مبهرة. تتخلل الرواية أيضًا بعض المقاطع من اليوميات والرسائل، ويتسق كل ذلك داخل بنية متناغمة. تصف الرواية في الأساس الطريقة التي تهدَّمت بها أسرة، وتطرح داخل هذه الحكاية تفاصيل اجتماعية وحكايات كثيرة جدًّا ليُطرح السؤال في النهاية بكل ثرائه: «من المذنب؟». لا يجيب الراوي عن هذا التساؤل، ويترك أمره للقارئ، لكنه يُقدِّم بمهارة لافتة البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نشأت فيها هذه الحكايات، ويتتبعها بدقة حتى نصل إلى نقطة النهاية، وإذ بالسؤال يصير مطروحًا بصورة مغايرة.

أبطال جيرتسن ليسوا أخيارًا أو أشرارًا بصورة مميزة، بقدر ما هم أبناء عصرهم. صحيح أن بعضهم يرتكب جرائم أخلاقية شديدة، لكنها

تتم داخل إطار العصر، فتبدو عادية تمامًا، إلى درجة أن يتساءل القارئ: وهل كان بالإمكان أن تسلك الشخصية على نحو مغاير؟

بعض النماذج التي صورها جيرتسن في الرواية مثل «بيلتوف»، صارت إطارًا لشخصيات أدبية روسية شهيرة جدًّا، لذا نرى الكثير من أبطال تولستوي وتورجينيف يسيرون على الطريق ذاته، بل إن شخصية بيلتوف هي وريث واضح للشخصيات الطفيلية التي صورها بوشكين وليرمنتوف من قبل.

لم تتناول الرواية الأطر الاجتماعية والسياسية التي أفضت بالشخصيات إلى مصائرها وحسب، بل تناولت أيضًا العوالم الداخلية بدقة وعمق؛ الأمر الذي ساعد على تحويل سؤال «من المذنب؟» برفقة أسئلة أخرى مثل «ما العمل؟»، إلى أن يكون الموضوع الرئيس لأعمال تولستوي ودوستويفسكي.

السبب الذي دفعنا إلى بداية سلسلتنا بهذه الرواية هو عينه سبب أهميتها وفرادتها. تُقدِّم الرواية الأطر الأساسية لفهم بنية المجتمع الروسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. بقراءة الرواية يتمكن القارئ من فهم بنية أهم الطبقات التي شكَّلت المجتمع الروسي، خاصة في المدينة، كما تُقدِّم له الرواية لمحة بسيطة أيضًا عن حياة الريف. نراقب في الرواية نماذج شديدة العمومية في المجتمع المدني الروسي، كما نفهم الطريقة التي تتم بها التعاملات داخل هذه الطبقات، ونُكون فكرة عن انتخابات النبلاء والبنية الاقتصادية لهذه الطبقة، وحياتها

الاجتماعية وأطرها الأخلاقية... كل هذا يساعدنا على فهم المجتمع الروسي قبل حركة تحرير الأقنان بصورة مهمة.

يمكن لقراءة الرواية أن تحقق المتعة بعيدًا عن هدف السلسلة، ولكن يمكن أن تكون هناك فائدة مضاعفة بالتركيز على هذه الجوانب لفهم بنية المجتمع الروسي في تلك الفترة، حيث إنها تعتبر وثيقة تاريخية مهمة فعلًا لفهم بعض جوانب هذه الفترة.



ألكسندر إيفانوفيتش جيرتسن

من المذنب؟

تُترك هذه القضية لإرادة الله لعدم الكشف عن المذنبين، وبعد التفكر فيها مليًّا تُسلَّم للأرشيف.

محضر الجلسة

إهداء إلى نتاليا ألكساندروفنا جيرتسن[1] إعرابًا عن امتنان الكاتب العميق لها.

موسكو ١٨٤٦

---

(١) زوجة جيرتسن.

«من المذنب؟» كانت أول رواية أنشرها. بدأت كتابتها إبان منفاي بنوفوجورود في ١٨٤١م، وأنهيتها بعد ذلك بفترة طويلة في موسكو.

في الحقيقة كانت لي تجربتان سابقتان في كتابة ما يشبه الروايات، لكني لم أُنهِ الأولى، والثانية لم تكن رواية. في أولى فترات انتقالي من فياتكا إلى فلاديمير أردت أن أخفف من حدة ذكريات اللوم في الرواية، وأتصالح مع نفسي وأغطيها بالورود حتى لا تُرى فيها آثار الدموع.

من الواضح بالطبع أني لم أنجح في هذه المهمة، وصارت روايتي التي لم أُنهِها تشبه هاوية ممتدة، ولم تتضمن صفحات مقبولة سوى صفحتين أو ثلاث. بعد ذلك عمد أحد أصدقائي إلى تخويفي قائلًا: «إذا لم تكتب عملًا جديدًا فسوف أنشر قصتك هذه، إنها لديَّ»، ولكن لحسن الحظ لم ينفذ تهديده.

في نهاية ١٨٤٠م نُشِرت مقتطفات من «مذكرات شاب» و«مدينة مالينوف والمالينوفيون»[٢] في «أوتشيستفني زابيسكي»[٣]، وراقت المقتطفات لكثيرين، أما ما يتعلق ببقية ما نُشِر فقد لوحظ فيها تأثير قوي من «Reisebilder» لهاينه[٤].

---

(٢) كتابان لجيرتسن.

(٣) مجلة روسية.

(٤) الإشارة إلى كتاب «Reisebilder» (صور السفر) لهاينرش هاينه.

بعد ذلك كادت «مدينة مالينوف والمالينوفيون» أن توقعني في مأزق.

أراد أحد مستشاري مقاطعة فياتكا أن يشكوني إلى مدير الشؤون الداخلية، ويطلب توفير الحماية له قائلًا إن شخصيات الموظفين في هذا العمل تشبه كثيرًا زملاءه المبجلين، وإن هذا قد يُفضي بمرؤوسيهم إلى التقليل من احترامهم. سأله أحد معارفي في فياتكا عن الأدلة التي لديه على أن هذا العمل هو هجاء لموظفي فياتكا. أجابه المستشار: «لديَّ آلاف الأدلة؛ يقول المؤلف مثلًا وبشكل مباشر إن لدى زوجة مدير الجيمنازيا[٥] فستانًا لحفلات الرقص بلون عنب الثور[٦]، أليس الأمر كذلك فعلًا؟». وصل الأمر إلى أسماع زوجة المدير فتملكها غضب شديد، ولكن ليس مني، بل بسبب المستشار. قالت: «هل هو أعمى أم أنه جُنَّ؟ أين رأى فستانًا لديَّ بهذا اللون؟ صحيح أن لديَّ فستانًا داكنًا، ولكن بلون بنفسجي». هذا الاختلاف البسيط في اللون قدَّم لي خدمة حقيقية، فقد نحَّى المستشار المستاء الأمر عنه؛ فإذا كان لدى زوجة مدير الجيمنازيا فستان فعلًا بلون عنب الثور كما كتب المستشار، للحق بي بلا شك ضرر أكثر من الضرر الذي جلبه عصير عنب الثور الذي قدمه آل لاريني لأونيجين[٧].

---

(٥) نوع من المدارس في روسيا كان يُهتم فيه بدراسة اللغات القديمة والتاريخ.

(٦) عنب الثور هو نوع نبات مستديم الخضرة من الفصيلة الخلنجية، له ثمار مأكولة حامضة، يشبه التوت الأحمر.

(٧) إشارة إلى بعض أحداث رواية «يفجيني أونيجين» لبوشكين.

أجبرني نجاح «مالينوف» على كتابة «من المذنب؟».

جلبت الجزء الأول من الرواية من نوفوجورود إلى موسكو. لم يرُق هذا الجزء لأصدقائي في موسكو، ونحَّيته بعيدًا عني. بمرور بضعة أعوام تغيَّر الرأي حيال هذا الجزء، لكني لم أفكر في نشره، ولم أواصل العمل في الرواية. بعد فترة أخذ بيلينسكي[٨] مني المخطوطة، وبطريقته المنجرفة المعهودة أبدى رأيًا معاكسًا تمامًا، حيث عبَّر عن إعجابه الشديد بها أكثر مائة مرة من قيمتها الحقيقية، وكتب لي: «لو لم أكن أقدِّر الشخصية الرابضة في داخلك بالقدر الذي أقدِّره الآن لك ككاتب أو حتى أكثر قليلًا، لقلت لك كما قال بوتيومكين لدينيس فويفيزين بعد عرض مسرحيته «الجنرال»: مُت يا جيرتسن[٩]، ولكن بوتيومكين أخطأ، فلم يمُت فويفيزين، ولذلك كتب مسرحيته «القاصر». لا أريد أن أخطئ وأصدق أنك سوف تكتب بعد «من المذنب؟» شيئًا يجبر الآخرين على أن يقولوا: «إنه محق، كان عليه أن يكتب روايته منذ فترة طويلة». ها إني أجاملك وفي الآن ذاته أكتب تورية يمكنك فهمها».

---

(٨) من أشهر النقاد الروس في هذه الفترة.

(٩) يشير إلى العبارة الشهيرة: «مت يا دينيس، لا يمكنك الكتابة بشكل أفضل»، وهي عبارة منسوبة لبوتيومكين قالها لفويفيزين بعد العرض الأول لمسرحيته، وصارت عبارة شهيرة تُقال عند الإشارة إلى نجاح كبير حققه شخص ما. دنيس إيفانوفيتش فونفيزين هو كاتب مسرحي عاش في القرن الثامن عشر، وشارك في حركة التنوير الروسيَّة. اشتهر فونفيزين بشكل رئيسي بسبب مسرحيتيه الساخرتين من النبالة الروسية «الجنرال – القاصر».

حذفت الرقابة بعض المقاطع، وللأسف ليست لديَّ قائمة بها. أتذكر بعض التعبيرات التي كانت مطبوعة بخط مختلف، بل وأتذكر صفحة كاملة؛ فحينما طبعوها ضموها إلى بقية الصفحات المحذوفة. أتذكر هذا الموضع بشدة لأن بيلينسكي فقد أعصابه حينما عرف أنهم لم يسمحوا بنشره.

٨ يوليو ١٨٥٩م

بارك هاوس – فولهام



الجزء الأول

-١-
الجنرال المتقاعد والمعلِّم المُعيَّن حديثًا

كان المساء قد قارب على الحلول. وقف ألكسي أبراموفيتش في الشرفة، ولم يكن قد استفاق تمامًا بعد قيلولته المعتادة بعد الغداء التي تمتد إلى ساعتين. فتح عينيه بتكاسل، وكان يتثاءب بين الحين والآخر. دخل الخادم بخبر ما، لكن ألكسي أبراموفيتش لم يجد أن من الضروري أن ينتبه إليه، ولم يستطع الخادم أن يزعج سيده. هكذا انقضت دقيقتان أو ثلاث، وبانتهائها سأل ألكسي أبراموفيتش:

- ماذا تريد؟

- في أثناء نوم سيادتكم وصل المعلم الذي طلبه الطبيب من موسكو.

- إذن؟ (لم أستطع حسم أمري حيال ما إذا كان يجب عليَّ أن أكتب هنا علامة استفهام أم علامة تعجب)[١٠].

(١٠) الملاحظة من الكاتب.

- لقد ذهبت به إلى الغرفة التي كان المعلم الألماني الذي صرفتموه يعيش فيها.

- آه!

- لقد طلب مني أن أُعلِمه عندما تستيقظ سيادتكم.

- استدعِه.

ارتسمت ملامح الجدية على وجه ألكسي أبراموفيتش، وصار وجهه أكثر مهابة. في غضون عدة دقائق ظهر الخادم الصغير قائلًا:

- المعلم هنا سيادتكم.

صمت ألكسي أبراموفيتش، وبعد أن نظر بغضب إلى الخادم الصغير قال:

- ماذا بك أيها الأحمق؟ هل فمك ممتلئ بالطحين أم ماذا؟ تهمهم بكلام لا أفهمه. (ومن دون أن ينتظر ردًّا منه أضاف) استدعِ المعلم.

وجلس على الفور.

ظهر شاب في الثالثة والعشرين من العمر رقيق، شاحب، أشقر الشعر، يرتدي معطفًا طويلًا ضيقًا بعض الشيء، ولاحت عليه أمارات الخجل والارتباك.

قال الجنرال مبتسمًا بلطف من دون أن ينهض من مكانه:

- مرحبًا أيها المحترم، لقد مدحك طبيبي كثيرًا، وآمل أن نصير أصدقاءً. آه فاسكا! -وهنا صفَّر- لماذا لا تجلب له مقعدًا؟ أتظن أن لا حاجة لك إلى فعل ذلك لأنه مُعلم؟ لا، لا. متى تتوقف عن السلوك

بحماقة، وتسلك كالبشر الحقيقيين؟ اجلس رجاءً. لديَّ أيها المحترم ابن؛ صبي صالح موهوب. أريد أن أعده للمدرسة العسكرية. إنه يُحدِّثني بالفرنسية. لا يستطيع التحدث جيدًا بالألمانية، لكنه يفهمها. كان معلمه الألماني سكيرًا، ولم يكن يأتي كثيرًا. في الحقيقة لقد استخدمته بالأكثر في شؤون الضيعة. لقد عاش في هذه الغرفة التي ذهبوا بك إليها. لقد طردته. أقول لك بصراحة إنني لا آمل أن يصير ابني خبيرًا أو فيلسوفًا، ولكني لن أبدد أيها المحترم ألفين ونصف روبل هباءً. تعرف بالطبع أن في أيامنا هذه يطلبون ممن يتقدم للخدمة العسكرية أن يجيد قواعد النحو وعلم الحساب. يا فاسكا، استدعِ ميخائيل ألكسيفيتش.

ظل الشاب طوال كل هذا الوقت صامتًا، وقد احمر وجهه، وكان يضع منديله على أنفه وكأنه ينتوي أن يقول شيئًا. ملأ الطنين أذنيه من قوة ضغط الدماء، بل إنه لم يفهم حتى كلمات الجنرال بوضوح، لكنه شعر أن حديثه برمته كان يجعله يشعر بما يشعر به المرء حينما يمرر يده على جلد حصان البحر بطريقة معاكسة. بعدما انتهى الجنرال من حديثه قال:

- بقبولي مهمة أن أكون معلمًا لابنك أتعهد أن أسلك بضمير وشرف، بقدر ما تسمح به قواي بالطبع، ومع ذلك سأبذل كل جهودي لأبرر ثقة سعادتكم فيَّ.

قاطعه ألكسي أبراموفيتش قائلًا:

- لا لزوم لأن تقول لي سعادتكم ومثل هذه المجاملات. ما يهم هو قدرتك على أن تصطاد الطالب ببراعة، أتفهمني؟ لقد أنهيت دراستك، أليس كذلك؟

- حسنًا، أنا كانديدات[11].

- ما هذا؟ أهي درجة وظيفية جديدة؟

- درجة أكاديمية.

- اسمح لي أن أتساءل، هل والداك بصحة جيدة؟

- نعم، أحياء.

- الوظيفة؟

- أبي طبيب المقاطعة.

- وهل سلكت المسار الطبي؟

- درست بقسم الفيزياء والرياضيات.

- أتجيد اللاتينية؟

- نعم.

- إنها لغة لا لزوم لها. إنها مهمة بالطبع للأطباء، ولكن يستحيل بالطبع أن تقول في حضور مريض «سوف نمد ساقيك غدًا على طاولة العمليات، فما حاجتك إليهما؟»، عليك أن تكون رحيمًا.

لا نعلم كم كان من الممكن أن تستمر هذه المحادثة العلمية لولا أن قطعها ميخائيل ألكسيفيتش الذي يدعونه ميشا، وهو صبي في الثالثة عشرة من العمر، صحيح البدن، متورد الوجنتين، ممتلئ الجسم، أسمر قليلًا. كان يرتدي سترة يمكن أن تصير ضيقة عليه في غضون بضعة

---

(١١) هي الأولى من درجتين علميتين على مستوى الدكتوراة.

أشهر، وكان مظهره هو المظهر العام لأبناء جميع مُلاك الأرض الأغنياء الذين يعيشون في القرى.

قال الأب:

- هذا هو معلمك الجديد.

غيَّر ميشا وضع قدمه.

- أطعه وذاكر جيدًا. لا أريد أن أندم على المال. مهمتك هي أن تستفيد منه جيدًا.

نهض المعلم وانحنى بتهذيب أمام ميشا، وأخذه من يده بطريقة رقيقة طيبة، قائلًا إنه سيفعل كل ما بوسعه ليُسهِّل عليه الفصول الدراسية ويصطاد الطالب ببراعة.

أضاف ألكسي أبراموفيتش:

- لقد درس بالفعل بعض الأشياء؛ درسها على يد السيدة التي تعيش هنا، وعلَّمه الكاهن أيضًا. نعم، إنه إكليريكي، إنه كاهن ضيعتنا. من فضلك اختبره يا عزيزي.

ارتبك المعلم، وفكَّر طويلًا في السؤال الذي يجب توجيهه إليه، وأخيرًا قال:

- قل لي ما هو موضوع علم النحو؟

نظر إليه ميشا بطرف عينه وحك أنفه وقال:

- النحو الروسي؟

- أي نحو، سيان.

- لم ندرس ذلك.

سأله الأب بتهديد:

- ماذا كان الكاهن يفعل معك إذن؟

- لقد درسنا يا أبي النحو الروسي وصولًا إلى اسم الفاعل، ودرسنا في كتاب التعليم الشفهي[١٢] حتى وصلنا إلى الأسرار المقد...

- حسنًا، اذهب وأرِ غرفتك الدراسية لـ... عفوًا ما اسمك؟

احمر وجه المعلم وأجاب:

- ديمتري.



- واسم الأب؟

- ياكوفليف.

- ديمتري ياكوفليتش[١٣]، ألا تريد أن تستريح من تعب الطريق وتشرب بعض الفودكا؟

- لا أشرب شيئًا عدا المياه.

قال ألكسي أبراموفيتش في نفسه: «إنه يتظاهر»، وشعر فجأة بالتعب الشديد بحيث لم يعد يود إكمال المحادثة، وتوجه صوب غرفة زوجته. كانت جلافيرا لفوفنا مضطجعة على أريكة تركية ناعمة. كانت ترتدي

---

(١٢) كتاب ديني تُشرح فيه المسائل العقائدية في صورة سؤال وجواب.

(١٣) ثمة خطأ في نطق الاسم من جهة الجنرال. لقد قال ياكوفليتش بدلًا من ياكوفليفيتش.

بلوزة، وكانت هذه البلوزة هي رداؤها المفضل حيث كانت كل الثياب الأخرى تضايقها. لقد انقضى بالفعل خمسة عشر عامًا من الزواج الهانئ. لقد صارت تشبه التبلدي[١٤] بين النساء. أيقظتها خطوات ألكسي الثقيلة، فرفعت رأسها الناعس، ولم تستطع لفترة طويلة أن تستفيق وكأنها المرة الأولى التي تستيقظ فيها في أثناء استغراقها في النوم، وصاحت بدهشة:

- آه! يا إلهي! يبدو أني استغرقت في النوم، تصور؟

بدأ ألكسي أبراموفيتش يُقدِّم لها تقريرًا عما فعله بخصوص تعليم ميشا. كانت جلافيرا لفوفنا راضية تمامًا، وبينما كانت تستمع له شربت نصف إبريق الكفاس[١٥]. كانت تتناول الكفاس كل يوم قبل الشاي.

لم تنتهِ بعد كل بلايا ديمتري ياكوفليفيتش الناجمة عن لقائه بألكسي أبراموفيتش. لقد جلس صامتًا مضطربًا في حجرة الدراسة، وإذ بأحدهم يدخل يستدعيه لشرب الشاي. لم يسبق لصاحبنا أن جلس في صحبة سيدات راقيات من قبل، كان يكن للسيدات شعورًا غريزيًا بالاحترام، وكن بالنسبة له محاطات بهالة من القداسة، وكان يراهن إما في الجادة مرتديات ثيابهن الرسمية، يتعذر الاقتراب منهن، أو على خشبة مسرح موسكو، وهناك بدا له جميع هؤلاء الراقصات المشوهات جنيات أو إلهات. والآن يقودونه ليتم تقديمه لزوجة الجنرال، فهل ستكون

---

(١٤) جنس نباتي يتبع الفصيلة الخبازية من رتبة الخبازيات.

(١٥) مشروب سلافي تقليدي مخمر، يتم تصنيعه عادة من خبز الجاودار، والمعروف في العديد من دول أوروبا الشرقية، وخاصة في أوكرانيا وروسيا باسم الخبز الأسود.

وحدها؟ استطاع ميشا أن يخبره أن لديه أختًا وأن ثمة سيدة تعيش معهم أيضًا تُدعى لوبونكا. أراد ديمتري ياكوفليفيتش فجأة أن يعرف كم تبلغ أخت ميشا من العمر، وحام بالحديث عن ذلك ثلاث مرات، لكنه لم يستطع أن يسأل عن الأمر مباشرة، فقد خشي أن تلمع عيناه.

- حسنًا، فلنذهب.

هكذا قال ميشا الذي بدا متواضعًا تمامًا بفعل الدبلوماسية التي نجدها عامة بين الأطفال المدللين في تعاملهم مع الغرباء. نهض صاحبنا غير آمل أن تحمله قدماه، وقد بردت يداه وتعرقتا. لقد بذل مجهودًا هائلًا حتى استطاع الدخول، وقد أوشك على فقدان الوعي تقريبًا في غرفة المعيشة، وانحنى باحترام عند الباب للخادمة التي كانت تغادر المكان بعد أن جهَّزت السماور(١٦).

قال ألكسي أبراموفيتش:

- جلاشا(١٧)، أقدم لكِ معلم ابننا ميشا الجديد.

انحنى صاحبنا.

قالت جلافيرا لفوفنا وهي ترمش بعينيها عدة مرات، وقد ارتسمت على وجهها تكشيرة بسيطة ما إن انتهت عيناها من الحركة:

- أهلًا وسهلًا بك. منذ فترة طويلة وعزيزنا ميشا في حاجة إلى معلم خاص جيد. نحن لا نعرف كيف يمكننا أن نشكر سيميون إيفانيتش

(١٦) وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي.

(١٧) صيغة تصغير وتحبب لجلافيرا.

كفاية على تعريفنا بك. أرجوك كن على راحتك. ألا تود الجلوس؟

تمتم صاحبنا، وهو لا يعرف فعلًا ماذا قال:

- لقد كنت جالسًا طوال الوقت.

قال الجنرال مازحًا:

- لا يمكن أن تكون قد ظللت واقفًا في العربة.

أخافت هذه الملاحظة المازحة صاحبنا. تناول مقعدًا، ووضعه بطريقة غريبة بعض الشيء، وجلس بعيدًا إلى حد ما. خشي أن يرفع عينيه كما لو أنه يخشى بلية. ربما تكون هناك سيدات أخريات، وإذا رآهن سيتوجب عليه الانحناء لهن، فكيف يفعل ذلك؟ بالإضافة إلى ذلك ربما لا يجب أن ينحني وهو جالس.

قال الجنرال بصوت منخفض:

- قلت لكِ إنه يتصرف كفتاة خجولة.

أجابت جلافيرا لفوفنا وهي تعض شفتيها الدهنيتين:

- Le pauvre, il est a plaindre[١٨].

من النظرة الأولى راق الشاب لجلافيرا لفوفنا، وكان لذلك أسباب عديدة، أولًا: كان ديمتري ياكوفليفيتش مثيرًا للاهتمام بعينيه الزرقاوين الكبيرتين. ثانيًا: لم تكن جلافيرا لفوفنا تشاهد رجالًا غير زوجها والحوذية والطبيب العجوز إلا نادرًا، خاصة الشباب المثيرين

---

(١٨) إنه مسكين يستحق الشفقة!

للاهتمام، وعلاوة على ذلك، وكما سنعرف لاحقًا، كانت تحب الأحلام الأفلاطونية الباقية في ذاكرتها منذ زمن طويل. ثالثًا: تشعر النساء في بعض الفترات العمرية بانجذاب غير مفهوم للشباب، وهو شعور يشبه انجذاب الرجال إلى الفتيات. يبدو الشعور أقرب إلى التعاطف، شعوري أمومي، رغبة في أن يتعهدن أولئك الضعفاء الخجولين المفتقرين إلى الخبرة بالحماية والرعاية والملاطفة، ورغبة في إسعادهم. على كل حال هذا ما يبدو لهن، لكني لا أشاركهن الرأي، ولكن لا داعي لأن أقول رأيي في الموضوع. قدمت جلافيرا لفوفنا فنجان الشاي بنفسها له. تناول رشفة كبيرة ولسع لسانه وحلقه، لكنه أخفى الألم بصلابة موسيوس سكايفولا[١٩]. كان هذا الوضع مفيدًا له، فقد ألهاه واستطاع أن يهدأ قليلًا. تدريجيًا بدأ ينظر حوله. كانت جلافيرا لفوفنا جالسة على الأريكة، وأمامه طاولة، وعليها سماور ضخم منتصب كتمثال مصنوع على الذوق الهندي. أجلست ألكسي أبراموفيتش قبالتها، لتتمكن من أن تراه أمامها، أو حتى تتجنب رؤيته من خلف السماور، وكان جالسًا على مقعد قديم، ومن خلف مقعده كانت هناك فتاة واقفة في نحو العاشرة من العمر تبدو حمقاء جدًا. كانت تنقل نظرها بين الأب والمدرس، وبسببها بدأ صاحبنا الشجاع يرتجف! كان ميشا موجودًا أيضًا خلف الطاولة، وأمامه سلطانية زبادي وشريحة خبز سميكة. لاح من تحت الطاولة المغطاة بمفرش، مرسومة

(١٩) شاب روماني عُرف لاحقًا بـ«الساكن»، وربما كان شخصية أسطورية، وعُرف بشجاعته وصلابته.

عليه مدينة ياروسلاف بنجاح، ودبة على أطرافه كافة، رأسُ كلب صيد. أضفى المفرش على الكلب منظرًا مصريًّا. كان الكلب يحدق ساكنًا في صاحبنا بعينين منتفختين من كثرة الدهون. كانت هناك سيدة عجوز جالسة على المقعد أسفل النافذة، وفي يدها منديل، ضئيلة الحجم، يلوح السرور على وجهها المتجعد، وكانت ذات حاجبين متدليين وشفتين دقيقتين. خمَّن ديمتري ياكوفليفيتش أنها السيدة الفرنسية. عند الباب وقفت امرأة قوزاقية قدَّمت لألكسي أبراموفيتش غليونه، وبالقرب منه وقفت بتبجيل خادمة ترتدي فستانًا قطنيًّا بكُمين كتانين في انتظار أن ينتهي السادة من طقوس شرب الشاي. كان هناك وجه آخر في الغرفة، لكن ديمتري ياكوفليفيتش لم يرَه لأن صاحبته كانت مائلة صوب طارة التطريز. لقد كان وجه الفتاة الفقيرة التي رباها الجنرال الطيب. لم يستمر الحوار منتظمًا لفترة طويلة، وحتى عندما انتظم كان مجزّأً نوعًا ما، وغير ضروري لصاحبنا، بل ومُنهِك له.

كان غريبًا هذا الاصطدام بين حياة الشاب الفقيرة وحياة أسرة المالك الثرية. يبدو أنهما كان بإمكانهما أن يعيشا بسلام حتى نهاية القرن من دون أن يلتقيا. لكن ما حدث كان أمرًا مختلفًا. وصلت حياة الشاب الرقيق والطيب، المثقف والمتعلم بطريقة متنافرة نوعًا ما، إلى الحياة الثرية لألكسي أبراموفيتش وزوجته؛ وصلت كالطائر الذي يدخل قفصًا. تغير كل شيء بالنسبة له، وكان من الممكن التنبؤ بأن هذا التغيير لن يمر من دون أن يؤثر على الشاب قليل الخبرة الذي لم يعرف شيئًا على الإطلاق عن العالم العملي.

ولكن أي نوع من الناس هذان: الجنرال وزوجته اللذان يهنآن بزواج سعيد ويعيشان في هناء وازدهار بالنسبة لهذا الشاب المعيَّن من أجل ملء رأس ابنهما ميشا بالمعرفة حتى يتمكن من الالتحاق بأي مدرسة عسكرية؟

لا يمكنني أن أكتب روايات، ربما لهذا تحديدًا يبدو لي أنه من الضروري أن أعرض هنا سيرة بعض الشخصيات المستقاة من مصادر موثوق بها. سوف أبدأ بـ...



-٢-

سيرة سعادتهما[٢٠]

ألكسي أبراموفيتش نيجروف، لواء متقاعد، متأنق، سمين، طويل، لم يصبه المرض قَطُّ بعد التسنين، ويمكن أن يكون ذلك أفضل وأكمل اعتراض على كتاب هوفلاند[٢١] الشهير: «عن استمرار الحياة الإنسانية». كان يسلك بطريقة مناقضة تمامًا لكل صفحة من صفحات كتاب هوفلاند، وبالرغم من ذلك كان دائمًا معافى ومتورد الوجنتين. ثمة قاعدة صحية واحدة كان يلتزم بها: لا تُشوِّش عملية الهضم بالاستغراق في أي تفكير، وربما استطاع بفضل هذه القاعدة ألا يعمل أي شيء. كلماته حازمة وعنيفة وقاسية، وأحيانًا تكون أفعاله قاسية أيضًا. يستحيل أن نقول إنه كان إنسانًا شريرًا بطبيعته؛ فبتفحص ملامح وجهه القاسية التي لم تزل كاملة بفعل الزوائد اللحمية والحاجبين الأسودين السميكين والعينين اللامعتين، بوسعنا أن نفترض أن الحياة قد قمعت فيه العديد من الاحتماليات الأخرى. في الأربعين من العمر، ربته الطبيعة وامرأة فرنسية عاشت عند أخته. كان نيجروف قد انضم

---

(٢٠) أي (حضرة) الجنرال وزوجته.

(٢١) طبيب وكاتب ألماني شهير.

إلى فوج سلاح الفرسان، وقد حصل على الكثير من المال من والدته الحنونة، وقضى فترة شبابه عابثًا. بعد حملة ١٨١٢ [٢٢] تمت ترقيته إلى رتبة عقيد، وحينما علق كتّافات رتبة العقيد على كتفيه كان قد سأم بالفعل من الزي العسكري. بدأت الحياة العسكرية تُكدِّره، وبعد أن قضى عدة أعوام أخرى فيها، ووجد نفسه «غير قادر على الاستمرار في الخدمة العسكرية نتيجة لاضطرابات صحية»، استقال وجلب معه رتبة لواء، وشاربين شاركاه دائمًا في طبق غدائه، وزيًّا عسكريًّا من أجل المناسبات المهمة. عندما استقر الجنرال المتقاعد في موسكو التي شُيِّدت من جديد بعد الحريق[٢٣] انكشفت أمامه مجموعة لا نهائية من الأيام والليالي لحياة متماثلة تافهة ومملة. لم تكن لديه أي مشاغل يمكنه حتى أن يود الانشغال بها. كان ينتقل من منزل إلى منزل، يلعب الورق، يتغدى في النادي، ويظهر في الصفوف الأولى في المسرح، ويحضر حفلات الرقص، ويجلب لنفسه ثمانية جياد رائعة، ويعتني بها، كما كان يعلِّم الحوذي بكلماته ويديه ليلًا ونهارًا، كما علَّم ساعي البريد بنفسه سر ركوب الخيل. هكذا انقضى عام ونصف، وفي النهاية، وبعد أن تعلَّم الحوذي طريقة الجلوس الصحيحة والإمساك بالعنان جيدًا، وتعلَّم ساعي البريد أن يجلس على الجواد ويمسك بالزمام، غالبه الملل، وقرر أن يرحل إلى القرية ليدير ضيعته مؤكدًا لنفسه أن هذه الرحلة ضرورية للحول دون أن تضطرب أمور الضيعة. كانت نظريته

---

(٢٢) الغزو الفرنسي لروسيا.

(٢٣) احترقت موسكو في أثناء أحداث الغزو الفرنسي.

في إدارة الضيعة بسيطة للغاية: كان يسب شيخ القرية وناظر الضيعة كل يوم، كما كان يذهب لصيد الأرانب بسلاحه. ونظرًا لعدم اعتياده على ممارسة أي عمل جاد من أي نوع، لم يستطع أن يتصور ما الذي يجب فعله، ومن ثَم كان يحافظ على صمته، وكان راضيًا بذلك. من جانبهما، كان شيخ القرية وناظر الضيعة راضيين تمام الرضا عن سيدهما، أما عن الفلاحين فلا أعرف شيئًا، فقد كانوا صامتين. بمرور شهرين ظهر وجه أنثوي رائع عند نافذة منزل السيد. في البداية غطت الدموع هذا الوجه، ثم لم يبدُ منه بعد ذلك سوى عينين فاتنتين زرقاوين. في الوقت نفسه، أبلغ شيخُ القرية الذي لم يكن يشارك في أي شيء يتعلق بإدارة القرية الجنرالَ أن كوخ يميلكا بارباش في حالة سيئة، وأنه يجدر بألكسي أبراموفيتش أن يُظهر عطفًا أبويًا ويسمح له بأن يقطع شجرًا من الغابة. كان ألكسي أبراموفيتش مولعًا بهذه الغابة حد الجنون، ولم يكن يجرؤ على قطع شجرة واحدة ولو كان سيموت. ولكن... ولكن، كان حينها في حالة معنوية جيدة، ومن ثَم قرر أن يترك بارباش يقطع منها لأجل كوخه، وأضاف لشيخ القرية: «انظر إليَّ أيها الوغد الأحمر، لو قُطِعت شجرة واحدة زائدة سأحطم بدلًا منها ضلعًا منك». هرع شيخ القرية إلى الجناح المجاور، وأبلغ أفدوتيا يميليانوفنا عن نجاحه الكامل، داعيًا إياها بالأم والشفيعة. احمر وجه المسكينة تمامًا، ولكن في قلبها كانت هناك فرحة بأن أباها سوف ينال كوخًا جديدًا. لا نجد في مصادرنا سوى معلومات قليلة عن غزو الأعين الزرق، واللقاء بها. لذلك أفترض أن هذه الانتصارات تُحرز بسهولة شديدة.

مهما كان الأمر فقد شعر نيجروف بالملل من الحياة الريفية هي الأخرى. لقد أكد لنفسه أنه حل جميع مشكلات الضيعة، والأهم هو أن هذا الأمر ألهمه بهذا التوجه القوي الذي لا يمكن أن يكمل حياته من دونه، ومن ثَم استعد للعودة إلى موسكو مجددًا. ازدادت أمتعته، حيث انضمت إليه صاحبة العينين الزرقاوين الفاتنتين ومرضعة وطفلة رضيعة وسافروا في عربة خفيفة خاصة. في موسكو سكنوا في غرفة تطل نوافذها على الفناء مباشرة. أحب ألكسي أبراموفيتش الطفلة، وأحب دونيا[٢٤] وأحب المرضعة أيضًا. لقد كانت فترة إيروتيكية (شهوانية) بالنسبة له. لم يعد صدر المرضعة يأتي باللبن، فقد كانت تشعر بالغثيان دائمًا، وقال الطبيب إنها لا يمكن أن ترضع مجددًا. شعر الجنرال بالأسف عليها: «لقد كانت مرضعة نادرة: في تمام الصحة وتعمل بكد وإخلاص، لكن صدرها لم يعد يؤتي لبنًا. أمر محزن». أعطاها عشرين روبلًا وغطاء رأس، وأعادها لزوجها ليتولى علاجها. نصحه الطبيب بأن يستبدل بالمرضعة معزاة، وهذا ما فعله. كانت المعزاة في تمام الصحة، وأحبها ألكسي أبراموفيتش بشدة، وكان يعطيها خبزًا أسود خاصًا، ويداعبها، ولكن هذا لم يعُقها عن إرضاع الطفل. كان نمط حياة ألكسي أبراموفيتش مثلما كان عند وصوله الأول لموسكو. لقد استطاع تحمل هذا النمط لنحو عامين، لكنه لم يستطع تحمل المزيد. لا يستطيع الإنسان أن يتحمل غياب كل نشاط محدد. يفترض الحيوان أن كل عمله في الحياة هو أن يعيش، لكن الإنسان يفترض أن الحياة مجرد

---

(٢٤) دونيا هي أفدوتيا يميليانوفنا ابنة شيخ القرية، صاحبة العينين الزرقاوين.

إمكانية لفعل شيء آخر. بالرغم من أن نيجروف كان يظل خارج المنزل من الثانية عشرة ظهرًا وحتى منتصف الليل، فإن الملل عذَّبه بالرغم من كل ذلك، ولكن في هذه المرة لم يُرِد أن يعود إلى الضيعة، وتملكته الكآبة طويلًا، وحدث كثيرًا أن أعطى لخادمه دروسًا أبوية، ونادرًا ما كان يجلس في غرفته ذات النوافذ المطلة على الفناء. ذات مرة، وبعد عودته إلى المنزل، كان في حالة غير عادية، مشغولًا بشيء، وتغضن جبينه، وكان يبتسم أحيانًا، وظل يذرع الغرفة طويلًا، وفجأة توقف ولاح عليه الحسم. كان من الملاحظ أنه حسم أمرًا ما في داخله. ما إن فعل ذلك حتى أطلق صفيرًا. صفَّر بقوة حتى إن القوزاقي الذي كان نائمًا على مقعده في الغرفة الأخرى، اندفع من فرط خوفه إلى الناحية المقابلة للباب بصعوبة بعد أن هب من نومه. قال له الجنرال:

- نائم طوال الوقت أنت أيها الجرو!

لكنه لم يقُلها هذه المرة بصوته الراعد الذي يبدو كبروق أبوية، بل قالها ببساطة.

- اذهب وقل لميشكا أن يذهب غدًا قبل طلوع الشمس إلى مُصلح العربات[٢٥] الألماني ويأتيني به في نحو الثامنة صباحًا.

كان من الواضح أن عبئًا قد انزاح من على كاهل ألكسي أبراموفيتش، وصار بوسعه أخيرًا أن يستريح. في الثامنة من صباح اليوم التالي ظهر مصلح العربات الألماني، وفي التاسعة انتهى اللقاء الذي أُصدر فيه

(٢٥) كان السفر بالعربات التي تجرها الجياد يتطلب إصلاحًا دائمًا للعربات.

الأمر بوضوح كبير وبالتفصيل، بحجز عربة ذات أربع عجلات بلون ذهبي داكن، وشعارات ذهبية، وأقمشة قرمزية، وزينة، وماعز احتفالية بثلاثة أغطية.

كان طلب عربة بأربع عجلات يعني أن ألكسي أبراموفيتش قد نوى أن يتزوج، لا أكثر ولا أقل. تكشفت هذه النية سريعًا بدلالات لا لبس فيها. بعدما أمر بالعربة، استدعى خادمه، وعبر حديث طويل أخرق فعلًا (حيث كان هذا يُدلل على مكانة نيجروف العظيمة وينعكس في هذا الارتباك ما يسميه الناس ضميرًا)، أظهر له امتنانه لخدمته له، ونيته أن يكافئه بطريقة نموذجية. لم يستطع كاميردينير[٢٦] أن يفهم إلى أين سيفضي به الأمر، وقال بعض المجاملات من قبيل:

– ومن نرضيه غير سعادتكم؟! فأنتم أبونا ونحن أبناؤكم.

ملَّ نيجروف من هذه المسرحية الهزلية، وأعلن لكاميردينير باختصار ولكن بكلمات معبِّرة، أنه يسمح له بالزواج من دونكا[٢٧]. كان كاميردينير إنسانًا ذكيًّا وبارعًا، وبالرغم من أنه اندهش بشدة من إحسان سيده غير المتوقع، فقد استطاع أن يحسب كل احتماليات الأمر فورًا، وطلب يد سيده ليقبِّلها لإحسانه ورعايته. فهم العريس المستقبلي حقيقة الأمر، لكنه قال في نفسه إنهم بهذا لا يلحقون العار بأفدوتيا يميليانوفنا إذا منحوني إياها، فأنا قريب منهم، وأعرف مزاج السيد، ولا بأس بالنسبة لي بزوجة جميلة مثلها. باختصار كان العريس راضيًا.

---

(٢٦) اسم الخادم.

(٢٧) دونكا هي دونيا؛ صيغ تدليل مختلفة.

صُدِمت دونيا عندما أخبروها بأنها ستصير عروسًا. بكت وحزنت، ولم يعد أمامها إلا أن تعود إلى أبيها في القرية أو ترضى بالزواج من كاميردينير. اختارت الاختيار الأخير. لم تستطع إلا أن ترتجف عندما كانت تفكر في الطريقة التي ستسخر بها منها صديقاتها، وتذكرت أنهن في أيام قوتها وعزها كن يطلقن عليها «نصف سيدة». في غضون أسبوع تزوجت. عندما جلب الشباب في الصباح التالي الحلوى للتهنئة كان نيجروف سعيدًا، ومنح العريس مائة روبل، وقال للطاهي الذي التقاه:

- تعلَّم يا حمار. صحيح أنني أحب أن أؤدِّب، لكني أحب أن أمنح أيضًا. لقد خدمني جيدًا ونال مكافأته.

أجاب الطاهي:

- تحت أمر سعادتكم.

ولكن ما ارتسم على وجهه كان:

- إنني أغشك في كل عملية شراء، ولا يمكنك أن تخدعني. لقد ظفرتَ بأحمق!

في المساء أولم كاميردينير مأدبة من النوع الذي يجعل الفناء كله يفوح برائحة الفودكا ليومين، ولم يُلقِ بالًا للنفقات بالطبع. إلا أن دونيا المسكينة مرت بوقت مرير ومعذِّب حينما أمروها أن تنتقل إلى غرفة الخدم هي وابنتها الصغيرة، وكذلك فراشها الصغير. كانت دونيا تحب الطفلة بلا شك بروحها البسيطة غير المصطنعة. كانت تخشى ألكسي أبراموفيتش، بينما خشيها بقية من في المنزل، بالرغم من أنها لم تضر

أحدًا قَطُّ. ونظرًا لأنه كان محكوم عليها بسجن ثقيل الوطأة، ركزت كل حاجتها للحب والحياة على هذه الطفلة. كانت روحها المقموعة البدائية طيبة. كانت خنوعة وخجولة، لا تسيء لأحد، ولم تستطع أن تتحمل معاملة نيجروف القاسية لها ولطفلتها، وحينها رفعت صوتها المرتعش، لا من فرط الخوف، بل من فرط الغضب، واحتقرت في هذه اللحظة نيجروف، وبدا الأمر كما لو أن نيجروف شعر في هذه اللحظة بموقفه المخزي، فانهال عليها بالسباب وغادر، صافقًا الباب من خلفه. عندما توجب نقل الفراش أغلقت دونيا الباب وهي تنشج، واندفعت راكعة على ركبتيها أمام الأيقونة المقدسة، وأمسكت بيد ابنتها الصغيرة ورشمت علامة الصليب. قالت:

– صلِّي، صلِّي يا كنزي الثمين، سنحتمل الحزن معًا. تشفعي عنا يا والدة الإله من أجل هذه الطفلة الصغيرة التي لم تذنب في شيء، وأنا الحمقاء ظننت أن عزيزتي سوف تكبر في سلام وتستقل عربة وترتدي فساتين حريرية، وأنني سأنظر من خلف شق الباب وأختبئ منكِ يا ملاكي، فما ستكون حاجتكِ إلى أم فلاحة؟! أما الآن فلن تكبري وسط الفرح، وربما سيجعلونكِ غاسلة لسيدة جديدة، وسيغمر الصابون يدكِ. يا إلهي! فيما أخطأت أمامك هذه الطفلة؟

وبينما كانت دونيا تنتحب سقطت على الأرض وتفتت قلبها، وتشبثت بها الطفلة المذعورة، ونظرت إليها تلك النظرات التي توحي بأنها تفهم كل شيء. بمرور ساعة كانوا قد نقلوا الفراش إلى غرفة

الخدم، وأمر ألكسي أبراموفيتش كاميردينير أن يُعوِّد الطفلة على أن تدعوه: «بابا»[٢٨].

ولكن من كانت تلك المرأة المختارة السعيدة؟ يمكننا أن نجد في موسكو تنوعًا خاصًا من الجنس الإنساني؛ نحن نتكلم عن تلك الأسر نصف الثرية من طبقة النبلاء التي غادر أبناؤها دائرة الضوء تمامًا، ويعيشون حياة متواضعة على مدار أجيال كاملة عبر طرق مختلفة. السمة الرئيسة لسكان هذه الأسر هي النظام المتماثل والكراهية الراسخة لكل ما هو جديد. يقفون في عمق الفناء المليء بأعمدة ملتوية وممرات قذرة، ويتخيلون أنفسهم ممثلين عن وجودنا الوطني لأنهم «في حاجة إلى الكفاس حاجتهم إلى الهواء»، ولأنهم يسافرون بالمزالج وفي العربات، ويصطحب الواحد منهم خادمين، ويعيشون عامًا كاملًا على الإمدادات التي تصلهم من بينزا وسيمبيرسكا[٢٩]. عاشت الكونتيسة مافرا إيلينيشنا في إحدى هذه الأُسر. في فترة كانت تعيش في الأجواء الأرستقراطية، وكانت تتدلل، معجبة بنفسها، وقضت وقتًا في الفناء مع كانتيمير يغازلها وتتدلل، وكتب لها في دفتر صغير مادريغال[٣٠]

(٢٨) الكلمة الروسية المستخدمة هنا ليست بابا بالمعنى المباشر، لكنها تسمية للوالد كانت شائعة في الأوساط الريفية.

(٢٩) مدينتان روسيتان.

(٣٠) المادريغال: بالإيطالية «madrigale» وبالإنجليزية «madrigal»، مصطلح مشتق من اللاتينية matricale ويعني أغنية بكلمات شعبية - أو- غناء باللغة الأم، وهو نوع من أنواع التراتيل الدينية القديمة بالأسلوب الموسيقي البوليفوني من دون مصاحبة الآلات الموسيقية. ويطلق لفظ المادريغال في بعض الأحيان على القصائد الشعرية الغنائية القصيرة الغزلية الرقيقة، المستقاة من الفن الشعبي.

«أنتِ آية المدح» التي ينتهي أحد مقاطعها بـ«الإلهة مينيريفا[٣١]». لكنها كانت بطبيعتها شديدة البرودة، ومختالة بجمالها، ومن ثَم كانت ترفض العرسان الذين تقدموا لها في انتظار أن يأتيها عريس رائع. في هذه الفترة مات والدها، وانخرط أخوها الذي تولى مسؤولية الضيعة بأكملها في الشرب، وبمرور عشر سنوات خسر الملكية برمتها تقريبًا في لعب الورق. صارت حياة المدينة مكلفة، وتحتم العيش بمزيد من التواضع. عندما فهمت الكونتيسة تمامًا موقفها الصعب كانت قد بلغت الثلاثين، وواجهت أمرين مريعين في وقت واحد: حالة الاضطراب، وانقضاء الشباب. هنا قامت ببعض المحاولات اليائسة للزواج، لكنها لم تنجح. حينها، وبعد أن كتمت ضغينة مريعة داخل صدرها انتقلت إلى موسكو قائلة إنها سئمت من الضجيج، وإنها تنشد الهدوء[٣٢]. في البداية رحبوا بها جدًّا في موسكو، واعتبروا أن زيارة الكونتيسة أمر في غاية الأهمية، ولكن تدريجيًّا ابتعد الجميع عن منزلها بسبب لغتها الحادة وغطرستها غير المحتملة. أما هي، وقد صارت وحيدة ومهجورة، امتلأت هذه العذراء العجوز بالمزيد من السخط والكراهية، وأحاطت نفسها بمختلف العجائز المتسولات اللاتي يبدون ورعات، وفي الآن ذاته متسولات بعض الشيء، كما أخذت تجمع الإشاعات من أطراف المدينة كافة، مذعورة من هذا الزمن المنحل، وقد وضعت عذريتها اللا نهائية في مكانة سامية. أراد شقيقها الكونت الذي أهدر

(٣١) إلهة الحكمة والفنون والحرب عند الرومان.

(٣٢) لا يخفى عن القارئ تناقض قولها، حيث إن الانتقال إلى موسكو يعني أن تعيش وسط الضجيج وأضواء المجتمع الراقي في ذلك الوقت.

الملكية تمامًا أن يصلح من خطئه، ومن ثَم قرر أن يقوم بمأثرة بطولية بمعايير هذا الزمن؛ أن يتزوج من ابنة تاجر. على مدار أربعة أعوام كان يهينها كل يوم على وضاعة أصلها، وخسر المهر (الدوطة) الذي ناله من زوجته[٣٣] حتى آخر كوبيك، وطردها من الفناء وثمل ومات. بعد عام آخر ماتت الزوجة تاركة من خلفها ابنة في الخامسة من العمر لا راعي لها. قررت مافرا إيلينيشنا أن تتولى تربيتها. من الصعب الجزم بما دفعها إلى ذلك؛ قد تكون كبريائها العائلية أو رغبتها في مشاركة الطفلة أو كراهيتها لأخيها... أيًا كان الأمر، لم تكن حياة الطفلة الصغيرة جيدة، وقد حُرمت من جميع مباهج عمرها، وصارت خائفة ومذعورة ومقموعة، فقد كانت أنانية العذراء العجوز مريعة؛ أنانية تود أن تسد كل الفجوات المتروكة في قلب صاحبتها الجامد. كبرت الكونتيسة الصغيرة وسط الحزن والوحشة، ولسوء حظها لم تكن من الشخصيات ذات الطبائع التي تتطور نتيجة الاضطهاد الخارجي. ما إن بدأ وعيها ينضج حتى وجدت شعورين قويين في داخلها: رغبة لا تُحتمل في المسرات المادية، وكراهية قوية لنمط حياة عمتها. كان كلا الشعورين مبررًا. لم يقتصر الأمر على أن مافرا إيلينيشنا لم توفر لابنة أخيها أي مصدر تسلية، بل إنها قتلت بكل كد كل المسرات والمتع الخفية التي خلقتها بنفسها. كانت ترى أن حياة الفتاة الصغيرة مخصصة لهدف واحد؛ أن تقرأ لها جهرًا عندما يأتي موعد النوم، وأن تتبعها في

(٣٣) كانت العروس هي التي تدفع مهرًا للعريس في روسيا في هذا الوقت، بعكس الأمر في ثقافتنا المصرية والعربية.

بقية الأوقات. لقد أرادت أن تبتلع شبابها برمته، وتمتص عصارات نفسها الطازجة امتنانًا وعرفانًا من الفتاة لها على تربيتها؛ الأمر الذي لم تطلبه الفتاة، لكنها تلقت بسببه اللوم في كل دقيقة. مر الوقت. صارت الكونتيسة عروسًا؛ صارت عروسًا تمامًا، وكانت حينها في العشرين من العمر. كانت تشعر بالملل الشديد ورتابة وضعها، وكان وجودها كله يدور حول فكرة واحدة: كيفية الخلاص من جحيم منزل عمتها. حتى المقبرة بدت لها مكانًا أفضل. تجرعت الخل حتى تُصاب السل، لكنها لم تنجح. أرادت أن تذهب إلى أحد الأديرة، لكنها لم تتمتع بالحسم الكامل لتنفيذ ذلك. سريعًا انعطف مسار تفكيرها نحو منحى آخر. عرفت من الروايات الفرنسية التي وجدتها في خزانة عمتها -ولا أعرف كيف حدث ذلك- أن هناك بالإضافة إلى الموت والدير أنواعًا أخرى عظيمة من السلوان. تراجعت عن نخيل رأس آدم، وبدأت تفكر في رأس حية ذات شاربين وشعر مجعد. عذبتها آلاف اللوحات الرومانسية نهارًا وليلًا. ألَّفت لنفسها روايات كاملة. كانت تتخيل أحدهم يأخذها بعيدًا، وتتم ملاحقتهما، ويأمرونها بألا تحبه ويطلقون النار. ثم يقول لها: «أنتِ لي للأبد»، ممسكًا بمسدس وما إلى ذلك. دارت كل أحلامها تقريبًا حول هذا الموضوع بأشكال مختلفة، وكذلك كل أفكارها ورؤاها، وكانت المسكينة تستيقظ كل صباح، وترى أن أحدًا لم يأخذها بعيدًا، وأن أحدًا لا يقول لها: «أنتِ لي للأبد»، فتخرج أنفاسها بصعوبة وتنهمر

دموعها على وسادتها، وتشرب بيأس شديد مصل اللبن[٣٤]، وبيأس أكبر ترتدي المشد عالمة أن أحدًا لا يُعجب بقوامها. لم يكن بالإمكان التغلب على هذه الحالة النفسية على الإطلاق بمصل اللبن، فقد أفضى بصاحبته مباشرة إلى الحساسية والاهتياج. بدأت الكونتيسة في رعاية جميع الخادمات، وضم أبناء الحوذية إلى كنفها. إنها فترة يحدث بعدها أمر من الاثنين: إما أن تتزوج الفتاة أو تُقبِل على التبغ وتحب القطط والكلاب الصغيرة، ولا تعود تنتمي لجنس الرجال ولا النساء. لحسن الحظ كان الاختيار الأول من نصيب الكونتيسة. لم تكن سيئة المظهر، وفي هذه الفترة تحديدًا كان من الضروري أن تعجب بطلنا، وقد أسرت نيجروف بكيانها كلها، وعينيها الداكنتين وثدييها اللذين لا يرتفعان بالدرجة ذاتها. شاهدها مرة عند كنيسة ستارايا فوزنيسيني وحُسم مصير حياته. تذكر الجنرال أعوام خدمته العسكرية، وبدأ يبحث عن كل الفرص المتاحة التي يمكن أن يرى فيها الكونتيسة، وانتظر ساعات كاملة في الشرفة، وارتبك بعض الشيء عندما سند حوذيان الكونتيسة العجوز لتهبط من تلك العربة التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، والتي تجرها جياد فوّتت فرصة الموت، وبدت الكونتيسة كغراب يرتدي قبعة، وحالت الكونتيسة العجوز دون أن تخرج الكونتيسة الشابة من العربة التي كانت تبدو كوردة سنتيفولية[٣٥]. كانت لدى الجنرال ابنة عم في موسكو، ومن لديه ابنة عم في موسكو ذات سمعة جيدة وثرية كفاية

---

(٣٤) مصل اللبن ويُسمّى أيضًا شرش اللبن هو السائل المتبقي أو المفصول من اللبن الرائب أو الزبادي أو من الحليب.

(٣٥) نوع من انواع الورد من فصيله (Rosa) وهو جنس نبات من رتبة الورديات.

يمكنه أن يتزوج من أي عروس تقريبًا إذا كان يتمتع بالحسب والنسب والمال، وإذا لم يكن لدى العروس زوج بعد. أفضى الجنرال بسره لابنة عمه التي قررت أن تشارك في الأمر مشاركة أخوية فعلًا. لشهرين كاملين كاد الملل أن يقضي على المسكينة حتى لاحت أمامها فجأة فرصة ذهبية، كما لو أنها من السماء، لتتوسط من أجل زواجه. أرسلت العربة ذات الأربع عجلات على الفور لزوجة أحد أعضاء المستشارين الفخريين[٣٦]. وصلت زوجة المستشار الفخري، وطردت ابنة العم الخادمات من الغرف المجاورة حتى لا يستطيع أحد التصنت. بمرور ساعة هربت زوجة المستشار الفخري بوجه محمر من ابنة العم، بعد أن بينت لها الأمر في غرفتها، واندفعت إلى الفناء. في اليوم التالي، في التاسعة صباحًا غضبت ابنة العم من عدم دقة زوجة المستشار الفخري التي توجب أن تصل في الحادية عشرة ولم تصل بعد. في النهاية ظهرت الضيفة المرجوة، ومعها امرأة أخرى ترتدي قبعة. باختصار تم الأمر بسرعة غير عادية وبالترتيب المناسب. تدريجيًّا بدأت تحدث تغييرات مهمة في منزل الكونتيسة؛ خلعوا الستائر الكتانية الخشنة، وأرسلوها للتنظيف، وأُصدِرت الأوامر بتنظيف الأقفال بالكفاس (بدلًا من الخل). وضعوا إطارًا شتويًّا في القاعة الأمامية التي كانت تفوح منها رائحة جلدية بشعة، حيث كان أربعة من الخدم يحوكون حمالات وأربطة. أما مافرا إيلينيشنا، والتي كان الجميع قد تخلوا عنها سابقًا، ابتهجت بأن جنرالًا ثريًّا يتودد إلى ابنة أخيها، ولكن حماية لمكانتها لم

---

(٣٦) رتبة حكومية روسية في هذا الوقت.

تتنازل إلا بصعوبة بالسماح بأن يبدأ الزوجان المستقبليان التواعد. ذات صباح أمرت الكونتيسة ابنة أخيها بأن تُولي مزيدًا من الانتباه إلى ثيابها، وتكشف المزيد من منطقة عنقها، وفحصتها بنفسها من رأسها وحتى أخمصي قدميها.

- لماذا تأمرينني بارتداء هذه الثياب يا ماما؟ هل سيأتينا ضيوف؟

- هذا ليس من شأنكِ يا عزيزتي.

هكذا أجابت الكونتيسة، ولكن بلهجة طيبة دمثة.

كاد فستان ابنة الأخ الرقيق أن يتوهج من اللهب الضارب في عروقها. لقد خمنت الأمر، ولم تستطع أن تصدق، لم تستطع أن تصدق! كان عليها أن تخرج إلى الهواء الطلق حتى لا تختنق. أخبرتها الخادمات أنهن في انتظار وصول الجنرال اليوم، وأنه سيتقدم إليها. وفجأة وصلت عربة.

قالت الكونتيسة الشابة:

- بالاشكا، سوف أموت، سوف أموت.

- ومن يموت يا سعادة الكونتيسة من التودد إليه، ولو حتى من هؤلاء العرسان؟! كنت أقول دائمًا إن كونتيستنا العزيزة ستتزوج من جنرال، اسألي الجميع.

ومن يستطيع أن يصف بقلمه كل ما شعرت به الفتاة المسكينة في أثناء ظهورها وتفحصها! عندما تمالكت نفسها عدة مرات ذُهِلت في البداية من معطف ألكسي أبراموفيتش. لم تصدق إلا بصعوبةٍ زيه

العسكري والكتافات المعلقة على كتفيه. مع ذلك راق لها نيجروف، حتى لو لم يكن يرتدي زيه العسكري، وبالرغم من أنه أوشك على بلوغ الأربعين، ولكن بفضل حالته الصحية الجيدة استطاع أن يظل مثيرًا للإعجاب. لم يكن بطبيعته متحدثًا فصيحًا، لكنه اتسم بهذا النوع من الوقاحة التي يتسم بها العسكريين كافة، خاصة الذين خدموا في سلاح الفرسان. أما بقية العيوب التي كان بوسع العروس أن تكتشفها فيه، فقد توارت خلف شاربيه الرائعين اللذين تم تهذيبهما بروعة هذه المرة. سارت الأمور على ما يرام، وبمرور أسبوع على هذا اللقاء جاء معارف مافرا إيلينيشنا ليهنئوها، وهم أناس كانوا قد أُعتُبِروا منذ فترة طويلة في عداد الأموات، لكنهم الآن خرجوا من جحورهم التي ظلوا فيها بعناد لثلاثين عامًا يصارعون الموت من دون استسلام، أناس ظلوا يولولون لثلاثين عامًا ويجمعون المال، وقد اكتنفهم المرض وصاروا محطمين، ومشلولين، ومختنقين، وطرشًا. قالت الكونتيسة الأمر ذاته للجميع:

- لا تقل دهشتي من هذه الأخبار عن دهشتكم. لم أتصور أن عزيزتي سوف تتزوج مبكرًا هكذا. إنها لا تزال طفلة ولكن هذه هي إرادة الله. إنه إنسان صلب وشريف، ويمكن أن يخدمها كأب. إنها تفتقر إلى الخبرة. أما فيما يتعلق بأنه جنرال وثري فهذا أمر لا يهم. السعادة ليست في المال. ليس هناك المزيد لأقوله. لقد تذوقت ثمرة تربيتي الورعة (وهنا تُقرِّب المنديل من عينها) لا يتصور المرء حقًّا ما تفعله التربية! أكان بالإمكان أن ننتظر من أب متهتك -فليسامحه الله- وابنة تاجر أن يربياها هذه التربية التي ربيتها لها بنفسي؟ لا تصدقوا. لم تقل أربع

كلمات، وأنا التي نصحتها. قلت لها يا عزيزتي قولي إذا كنتِ تمانعين هذا الزواج، لكنها قالت: إذا كنتِ تقبلينه يا ماما فسأقبله. إنها فتاة نادرة حقًّا في مثل هذا الزمن الفاسد.

أبدى معارف وأصدقاء مافرا إيلينيشنا اتفاقهم على تغير الأخلاق، ثم حان وقت النميمة والتلطيخ عديم الضمير لسمعة الغرباء. باختصار، بعد مرور فترة قصيرة أحضرت العربةُ ذات الأربع عجلات، تجرها الخيول حالكة السواد، الجنرالَ نيجروف، مرتديًا زيه العسكري ومعطفه، وبصحبته قرينته جلافيرا لفوفنا في فستان الزفاف المزين بالشرائط. جوقة وإشبين وإشبينات وموسيقى وذهب وبريق وعطور وشباب... وقف كل هذا الهجين الذي يضم أيضًا الزوجة الخادمة في الفناء، يحاول رؤية العروسين، وكان زوجها - بصفته المسؤول الأعلى - قد تولَّى إعداد المكتب وغرفة النوم. لم ترَ الكونتيسة مثل هذا الثراء من قبل عن كثب، وكانت سعيدة بكامل كيانها، من أصغر إصبع في قدمها وحتى نهاية خصلات شعرها؛ فبطريقة أو بأخرى تحققت أحلامها.

بمرور بضعة أسابيع على الزفاف أينعت جلافيرا لفوفنا كصبار يتوهج، وكانت ترتدي رداءها الأبيض الواسع المحاك من الدانتيل وهي تصب الشاي في الصباح، وزوجها في مبذله الذهبي الحريري مضطجعًا على الأريكة يتساءل في نفسه: أي عربة يطلبها ليذهب بها إلى الكنيسة؟ الصفراء أم الزرقاء؟ الصفراء أفضل، إلا أن الزرقاء لا بأس بها أيضًا. كانت جلافيرا لفوفنا منشغلة أيضًا بأمر ما، لقد نسيت إبريق الشاي

وأسندت رأسها على يدها حالمة. كانت الحمرة أحيانًا تغزو وجنتيها، وفي أحيان أخرى كانت تُبدي قلقًا واضحًا. في النهاية لاحظ زوجها حالتها غير العادية وقال:

- لستِ على ما يرام يا جلاشينكا[٣٧]. هل أنتِ مريضة أم ماذا بكِ؟

أجابته ورفعت رأسها نحوه، وقد بدت كشخص ينشد العون:

- لا، أنا معافاة.

- كما تريدين، ولكن هناك شيئًا يشغل تفكيرك.

نهضت جلافيرا لفوفنا، واقتربت من زوجها وعانقته، وقالت بصوت ممثلة تراجيدية:

- ألكسيس، عدني أنك ستلبي طلبي.

اندهش ألكسيس، وأجاب:

- سنرى، سنرى.

- لا يا ألكسيس، أقسم لي بقبر والدتك إنك ستلبي طلبي.

أخرج غليونه من فمه ونظر إليها بتعجب.

- جلاشينكا، أنا لا أحب هذه المقدمات الطويلة. أنا رجل عسكري، وسأفعل ما بوسعي. قولي لي الأمر ببساطة.

وارت وجهها في صدره وانهمرت دموعها:

- أنا أعرف كل شيء يا ألكسيس، وأسامحك. أعرف أن لديك ابنة،

---

(٣٧) صيغة تحبب لجلافيرا.

ابنة غير شرعية. أنا أتفهم عنفوان وطيش الشباب (لوبونكا كانت في الثالثة فقط!). ألكسيس، إنها ابنتك، ولقد رأيتها. آه أنا أحبها. فلتجعلها ابنتي. اسمح لي أن آخذها وأربيها، وعدني أنك لن تنتقم ممن عرفتُ منهم الأمر. يا صديقي، أنا أهيم بابنتك. اسمح لي، ولا ترفض طلبي.

وانهمرت الدموع الغزيرة على الثوب المصنوع من الدانتيل.

فَقَدَ سعادته ورباطة جأشه وارتبك إلى أقصى حد، وقبل أن يتمالك نفسه مجددًا أجبرته زوجته على أن يسمح لها، ويقسم بقبر أمه ورماد أبيه وفرحتهما وأبنائهما المستقبليين وحبهما، ألا يرفض طلبها، وألا يفتش عن الوسيلة التي عرفت بها الأمر. الطفلة الصغيرة التي كانوا قد حطوا من مكانتها وهبطوا بها إلى غرفة بالفناء، ترقّت مرة أخرى، وعاد الفراش إلى الطابق الأول. لوبونكا التي علموها في البداية ألا تنادي والدها: «والدي»، بدأوا يعلمونها مجددًا أن تنادي الكونتيسة «أمي»، وأرادوها أن تترعرع على فكرة أن دونيا هي مربيتها. بل وصل الأمر إلى أن جلافيرا لفوفنا اشترت بنفسها من المتجر الموجود عند جسر كوزينتسكي فستانًا طفوليًّا، وكست لوبونكا به، كما لو أنها دمية، ثم ضمتها إلى أحضانها وبكت. قالت لها:

– آه يا يتيمتي، ليس لكِ أب ولا أم، سوف أكون أنا كل شيء لكِ، إن أباكِ هنا.

وأشارت إلى السماء. تمتمت الطفلة:

– إنه هناك يطير بجناحين.

بكت جلافيرا لفوفنا مجددًا صائحة:

- يا للبساطة الملائكية!

وتم الأمر ببساطة شديدة. رسموا على السقف الذي كان مصممًا على طراز قديم شكل كيوبيد يهز رجليه وجناحيه، وقد ربط حبلًا أسود ما بالخطاف الحديدي المتدلية منه الثريا. كانت دونيا في منتهى السعادة، وكانت تنظر إلى جلافيرا لفوفنا نظرتها إلى ملاك، ولم يخالط شعورها بالعرفان أدنى قدر من العداء. إنها لم تمتعض حتى من أن ابنتها لم تعد ابنتها. كانت تراها ترتدي الثياب الجميلة، وتنعم براحة السادة والسيدات، ولم تقُل سوى:

- لماذا ولدت عزيزتي لوبونكا بهذا الجمال؟ يبدو الأمر كما لو أنه يستحيل أن ترتدي ثوبًا آخر، سوف تكون جميلة الجميلات.

طافت دونيا بالأديرة كافة، وأدت في كل مكان صلوات تكريم السيدة الطيبة[٣٨].

يعتبر الكثيرون الكونتيسة السابقة بطلة، وأنا أفترض أن سلوكها في حد ذاته كان أكثر القرارات تعجلًا، أو على الأقل معادل لقرارها المتسرع بالزواج من إنسان لا تعرف عنه سوى أنه رجل وجنرال. السبب واضح؛ ألا وهو الاهتياج العاطفي الذي يجعل صاحبه يُفضِّل المشاهد التراجيدية والتضحية بالنفس والأفعال النبيلة المتطرفة على أي شيء آخر في العالم. يتطلب منا الإنصاف أن نضيف أن جلافيرا

(٣٨) أي العذراء مريم.

لفوفنا لم تراودها في ذلك الوقت أي أفكار خبيثة، ولا حتى شعرت بالكبرياء؛ إنها نفسها لم تعرف سبب رغبتها في تربية لوبونكا. لقد راق لها الجانب الشجي لهذا العمل. بعد أن سمح ألكسي أبراموفيتش بذلك أدرك الموقف الغريب والطبيعي للطفلة، ولم يُكلِّف نفسه حتى عناء التفكير فيما إذا كان ما فعله حسنًا أم لا بالموافقة على ذلك. ترى هل ما فعله حسن أم لا في حقيقة الأمر؟ يمكننا أن نجد أمورًا كثيرة نؤيده بها ونعارضه بها أيضًا. من يرى أن الهدف الأسمى للحياة الإنسانية هو التطوير؛ أيًا كان مجاله، وأيًا كانت عواقبه، فسيكون في صف جلافيرا لفوفنا. من يعتبر أن الهدف الأسمى للحياة هو السعادة؛ أيًا كان المسار المؤدي إليها، وأيًا كان ثمنها، فسيكون ضدها. لو كانت لوبونكا قد عرفت منذ زمن، وهي في غرفة الخدم، عن أصلها، لضاق نطاق مفاهيمها بشدة، ولغرقت في سبات عميق، ولم يكن شيء لينتج عن ذلك. من المحتمل أن ألكسي أبراموفيتش كان سيعطيها هبة ما ليرضي ضميره، بل ولربما أعطاها ألفًا أخرى كدوطة لها. وطبقًا لمفاهيمها في هذه الظروف، كان من الممكن أن تكون سعيدة سعادة استثنائية بالزواج من تاجر من النقابة الحرفية الثالثة، وأن ترتدي منديلًا حريريًا فوق رأسها، ولشربت اثني عشر كوبًا من شاي الزهور، وأنجبت أسرة تجار كاملة. كانت حينها ستزور مدبرة منزل نيجروف، وتنظر إليها صديقاتها السابقات بحسد، وكانت حينها لتُعمِّر حتى المائة، وتأمل أن ترافق مائة عربة جثمانها حتى مقابر فاجانكوفو[٣٩]. كان وضع لوبونكا في غرفة

(٣٩) مقابر شهيرة في موسكو.

المعيشة مختلفًا تمامًا؛ فبغض النظر عن مدى الغباء الذي ربوها عليه، نالت فرصة أن تحظى بتربية جيدة بعيدة تمامًا عن المفاهيم الغبية التي تربت عليها سابقًا. في الآن ذاته كان عليها أن تفهم مدى عبثية موقفها؛ ففي الطابق الأرضي كانت الإساءات والدموع والأحزان في انتظارها، وكل هذا كان من شأنه أن يُشكِّل تطورها النفسي القادم، بل وفي الآن ذاته تطور إصابتها بالسل. وهكذا يمكنكم بأنفسكم أن تقرروا ما إذا كان ما فعلته السيدة نيجروف حسنًا أم لا.

سارت أمور الحياة اليومية لألكسي أبراموفيتش بنعومة كالزبد؛ فظهرت دائمًا عربته السوداء اللامعة التي تشع بالسعادة، وتحوي بداخلها الزوجين السعيدين. كان بالإمكان بالطبع أن يُلتقى بهما في ١ مايو في سوكولنيكي[٤٠]، وفي الحديقة الملكية في فوزنيسيني، وعند بحيرات بريسينسكي في عيد العنصرة[٤١]. كما كان بإمكان المرء أن يجدهما كل يوم تقريبًا عند تفيرسكوي بوليفارد. في الشتاء كانوا يُضايفون، ويُقدَّم لهما الغداء ويحظون بكوخهما الخاص. لكن الرتابة القاتلة كانت تقتل نزهاتهما بموسكو، فما كان يحدث في العام السابق هو ما يحدث الآن وهو ما سيحدث في المستقبل، وحينها أوشك الأمر على أن نلتقي بهما في صورة تاجر سمين يرتدي قفطانًا فاخرًا بصحبة زوجته ذات السن السوداء، وقد تزينت بمختلف أنواع الأحجار الكريمة الثمينة التي لا نجدها اليوم إلا قليلًا. كل ما تطلَّبه الأمر هو قفطان أقدم

(٤٠) متنزه شهير في موسكو، ويبدو أن ثمة مناسبة يتم إحياؤها فيه في هذا التاريخ.

(٤١) من الأعياد المسيحية المهمة.

ولحية أكثر بياضًا وأسنان أكثر سوادًا للزوجة، ويتناغم كل شيء. وكما التقت ذات مرة قبضة قوية بشاربين مهيمنين وثوب مضحك، يتكرر الأمر اليوم، ولكن بصورة أضعف قليلًا، وكما حدث في التنزه سابقًا أن التقى مُصاب بالنقرس مع تبغ السعوط، هكذا يحدث اليوم! هذا وحده ما بوسعه أن يجعله يغلق الغرفة على نفسه. كان ألكسي أبراموفيتش رجلًا قويًّا، ولكن القوى البشرية محدودة. لم يستطع الاستمرار على هذه الحال لأكثر من عشرة أعوام، فقد شعر بالملل هو وجلاشا. على مدار هذه الأعوام العشرة أنجبا ابنًا وابنة، ولم تصِر الأيام ثقيلة عليهما، بل الساعات. لم يعودا يرغبان في ارتداء ثيابهما للخروج، وبدآ يحبان المكوث في المنزل، ولا أعرف لماذا أو ما الهدف من هذا القرار، ولكن ربما من أجل أن يحققا الراحة التامة، قررا أن يعيشا في القرية. حدث ذلك قبل أربعة أعوام من حديث الجنرال مع ديمتري ياكوفليفتيش.



-٣-

سيرة حياة ديمتري ياكوفليفيتش

لا يمكن بالطبع لسيرة حياة شاب فقير أن تكون مسلية بالقدر ذاته الذي كانت به سيرة حياة ألكسي أبراموفيتش وسكان بيته. يتحتم علينا أن ننتقل من عالم العربات الفاخرة إلى عالم يتركز جل انتباهه على طعام الغد، كما يتحتم علينا أن ننتقل من موسكو إلى مدينة إقليمية بعيدة، حيث لا يكون بوسعنا أن نجد فيها شارعًا واحدًا مرصوفًا يمكن قطعه بمركبة، أو حتى تعيش فيه أي أسرة أرستقراطية، بل سنبتعد إلى واحد من الأزقة الواهنة التي يستحيل فيها تقريبًا السير أو استقلال عربة، وهناك سننجح في العثور على منزل صغير أسود مشوَّه ذي ثلاث نوافذ؛ إنه منزل طبيب المقاطعة: كروتسيفيرسكي. يقع المنزل المتواضع بين رفاقه من المنازل الأخرى السوداء والمشوهة. ستنهار كل هذه المنازل سريعًا، وتُستَبدل بها منازل أخرى جديدة، ولن يتذكرها أحد. في غضون ذلك استمرت الحياة في هذه المنازل، وفارت العواطف، وتبدلت الأجيال، ولم يكن شيء يُعرف عن كل هذه المخلوقات أكثر مما يُعرف عن البدائيين القاطنين بأستراليا، كما لو أنهم بشر قد بقوا خارج مظلة القانون، غير مُعترف بهم. لكن ها هو المنزل الذي كنا نبحث عنه. عاش فيه لما

يقرب من ثلاثين عامًا الشيخ الطيب والشريف بصحبة زوجته. كانت حياته بمثابة معركة مستمرة مع مختلف أنواع الاحتياجات والحرمانات. لقد خرج منتصرًا تمامًا، حيث إنه لم يمُت جوعًا، ولم يطلق النار على نفسه يأسًا، ولم يذهب هذا النصر في مهب الريح. عندما بلغ الخمسين كان قد شاب ونحل، وغطت التجاعيد وجهه، بالرغم من القوة والصحة الموفورتين اللتين حبته الطبيعة إياهما. لم يحدث أن أصابت تفجرات عاصفة أو عواطف جامحة أو تقلبات متطرفة هذا الجسد وجعلته يتدهور تدهورًا سابقًا لأوانه، بل حدث ذلك بفعل الصراع المستمر وثقيل الوطأة؛ الصراع الضحل والمسيء مع الحاجة والتفكير في الغد، والحياة التي قضاها وسط الفاقة والعوز. في هذه الأجواء المستمرة تذوي الحياة الاجتماعية للنفس، وتجف وسط القلق الأبدي، وتنسى أن لديها أجنحة، وتظل ملتصقة بالأرض، من دون أن تجرؤ على رفع بصرها صوب الشمس. كانت حياة الطبيب كروتسيفيرسكي بمثابة مأثرة بطولية مستمرة في ميدان معركة مظلم، أما المكافأة فكانت تَوفُّر خبز اليوم، والأمل في تَوفُّره في الغد. لقد نال منحة حكومية للدراسة في جامعة موسكو، وتخرج طبيبًا، وقبل تعيينه تزوج من ألمانية[٤٢] ابنة لأحد الصيادلة، وكان مهرها الذي حافظت عليه طوال حياته وفقًا للعادات الألمانية، بالإضافة إلى نفسها الطيبة وإنكارها لذاتها وحبها، يتألف من عدة فساتين مشبعة برائحة زيت الورد. لم يخطر على بال

(٤٢) حدث في عهد قديم بروسيا أن هاجر عدد كبير من الألمان لروسيا، واستوطنوا أجزاء منها، ولذلك تمتلئ الروايات الروسية القديمة بشخصيات من أصل ألماني.

التلميذ العاشق بحرارة أن لديه الحق في الحب والسعادة الأسرية، وأنه جدير بهما، وأن ثمة شروط جدارة خاصة بهذه الحقوق، كما هو الأمر مع حق الانتخاب الفرنسي. بمرور بضعة أيام على الزواج عُيِّن طبيبًا بأحد الأفواج بالجيش. تحمل ثمانية أعوام من حياة الترحال المستمر، وفي العام التاسع أُنهك أخيرًا وبدأ يطلب وظيفة ثابتة، ومنحوه واحدة من الوظائف الشاغرة. جرَّ كروتسيفيرسكي معه زوجته وأطفاله من أحد أطراف روسيا إلى الطرف الآخر، واستقرت به الحال في عاصمة المقاطعة (ن. ن). في البداية كانت لديه بعض المشغوليات. بالرغم من أن أصحاب المقام الرفيع ومُلاك الأراضي في هذه المدن كانوا يفضلون أن يعالجهم أطباء ألمان، ولكن لحسن الحظ لم يكن بالإمكان أن يجدوا ألمانًا في هذه المدينة سوى صانع الساعات. كانت هذه فترة سعيدة في حياة كروتسيفيرسكي. حينها اشترى بيته الصغير ذا النوافذ الثلاث، وفاجأت مارجريتا كارلوفنا زوجها في يوم يعقوب[٤٣] «أخو الرب» حيث نجَّدت ليلًا أريكة قديمة ومقاعد قماشية اشترتها بمبلغ كانت قد راكمته كوبيكًا فوق كوبيك. كان القماش القطني للمقاعد والأريكة رائعًا، وصُوِّر عليه طرد إبراهيم لهاجر ومعها إسماعيل ثلاث مرات، كما تم تصوير سارة[٤٤] وهي تطلق تهديدها. أما على المقاعد

---

(٤٣) عيد تُعيد به الكنيسة الروسية الأرثوذكسية في ٥ نوفمبر تذكارًا ليعقوب الرسول، وهو واحد من السبعين رسولًا الذين اختارهم المسيح بحسب الإنجيل. وصفه الإنجيل بـ«أخو الرب»، وبحسب التقليد فإن هذه الكنية تطلق على أبناء خالته أو بعض أقاربه.

(٤٤) بحسب القصة التوراتية لم ينجب إبراهيم في البداية من زوجته سارة، فأشارت عليه بأن يدخل على جاريتها هاجر، وأنجبت من إبراهيم إسماعيل، ثم دفعت سارة زوجها إبراهيم إلى طرد هاجر وإسماعيل، وأنجبت لإبراهيم ابن الموعد: إسحاق.

فكانت على الناحية اليمنى منها أقدام إبراهيم وهاجر وإسماعيل وسارة، ورؤوسهم على الناحية اليسرى. لكن هذه الفترة السعيدة لم تمتد طويلًا. جلب أحد السادة الذي كانت ضيعته قريبة من المدينة طبيبه الخاص معه، مما أدى إلى القضاء على مهنة كروتسيفيرسكي تمامًا. كان هذا الطبيب متخصصًا في علاج الأمراض النسائية، وجنَّت به المريضات، وعالج تقريبًا كل ما يتعلق بالعلق، وأثبت بفصاحة أن الأمر لا يقتصر على أن كل الأمراض هي التهابات، بل إن الحياة ذاتها ليست سوى التهاب أمومي. أما حيال كروتسيفيرسكي فقد أعلن باختصار وإذلال مميت أنه مجرد صيحة دارجة. أثنت المدينة كلها على حياكة وسائد الأريكة والحقائب والهدايا التذكارية والمفاجآت، لكنهم نسوا الأمر الأساسي الذي يتعلق بكونه طبيبًا. في الحقيقة ظل التجار ورجال الدين على إخلاصهم لكروتسيفيرسكي، ولكن التجار لم يعاودوا الظهور مجددًا في عيادته، فقد صاروا جميعًا - والحمد لله - في تمام الصحة دائمًا. وحينما كانوا يشعرون بأنهم ليسوا على ما يرام، كانوا يتصرفون بحسب تقديرهم الخاص، فينغمسون في المغطس، ويلطخون أنفسهم بمختلف أنواع القاذورات كالزفت والقطران والكحول الطارد للنمل، وكانوا بذلك يعودون أصحاء مجددًا أو يموتون في غضون عدة أيام. في كلتا الحالتين لم يكن هناك ما يمكن لكروتسيفيرسكي أن يفعله، وصار يدفع ثمن الموت، وكان الطبيب الشاب يقول في كل مرة للسيدات: «أمر غريب أن ياكوف إيفانوفيتش يجيد عمله تمامًا؛ فكيف لم يدرك إذن ضرورة استخدام t-rae opii Sydenhamii، ونقاط X و solutum

in aqua distil lata؟ وكيف لم يضع فوق الملعقة خمسًا وأربعين علقة؟ لو فعل ذلك لعاش هذا المريض». بسماع هذه الكلمات اللاتينية صدَّقت زوجة حاكم المقاطعة أن هذا المريض كان من الممكن أن يعيش. وهكذا دُفِع كروتسيفيرسكي تدريجيًّا إلى الاكتفاء بدخل واحد تألَّف من أربعمائة روبل. كان لديه خمسة أطفال، ومن ثَم صارت الحياة أصعب فأصعب. لم يكن ياكوف إيفانوفيتش يعرف كيف يتدبر أمره إلى أن كشفت له الحمى القرمزية عن المخرج من هذه الورطة. مات ثلاثة من أطفاله واحدًا تلو الآخر، ولم يبقَ له سوى ابنته الكبرى وابنه الأصغر. بدا أن الصبي أفلت من الموت والمرض بفضل ضعفه غير العادي. لقد وُلِد قبل أوانه، ولم يبدُ أنه سيستمر على قيد الحياة، فقد كان ضعيفًا، ونحيلًا، ومعتلًّا، وعصبيًّا. كان يبدو أحيانًا غير مريض لكنه لم يبدُ قَطُّ معافى. بدأت مصائب هذا الطفل حتى قبل ولادته. في الوقت الذي كانت فيه مارجريتا كارلوفنا تعاني من حملها به، كانوا على وشك المرور بمحنة رهيبة. كره الحاكم كروتسيفيرسكي لتقديمه شهادة حيال الموت الطبيعي لحوذي أحد المُلاك. كان ياكوف إيفانوفيتش على وشك الهلاك، وكان في انتظار ضربة مريعة بنوع من الحزن البطولي الرقيق، صامتًا مبديًا إنكارًا للذات. مرت الضربة بجانب رأسه تمامًا. في هذا الوقت العصيب ولد ميتيا وسط دموع لا تتوقف، وهو الوحيد الذي عوقب فيما يتعلق بجثمان الحوذي الذي وجدوه. صار الطفل معبود مارجريتا كارلوفنا، وكلما ازداد مرضًا وضعفًا، ازداد تصميم الأم على حمايته. لقد تقاسمت معه كل قوتها، وأحيته بحبها، وأبعدته عن

الموت. يبدو الأمر كما لو أنها شعرت بأنه سيصير لهم الدعم والأمل والعزاء الوحيد. ماذا حدث إذن لشقيقته؟ كانت في السابعة عشرة من العمر حينما وصل إلى مدينتهم (ن. ن) فوج مشاة. عندما غادر الفوج المدينة، اتضح أن الابنة قد رحلت هي الأخرى بصحبة ملازم ثانٍ. بمرور عام كتبت لهما من كييف تطلب السماح والبركة، كما أخبرتهما أن الضابط قد تزوجها. بمرور عام آخر كتبت لهما مجددًا من كيشينيف[٤٥] قائلة إن زوجها تركها وإنها في ورطة هي وطفلها. أرسل لها الوالد خمسة وعشرين روبلًا. بعد ذلك لم يصل إليهما خبر عنها. عندما كبر ميتيا أرسلوه إلى الجيمنازيا. نال هناك تعليمًا جيدًا وظل خجولًا، ومتواضعًا، وهادئًا، بل إنه كان محبوبًا حتى من المفتش الذي لم يتفق معه على الإطلاق في مسألة حبه للأطفال. أراد الأب بعد انتهاء دراسة الابن أن يُسجِّل اسمه في ديوان الحاكم، حيث وعد السكرتير بحمايته؛ ذلك السكرتير الذي عالج الأب أبناءه مجانًا من مرض الغدة الدرقية. فجأة انكشف أمام ميتيا طريق آخر. اجتاز أحد المحسنين والمستشارين السريين المدينة في طريقه إلى موسكو مارًّا بالقرية. أما مدير الجيمنازيا الذي وُهِب موهبة أن يعرف بوضوح كيف يقترب من المستشارين السريين، فقد توجَّه فورًا إليه بطلب أن يشرِّفهم بزيارة الحديقة ومشتل التنوير الوطني. لم يود المحسن أن يفعل ذلك، لكنه كان يحب أن يُستَقبل استقبالات حارة ومبجلة في الآن ذاته. وضَّح المدير بلباسه الرسمي، مُسنِدًا قبعته بسن سيفه، للمحسن تفصيلًا سبب

(٤٥) عاصمة مولدوفا وكبرى مدنها.

التواء الأغصان والدرج - بالرغم من أن المحسن لم يكن يلقي بالًا لهذا الأمر - ووقف الطلاب بنظام عند العمود الصحيح، ومشَّط المعلمون شعورهم جيدًا، وأحكموا ربطات العنق حول أعناقهم، وساروا بتوتر ونظراتهم توحي بشيء ما للطلاب والحارس الذي كان أقلهم ارتباكًا. طلب مدرس الفيزياء إذن سعادته ليقتل أرنبًا أسفل قبة آلة هوائية وحمامة وقارورة ليدن[٤٦]. طلب المحسن منهم أن يعفوه من كل ذلك، ومن ثَم نظر المدير بتأثر إلى جميع الطلاب والمعلمين كما لو أنه يقول لهم: «دائمًا ما تقترن العظمة بالتواضع». عاش الأرنب والحمامة بعد ذلك في عهدة الحارس إلى أن جلبهما المدرس العنيد مجددًا، وضحى بهما من أجل العلم والتعليم، ليسعد المدينة كلها. ثم تقدم أحد الطلبة إلى الأمام، وسأله مدرس الفرنسية: «أليس لديك شيء لتقوله عن الزيارة الرفيعة لراعي العلوم؟»، وسرعان ما بدأ الطالب بفرنسية شعائرية: «كيف يمكننا نحن الأطفال الفقراء أن نشكر زائرنا المبجل؟»[٤٧].

بالنظر إلى هذا الخطاب السلافي، انتبه المحسن قليلًا إلى ميتيا الذي بدا مريضًا ورقيقًا، ومن ثَم استدعاه وتحدث معه ولاطفه. قال المدير للمحسن إن ميتيا مدرس ممتاز، وإنه كان سيذهب بعيدًا عن هنا لولا أن أباه لا يملك ما يمكن أن يعيل به ابنه في موسكو... إلخ. كان

---

(٤٦) قارورة ليدن هي أول قارورة لحفظ الطاقة داخل الدوائر الكهربائية تم اختراعها، وكان ذلك في عام ١٧٤٥، وتتكون القارورة من قارورة زجاجية تحفظ الماء بداخلها ويخترق الماء مسمار عبر فتحة ضيقة في القارورة، فإذا وصل المسمار نحو شحنة كهربية ساكنة ثم بعد ذلك فصل عنها، تحفظ لفترة داخل القارورة.

(٤٧) العبارة مكتوبة في الأصل بكلمات فرنسية مكتوبة بحروف روسية.

المحسن محسنًا[٤٨]، ومن ثَم قال لميتيا إنه في غضون شهر أو اثنين سيرسل إلى القائد، وإنه في حالة موافقة والديه سوف يأمر بإحضاره إلى موسكو، كما سيوفر له مكانًا في جناحه مع أبناء القائد. أرسل المدير فورًا الكاتب إلى ياكوف إيفانوفيتش. لحق ياكوف إيفانوفيتش بالمحسن الذي كان جالسًا بالفعل في مركبته الضخمة. كان العجوز متأثرًا بشدة، وانخرط في البكاء كالأطفال، وشكره بلغة متواضعة، بسيطة وخرقاء. أشار المحسن إلى رجل عريض المنكبين يعمل على ربط السيور بالعربة، وقال: «هذا هو قائدي[٤٩]. سوف يصطحب ولدك». قال هذا ورحل مبتسمًا ابتسامة مليئة بالإحسان. بمرور شهر انطلقت عربة ذات نواقيس من مدخل كروتسيفيرسكي، وميتيا جالس فيها متدثرًا بدثار، وقد أعدت الأم ثيابه وألبسته، وبصحبته الحوذي يرتدي سترة واحدة وحسب، لأنه يفضل أن يشعر بالدفء داخليًّا في طريقه. وهكذا يتحدد مصير إنسان! لو لم يمر المحسن بمدينة (ن. ن) لما التحق ميتيا بالديوان، ولما كانت قصتنا، بل كان ميتيا سيصير بمرور الوقت كبير معاوني المدير، ولعلم الله وحده مقدار الدخل الذي كان سينفقه على أبيه وأمه العجوزين، ولنال ياكوف إيفانوفيتش ومارجريتا كارلوفنا قسطًا من الراحة. شكَّل رحيل ميتيا نقطة تحول في حياة العجوزين؛ لقد صارا بمفردهما، وتملك الهدوء والحزن منزلهما. لم يكن القائد

---

(٤٨) التكرار مقصود من الكاتب.

(٤٩) الكلمة تعني بصورة مباشرة: قائد - مدير - مسؤول، ولكنها قد تستخدم للإشارة إلى سائق العربة حيث أنه قائدها، وهنا حدث اللبس في الفهم. أبقيتها إذن «قائدي» وليس «حوذيّ» لتوضيح اللبس.

(الحوذي) شخصًا عصبيًّا، وشعر أنه على وشك أن يذرف الدمع عندما ودَّع العجوزان ابنهما. لا يُودِّع الأب الفقير ابنه بالطريقة التي يودِّع بها الأب الغني ابنه؛ لقد قال: «امضِ، امضِ يا صديقي واسعَ خلف رزقك، فلم أعد أستطيع فعل المزيد لك. اسعَ في طريقك وتذكرنا». وسيرى العجوزان ما إن كان ابنهما سيجد رزقه أم لا، فكل شيء كامن خلف حجاب أسود سميك.

يريد الأب في هذا الظرف أن يمنح ابنه المزيد في طريقه، ولكن ليست هناك إمكانية لتحقيق ذلك. يعد عشر مرات كم يمكنه أن يقتطع من الثمانين روبلًا المتاحة، ويشعر طوال الوقت أن المبلغ قليل. كم من الدموع تذرفها الأم فوق صرة بائسة وضعت فيها الأغراض الضرورية! لكنها تفهم أن هذه الأغراض غير كافية، وتدرك أنه ليست هناك أي طريقة يمكن أن تجلب بها المزيد. لا يعرف أحد شيئًا عن مثل هذه المشاهد، فهي تُخفَى بعناية عن الأعين الخارجية، لكنها صارخة ومدمية للقلب. حسنًا، حسنًا، إنها مخفية.

في غضون أربعة أعوام صار كروتسيفيرسكي الصغير كانديدات. نظرًا لأنه لم يوهب أي مواهب لامعة خاصة، ولا قدرة فائقة على سرعة التخيل، بقي بحبه للعلم في هذه الدرجة، مستحقًّا إياها. بالنظر إلى وجهه اللطيف كان بوسع المرء أن يظن أن الأمر سينتهي به ليصير أحد المخلوقات الألمانية اللطيفة؛ هذه المخلوقات التي تصير نبيلة وسعيدة في ظل نشاط علمي وتربوي محدود قليلًا، لكنه يتسم بالكد الشديد، في ظل حياة عائلية محدودة؛ تلك الحياة التي يظل فيها الزوج يعشق زوجته

حتى بعد مرور عشرين عامًا، ويظل وجه الزوجة يتورد خجلًا عندما تسمع دعابة مبهمة. هكذا هي الحال في المدن الألمانية الأبوية الصغيرة، المليئة بمنازل الكهنة والمعلمين والشخصيات الشريفة والأخلاقية التي لا تمكن ملاحظاتها خارج دوائرها، ولكن هل يمكن أن تكون لدينا حياة كهذه؟ أقول بكل تيقن: لا. هذه الأجواء لا تلائم نفوسنا، ولا يمكننا أن نروي ظمأنا بهذا النبيذ الرقيق. إننا متعطشون إما إلى حياة أسمى كثيرًا من هذه الحياة، وإما أدنى منها كثيرًا، لكن في كلتا الحالتين هي حياة أوسع من هذه. بعد أن صار كانديدات حاول كروتسيفيرسكي في البداية أن يجد مكانًا في الجامعة، ثم فكر في الارتزاق من إعطاء دروس خصوصية، ولكن باءت كل محاولاته بالفشل. ورث من أبيه النجاح في كل الأعمال!

بمرور بضعة أشهر على إعلان حصول كروتسيفيرسكي على درجة كانديدات بمصاحبة أصوات الطبول والأبواق، وصله خطاب من أبيه يخبره بمرض أمه، وقد أشار الخطاب بشكل عابر إلى ضيق اليد. نظرًا لأنه يفهم شخصية والده، أدرك أن ضيق يد فظيعًا قد أجبره على كتابة هذه الإشارة العابرة. كان كروتسيفيرسكي قد أنفق آخر ما لديه من مال، ولم تبقَّ أمامه سوى وسيلة واحدة: كان لديه أحد الرعاة، وهو أحد الأساتذة الذي يكن نحوه علاقة قلبية. كتب له خطابًا صريحًا نبيلًا مؤثرًا، وطلب منه أن يقرضه ١٥٠ روبلًا. أجاب الأستاذ بكياسة لكنه لم يرسل مالًا، وتضمنت سطوره توبيخًا كامنًا بين السطور مفاده أن كروتسيفيرسكي لا يأتي إليه أبدًا ليتناول معه الغداء. ذُهِل الشاب من هذا

الرد، عرف كم كانت معرفته قليلة بقيمة الأشخاص، أو بالأحرى بقيمة المال! شعر بكآبة شديدة. ألقى الخطاب اللطيف للأستاذ الطيب على الطاولة، وذرع الغرفة مرة أو اثنتين وقد دمَّره الحزن تمامًا، وألقى نفسه على فراشه ودموعه تنهمر على وجنته في صمت. لقد تخيل بقوة شديدة الغرفة الفقيرة التي ترقد فيها أمه في ضعف وألم، بل وربما تكون في حالة احتضار، وبجانبها العجوز الحزين والمحطم. تنشد المريضة شيئًا ما، تريد، لكنها تخفي ما تريده حتى لا تزيد أحزان زوجها، لكنه يخمن مرادها، ويخفي أيضًا ذلك، خوفًا من أن يضطر لأن يرفض طلبها. أيها القارئ، إذا كنت ثريًّا أو على الأقل لا تعيش في عوز، فلتشكر السماء شكرًا عميقًا على ما نلته من خيرات! نعم، فلتهتف من أجل ما ورثته وما اكتسبته على السواء.

في هذه اللحظة الصعبة على الكانديدات انفتح باب غرفته، ولاح شخص ما لا يبدو من مظهره أنه من أبناء المدينة. دخل وأزال قبعته الداكنة من طرفها الضخم. كشف طرف القبعة هذا عن صحة وتورد وسرور وجه إنسان عجوز، تنم ملامحه عن هدوء وسماحة أبيقوريين. كان يرتدي سترة قديمة بنية اللون، ذات ياقة لم يكن من الشائع ارتداؤها في هذا الوقت، وعصا خيزرانية في يده، وكما قلنا لاحت عليه ملامح ريفية واضحة.

– هل أنت السيد كروتسيفيرسكي، الكانديدات بجامعتنا هنا؟

أجاب ديمتري ياكوفليفيتش:

– نعم أنا. في خدمتك.

- اسمح لي في البداية سيدي الكانديدات أن أجلس. أنا أكبر منك عمرًا، وقد جئت إلى هنا سيرًا.

بقوله هذه الكلمات أراد أن يجلس على المقعد الموضوعة عليه السترة الرسمية، ولكن تبين أن هذا المقعد لا يمكنه أن يتحمل شيئًا أثقل من السترة من دون مَن يرتديها، وبالطبع لا يمكنه أن يتحمل إنسانًا بالإضافة إلى سترته الطويلة. ارتبك كروتسيفيرسكي وطلب منه أن يسمح له بالجلوس على الفراش، وجلس هو على المقعد الآخر الوحيد.

بدأ الزائر حديثه ببطء قائل:

- أنا المفتش الطبي لإدارة (ن. ن) الطبيب كروبوف، وجئت إليك بشأن عمل.

كان المفتش إنسانًا منهجيًا. توقف عن الحديث وأخرج علبه تبغ كبيرة ووضعها بالقرب منه، ثم أخرج منديلًا أحمر ووضعه بالقرب من علبة التبغ، ثم منديلًا أبيض جفف به عرقه، مستنشقًا رائحة التبغ، ثم واصل حديثه بهذه الصورة:

- بالأمس كنت عند أنطون فرديناندوفيتش، نحن من الدفعة الدراسية ذاتها. لا، عذرًا، لقد تخرج قبلي بعام. نعم، قبلي بعام تحديدًا. ظللنا طوال هذه الفترة أصدقاء واستمرت علاقاتنا الطيبة. لذلك سألته ما إذا كان بالإمكان أن يدلّني على معلم جيد هنا في مقاطعتنا، على مستوى رائع، وتتوفر فيه سمات كذا وكذا... إلخ. دلّني أنطون فرديناندوفيتش على عنوانك، وأعترف أنه أطرى عليك كثيرًا، ولذلك إذا كنت تود أن

تغادر المكان هنا يمكنني أن أساعدك في إنهاء الإجراءات.

كان أنطون فرديناندوفيتش هو تحديدًا الأستاذ الراعي. في حقيقة الأمر كان يحب كروتسيفيرسكي، لكن كل ما في الأمر أنه لم يُرِد أن يخاطر بماله كما رأينا، لكنه كان مستعدًّا دائمًا لترشيحه.

بدا الطبيب كروبوف لكروتسيفيرسكي مبعوثًا سمائيًا. لقد حكى له بصراحة عن وضعه، وأنهى حديثه بأنه ليس أمامه اختيار آخر سوى قبول هذا العمل. أخرج كروبوف من جيبه شيئًا لا هو ورقة ولا هو حقيبة صغيرة، وسحب خطابًا يمكنه أن يستريح وسط رفقة المقصات المعقوفة والمشارط والمسابر وقرأ:

- فليُعرض عليه ٢٠٠٠ روبل سنويًّا، وليس أكثر من ٢٥٠٠ روبل، لأن جاري يدفع ٣٠٠٠ روبل وينال بهذا المبلغ معلمًا فرنسيًّا وسويسريًّا. سيحظى بغرفة خاصة، والشاي صباحًا، كما سيكون لديه خادم وتُغسل ثيابه كالمعتاد. سيتناول أيضًا الغداء على الطاولة.

لم يطلب كروتسيفيرسكي أي شيء، واحمر خجلًا في أثناء التحدث عن المال، وسأل عن المهام التي ستوكل إليه، واعترف صراحة بأنه يخاف حد الموت من أن يدخل منزلًا غريبًا ويعيش مع غرباء. تأثر كروبوف، وأقنعه بألا يخاف من آل نيجروف.

- إنك لن تتولى مسؤولية تعميد الأطفال[٥٠]! كل ما ستفعله هو أنك ستعلم الصبي، وستظهر على طاولة الغداء مع الأب والأم. لن

(٥٠) الكاهن هو المسؤول عن تعميد الأطفال، لكن يقصد أنه لن يقوم بعمل معقد.

يزعجك الجنرال في أي شيء يتعلق بالمال، أضمن لك هذا، أما زوجته فهي نائمة دائمًا، وبالتالي لن يزعجك أحد ولا حتى في المنام. صدقني، إن منزل آل نيجروف ليس أسوأ ولا أفضل من بقية منازل السادة مُلاك الأراضي.

باختصار تمت تسوية الأمر. تم توظيف كروتسيفيرسكي مقابل ٢٥٠٠ روبل سنويًا. كان المفتش شخصًا كسولًا في حياة المدينة، لكنه بالرغم من ذلك كان إنسانًا. بعد أن أدرك من واقع التجارب المريرة أن كل الأحلام الرائعة والكلمات العظيمة تظل في الوقت الحاضر مجرد أحلام وكلمات، استقر إلى الأبد في (ن. ن)، وتعلم تدريجيًا أن يتحدث بنظام، ويحمل منديلين في جيبه؛ واحد أحمر والآخر أبيض. لا شيء يمكنه أن يفسد حياة الإنسان في هذا العالم كالعيش في مُقاطعة. لكنه لم يخمد كلية بعد. لا يزال بالإمكان رؤية الوميض يلمع في عينيه. اعتمل الكثير في نفس كروبوف عند رؤيته لهذا الشاب النبيل الطاهر. لقد تذكر تلك الفترة عندما حلم بصحبة أنطون فرديناندوفيتش أن يُحدِث انعطافة في عالم الطب، وأن يسير حتى مدينة جوتينجن[٥١]. ابتسم بمرارة عندما عاودته تلك الذكريات. عندما تمت الصفقة قال في نفسه: «هل حسنًا ما أفعله بدفع هذا الشاب إلى حياة السهوب الفجة هذه لمالك الأرض؟». بل إنه حتى فكر في أن يعطيه من ماله الخاص ويقنعه ألا يفارق موسكو. لو حدث الأمر منذ خمسة عشر عامًا لفعل ذلك، ولكن يصعب على اليدين العجوزتين أن تخرجا مالًا من المحفظة. «إنه المصير!»، هكذا

---

(٥١) مدينة ألمانية.

قال كروبوف في نفسه وواسى نفسه بذلك. الغريب أنه سلك بالطريقة ذاتها بالضبط التي سلكت بها الإنسانية: قال نابليون إن المصير كلمة ليس لها معنى، وامتلأ قلبه عزاءً بهذا.

قال المفتش أخيرًا بعد صمت قصير:

- لقد سوينا الأمر إذن. سوف أسافر بعد خمسة أيام، وسأكون مسرورًا بأن تشاركني السفر في مركبتي.



-٤-

الحياة اليومية

من المعروف منذ زمن طويل أن بإمكان الإنسان أن يتكيف مع أي مكان، سواء في إقليم لابي[٥٢] أو في السنغال. لذلك يجب علينا ألا نندهش من أن كروتسيفيرسكي بدأ رويدًا رويدًا يتعود على الحياة في منزل نيجروف. في البداية صدمه نمط حياتهم وأحكامهم واهتماماتهم، ثم صار لا يبالي بكل ذلك، بالرغم من أنه ظل بعيدًا عن إمكانية التصالح مع حياة كهذه. الأمر الغريب أنه لم يكن هناك أي شيء لافت، ولكن بالنسبة لإنسان في ريعان الشباب، أخرق بعض الشيء، كان من الصعب أن يأخذ أنفاسه فيه بسهولة. تفاهة كل ما يحدث والتنوع اللافت سادا حياة أسرة ألكسي أبراموفيتش الموقرة. لماذا كان أفراد هذه الأسرة ينهضون من على أسِرتهم، ولماذا كانوا يتحركون، وما الجدوى من عيشهم؟ كان من الصعب الإجابة عن مثل هذه الأسئلة. إلا أنه لا تلزم الإجابة عنها. عاش هؤلاء الطيبون لأنهم وُلدوا، وقد واصلوا العيش بفعل شعور حفظ الذات. أما التساؤل عن الهدف والأفكار المحركة

---

(٥٢) إقليم فنلندي في شمال البلاد.

لكل هذا، فلن تكون سوى فلسفة ألمانية! كان الجنرال ينهض في السابعة صباحًا، وسرعان ما يخرج إلى الصالة بغليونه السميك بلون الكرز. إذا شاهده حينها شخص لا يعرفه، ربما يظن أن ثمة مشروعات وتصورات ذات أهمية فائقة تدور في رأسه، ولذلك يدخن غارقًا في تفكير عميق، ولكن لم يكن هناك ما يدور في رأسه سوى الدخان، بل حتى الدخان لم يكن يدور داخل رأسه، بل بالقرب منه. كان هذا التدخين الذي يبدو تفكيرًا عميقًا يستمر قرابة ساعة. كان من المعتاد أن يظل ألكسي أبراموفيتش يذرع الصالة بهدوء، ويتوقف كثيرًا أمام النافذة التي يطل منها باهتمام، ويُضيِّق حدقتَي عينيه وتعبس جبهته، وترتسم ملامح الاستياء على وجهه، بل يتأوه. ولكن كل هذا محض خداع بصري، يبدو كأنه استغراق في التفكير. طوال هذه المدة كان يتوجب على مدبر المنزل أن يقف عند الباب بجوار الخادمة القوزاقية. ما إن ينتهي ألكسي أبراموفيتش من التدخين حتى يتوجه إلى مدبر المنزل، ويأخذ التقرير من يده، ويبدأ في سبِّه بأسوأ سباب ممكن، مضيفًا في كل مرة أنه يعرفه جيدًا، ويعرف كيف يتعامل جيدًا مع الغشاشين، وأنه سيرسل ابنه إلى الخدمة العسكرية حفاظًا على العدالة[٥٣]، وسيجبره على أن يركض هناك خلف العصافير. سواء تم الأمر باتخاذ إجراءات النظافة الأخلاقية،

---

(٥٣) اقترح بطرس الأكبر نظامًا للخدمة العسكرية في ١٦٩٩م، تخدم بموجبه نسبة من الذكور خدمة عسكرية إلزامية لمدة غير محددة؛ أي مدى الحياة تقريبًا. عدَّلت الإمبراطورة الروسية آنا إيفانوفنا هذا النظام لاحقًا، ليُحدَّد بمدة ٢٥ عامًا. نظرًا لأن أبناء الطبقات الأرستقراطية والإكليروس كانوا يُعفون من الخدمة العسكرية، كان الأمر يتم عادة بتجنيد أبناء الفلاحين، ويتم اختيارهم بواسطة مُلاك الأرض. وكانت الحياة العسكرية في هذا الوقت شاقة للغاية.

مثل الغمر اليومي في الماء البارد، أو بزرع الخوف والامتثال في قلوب أتباعه، أو ببساطة بمجرد الامتثال للعادة الأبوية، كان النظام بالمكان يستحق المديح. كان مدبر المنزل يستمع إلى هذه الوصايا الأبوية بإنكار صامت للذات. كان الاستماع لها يبدو له واجبًا حقيقيًّا يقترن تمام الاقتران بواجبات وظيفته، تمامًا كسرقة الحنطة والشعير والتبن والقش. كان الجنرال يصيح: «آه، أنت لص! لا يكفي حتى شنقك ثلاث مرات»، وكان مدبر المنزل يجيب بأعظم درجات الهدوء: «فلتكن إرادة سعادتكم»، ناظرًا بعينيه الشيطانيتين إلى الأسفل بعض الشيء. كان هذا الحديث يستمر حتى ظهور الأطفال ليرحب بهم ألكسي أبراموفيتش ويمد يده إليهم، وتظهر بصحبتهم السيدة الفرنسية التي لا تُرى بالعين المجردة، والتي تبدو في جلستها كما لو أنها مدام دي بومبادور(٥٤). كانت تعلن أن الشاي جاهز، ومن ثَم يتوجه ألكسي أبراموفيتش إلى غرفة المعيشة حيث تنتظرهم جلافيرا لفوفنا أمام السماور. عادة ما كان الحوار يبدأ بشكوى جلافيرا لفوفنا من حالتها الصحية والأرق. كانت تشعر بألم في صدغها الأيمن غير مفهوم مصدره؛ ألم حيوي ينتقل إلى مؤخرة رأسها ومقدمته ولا يجعلها تستطيع النوم. كان ألكسي أبراموفيتش يسمع تقرير قرينته عن حالتها الصحية بلا مبالاة تقريبًا، إما لأنه أكثر من عرف من بين كل الناس أنها لا يمكن أن تستيقظ أبدًا من

(٥٤) كانت سيدة أرستقراطية مثقفة، أثَّرت بشكل كبير في النواحي الثقافية والفنية والسياسية في البلاط الفرنسي، وكانت عشيقة لويس الخامس عشر، في الفترة من ١٧٤٥ حتى وفاتها، والإشارة هنا إلى اللوحة الشهيرة لها التي رسمها فرانسوا باوتشر.

نومها العميق ليلًا، أو لأنه كان يرى بوضوح مدى فائدة هذا المرض المزمن لصحة جلافيرا لفوفنا. لا أعرف. من ثَم تشعر إليزا أفجوستوفنا (المربية الفرنسية) بالهلع وتشفق على معاناتها، وتواسيها بحقيقة أن الأميرة (ر) التي عاشت عندها سابقًا، والأميرة (م) التي كان من الممكن أن تعمل عندها سابقًا لو أرادت، تعانيان المعاناة الشديدة ذاتها، وتسميان هذا الألم[٥٥] tic douloreux. في أثناء شرب الشاي أتى الطاهي، وبدأ الزوجان في إصدار الأوامر بخصوص الغداء، وتوبيخه على طعام الأمس، بالرغم من أن الأطباق عادت فارغة تمامًا. كان الطاهي يتميز بهذه الميزة أمام مُصدِر الأمر؛ وهي أنه كان يتلقى التوبيخ يوميًّا من سيده - كما يحدث مع الكاتب - وعلاوة على ذلك كانت السيدة توبخه هي الأخرى. بعد شرب الشاي كان ألكسي أبراموفيتش يتوجه إلى الحقول. قضى أعوامًا عديدة من دون انقطاع في القرية، ولم يكن يعرف شيئًا عن الهندسة الزراعية، لكنه كان يهاجم الفوضى الصغيرة، والأهم من كل ذلك أنه كان يحب الانضباط والامتثال الكامل له. كانت أكثر أنواع السرقات سفهًا تحدث أمام عينيه تقريبًا، ولم يكن يلحظ الجزء الغالب منها، وعندما كان يلاحظها، كان يتعامل مع الأمر بطريقة خرقاء، حتى إنه كان يبدو في كل مرة كأحمق. كان يقول كثيرًا كقائد وأب حقيقي لمجتمعه: «يمكنني أن أسامح اللص والوغد، ولكن لا يمكنني أن أتسامح مع الوقاحة». لاح في تلك العبارة سمو الكرامة الأبوية. لم

---

(٥٥) تقلصات عصبية.

يحدث قَطُّ - إلا في مرات نادرة - أن خرجت جلافيرا لفوفنا من المنزل لتسير على قدميها باستثناء سيرها في الحديقة القديمة التي صارت جيدة بفضل إهمالها لها، وصارت تبدأ من الشرفة الخارجية ذاتها. حتى عندما كانت تذهب لتتسلى بجمع الفطر، كانت تذهب بعربتها، وكان الأمر يتم على النحو التالي: يُصدَر الأمر من المساء لشيخ القرية ليجمع حشدًا من الصبية والفتيات ومعهم سلال وصناديق وما إلى ذلك. تستقل جلافيرا لفوفنا بصحبة الفرنسية العربة مسافة خطوة في فرجة الغابة، وتهجم حشود الأطفال الحفاة والجوعى والعراة تقريبًا، بقيادة عجوز ثرثارة وشباب وشابات، على أطباق الزبد والفطر والروسولا(٥٦) والمشروم والفطر الأبيض ومختلف أنواع الفطريات. كانت العجوز تحضر الفطر بكمية هائلة وأحجام صغيرة جدًّا للأم زوجة الجنرال، فتُسر بها ويواصلون طريقهم. بالعودة إلى المنزل كانت تشكو في كل مرة من الإنهاك، وتستلقي لتنعم بغفوة قبل الغداء، ومن أجل أن تستعيد قواها كانت تتناول بعضًا من بقايا عشاء الأمس، مثل لحم حمل ولحم خنزير لا يتغذيان إلا على اللبن، كما تتناول بعض لحم الديك الرومي مُطعمًا بمكسرات يونانية أو شيء خفيف وممتع من هذا القبيل. في هذه الأثناء كان شعور بالمرارة يكتنف ألكسي أبراموفيتش، وبعد أن يتناول غداءه يكرر ما فعله ويتوجه إلى الحديقة. في هذه الفترات كان يحب على نحو خاص أن يتجول في الحديقة، وينشغل بمراقبة مشاتل

---

(٥٦) جنس من الفطريات.

البرتقال، مُوجِّهًا مختلف أنواع الأسئلة لزوجة البستاني التي لم تستطع طوال حياتها التميز بين الكمثرى والتفاح؛ الأمر الذي لم يمنعها عن التميز بمظهر جذاب. في هذا الوقت؛ أي الساعة والنصف التي قبل الغداء، كانت الفرنسية تنشغل بتعليم الأطفال. أما مسألة ماذا كانت تعلمهم بالضبط، فقد ظل الأمر سرًّا دفينًا. كان الأب والأم راضيين، ومن له الحق إذن في التدخل في شؤون الأسرة إذا كانا راضيين؟ كان تناول الغداء يستمر ساعتين تقريبًا. كان كل طبق كافيًا وحده لقتل إنسان[٥٧] تعود على الطعام الأوروبي. دهن، دهن، دهن، وبالكاد كان يُليِّن الملفوف والبصل والفطر المملح، ويتم هضم كل ذلك في جسم ألكسي أبراموفيتش اللين، وجسم جلافيرا لفوفنا المتداعي، والجلد المتغضن الذي لا يكاد يغطي جسد إليزا أفجوستوفنا، بمساعدة كمية وفيرة من نبيذ الماديرا وخمر البورت. على ذكر الأمر لم تتخلف إليزا أفجوستوفنا عن ألكسي أبراموفيتش في شرب نبيذ الماديرا - مع الوضع في الاعتبار أن هذا قد تم في القرن التاسع عشر، حيث لم يكن مسموحًا في القرن الثامن عشر للمربية الفرنسية أن تشرب خمرًا على طاولة الغداء - كما أكدت أن في موطنها (لوزان)[٥٨] كان لديهم كرم، وأنها كانت تشرب الماديرا دائمًا في المنزل من كرماتها بدلًا من الكفاس، ومن ثَم تعودت عليه. بعد الغداء كان الجنرال يستلقي على الأريكة في غرفة المكتب ليغفو لمدة نصف ساعة، لكنه كان ينام لمدة

(٥٧) يُقدَّم الغداء في روسيا من خلال عدة أطباق: مشهيات وطبق رئيس وما إلى ذلك.

(٥٨) مدينة سويسرية في الجزء الناطق بالفرنسية.

أطول كثيرًا، بينما كانت تتوجه كل من جلافيرا لفوفنا والفرنسية إلى غرفة المعيشة. كانت المربية تتحدث بلا انقطاع، وتنام جلافيرا لفوفنا على حكاياتها اللا نهائية. أحيانًا، وبدافع من الرغبة في التغيير، كانت جلافيرا لفوفنا تستدعي زوجة الكاهن القروي التي كانت تبدو كائنًا بربريًا متنافرًا، وكانت تبدو خائفة من كل شيء. كانت جلافيرا لفوفنا تقضي ساعات كاملة بصحبتها، ثم تقول للمربية: «آه! لماذا هي غبية إلى هذا الحد؟ إنها لا تُحتَمل!»[٥٩]. في الحقيقة لم يكن من الممكن التغلب على غباء زوجة الكاهن. ثم يأتي موعد الشاي، وبعده العشاء في العاشرة مساء تقريبًا، ثم يبدأ جميع أفراد الأسرة في فغر أفواههم تثاؤبًا بعد العشاء. كانت جلافيرا لفوفنا تلاحظ أنه يجب على المرء أن يعيش في القرية بطريقة قروية؛ أي أن ينام المرء مبكرًا. بعدها تتفرق الأسرة. في الحادية عشرة يتعالى شخير المنزل كله من الإسطبل وحتى العلية. أحيانًا كان يمر عليهم أحد الجيران؛ شخص آخر يدعى نيجروف أيضًا، أو عجوز ما عاشت في عاصمة المقاطعة، شعرت بالأسى بسبب رغبة ابنتها في الزواج، وحينما كان يحدث ذلك كان نظام المنزل برمته يتغير في لحظة. لكن ما إن يغادر الضيوف حتى يعود كل شيء إلى سابق عهده. لا ريب أنه بالرغم من كل هذه المشغوليات كان يتبقى وقت لا يعرفون ماذا يفعلون فيه، خاصة في الخريف العاصف والأمسيات الشتوية الطويلة. كرَّست الفرنسية كل مواهبها لسد هذه الفجوات

---

(٥٩) بالفرنسية في الأصل.

الزمنية. يجدر بنا أن نلاحظ أنه كان لديها دائمًا ما تحكيه. لقد وصلت في الأعوام الأخيرة من حكم الإمبراطورة الراحلة يكاترينا كحائكة مع فرقة فرنسية. كان زوجها هو حبيبها الثاني، ولكن لسوء الحظ تبين أن طقس سان بطرسبرج قاتل بالنسبة له، خاصة بعدما حدث في أثناء حمايته لإحدى فنانات الفرقة بصورة أكثر من اللازم بالنسبة لإنسان متزوج، أن ألقى به أحد الرقباء من نافذة الدور الثاني إلى الشارع. من المحتمل أنه في أثناء سقوطه لم يتخذ الاحتياطات الكافية لحماية نفسه من لسعة الهواء، ومن هذه اللحظة ظل يسعل لمدة شهرين، ثم توقف عن سعاله لسبب بسيط للغاية؛ ألا وهو أنه مات. ترملت إليزا أفجوستوفنا في الوقت الذي كانت فيه المرأة في أشد الاحتياج إلى زوجها؛ في الثلاثين. بكت، بكت كثيرًا، وعملت في البداية ممرضة تعالج أحدهم من داء النقرس، ثم عملت مربية لابنة إحدى الأرامل؛ وكانت أرملة طويلة القامة جدًّا، وانتقلت من عندها إلى إحدى الأميرات... إلخ، ولا يمكننا هنا بالطبع أن نحكي كل شيء. لقد استطاعت فعلًا أن تتكيف بصورة استثنائية مع عادات المنزل الذي كانت تعيش فيه، وحازت الثقة، وكانت تفعل ما هو ضروري، وتنفذ الأوامر السرية والعلنية على السواء، ودمغت جميع أفعالها بختم المحسوبية والإذلال، وكانت تفسح مكانًا وتحذر من بعض الرغبات. باختصار لم تكن درجات الآخرين شديدة الانحدار بالنسبة إليها، ولم يكن خبز الآخرين مُرًّا عليها. كانت بعد أن تضحك وتحوك الجوارب تعيش لنفسها حياة مترفة خالية من الهموم. كانت دائمًا جزءًا صغيرًا من كل القصص

الصغيرة التي تجري أحداثها بين غرفة العذراء وغرفة النوم، ولم تشعر قَطُّ بسوء حالها. وهكذا كانت إليزا أفجوستوفنا تحوك قصصها الخاصة عندما ينشغل ألكسي أبراموفيتش بلعب الورق بمفرده، ولا تجد جلافيرا لفوفنا شيئًا تفعله في أثناء جلوسها على الأريكة. كانت إليزا أفجوستوفنا تعرف آلاف المغامرات والدسائس عن المحسنين إليها (هكذا كانت تسمي كل من عاشت عندهم في أثناء الطفولة)، وأضافت إلى هذه القصص إضافات عظيمة، ونسبت لنفسها في كل حكاية منها الدور الرئيس، سواء كان جيدًا أم سيئًا. ظل ألكسي أبراموفيتش يستمع بقدر من المتعة يفوق متعة زوجته إلى هذه الحكايات الفضائحية لمربية أولاده، ويقهقه من كل قلبه عالمًا أنه وجد كنزًا لا مربية. هكذا كان ينقضي يوم خلف يوم، ومر الوقت، معلنًا عن نفسه أحيانًا في أيام الأعياد المهمة، وأيام الصوم التي تأتي أيامها زائدة تارة وقليلة تارة أخرى، وأعياد القديسين وأعياد الميلاد، وكانت جلافيرا لفوفنا تقول متعجبة: «آه يا إلهي! عيد الميلاد غدًا وبالرغم من ذلك يبدو أن الثلج لم يهطل كثيرًا».

ولكن أين كانت لوبونكا؛ تلك الفتاة المسكينة التي رباها آل نيجروف الطيبون من كل ذلك؟ لقد نسيناها تمامًا. لكنها هي المذنبة في ذلك أكثر منا، فقد كانت في معظم الوقت صامتة داخل هذه الأسرة الأبوية، لا تشارك تقريبًا في أي شيء يحدث من حولها، صانعة بذلك أوضح درجات التنافر وسط تناغم بقية أفراد الأسرة.

كانت هناك أمور كثيرة غريبة في هذه الفتاة؛ لم يكن شيء يغضبها تقريبًا، ويبدو وجهها دائمًا مليئًا بالطاقة، وتبدي لا مبالاة وبرودة. كانت لا تبالي بالجميع، إلى حد أن جلافيرا لفوفنا نفسها كانت لا تحتمل ذلك أحيانًا، وتنادي عليها بإنجليزية باردة، بالرغم من أن السمات الأندلسية[٦٠] لزوجة الجنرال كانت هي أيضًا موضع شك كبير. كان وجهها يشبه وجه أبيها، ولم ترث من دونيا سوى العينين الزرقاوين الداكنتين، ولكن كان هناك تناقض مهول في هذا التشابه، حتى إن هذين الشخصين كان بإمكانهما أن يقدما خدمة كبيرة للافاتر[٦١] ليكتب جزءًا جديدًا بعباراته المشوهة، فيقول مثلًا: «ظلت الملامح القاسية لألكسي أبراموفيتش، أو اغتسلت -إذا جاز التعبير- في صورة ملامح لوبونكا، وبالنظر إلى وجهها كان بالإمكان فهم أن هناك إمكانات صالحة باقية في نيجروف قمعتها الحياة وسحقتها. كان وجهها بمثابة تفسير لوجه ألكسي أبراموفيتش، والناظر إليها يكون بوسعه التصالح معه». لكن لماذا كانت تبدو دائمًا مستغرقة في التفكير؟ لماذا لا تُسر إلا قليلًا؟ لماذا تحب الجلوس بمفردها في غرفتها؟ كانت هناك أسباب عديدة لذلك؛ داخلية وخارجية على السواء. سنبدأ بالأخيرة.

---

(٦٠) غير واضح المعنى بدقة، لكن ربما يقصد بالسمات الأندلسية: حرارة الطابع والنشاط، حيث إن جلافيرا لفوفنا كانت تتسم بالعكس تمامًا.

(٦١) يوهان كاسبار لافاتر شاعر وكاتب وفيلسوف، ومتخصص في الفراسة القائمة على ملامح الوجه.

لم تكن في وضع تُحسد عليه في منزل الجنرال، ولا يعود ذلك إلى أنهم أرادوا أن يطردوها أو يضايقوها، ولكن لأن التحامل الذي يفتقر إلى الكياسة الذي كان يتم بفعل تطور واحد يجري داخل هؤلاء الناس، كان يحدث بفجاجة غير واعية. لا الجنرال ولا زوجته فهما وضع لوبونكا الغريب في منزلهما، بل إنهما فاقما من صعوبة الوضع بلا داعي، وقد أثَّرا على ألياف قلبها الرقيقة. طبيعة نيجروف القاسية، والمتغطرسة نوعًا ما، كانت تسيء إليها كثيرًا وبعمق، وكان يسيء إليها أيضًا عمدًا، لكنه لم يفهم قَطُّ مدى أهمية تأثير أي كلمة على نفس أرق حتمًا من نفس مدبر منزله، ولم يدرك كيف كان عليه أن يكون حذرًا عند تعامله مع فتاة عاجزة؛ ابنة وليست ابنة في الآن ذاته، تعيش في منزله بموجب حقها وإحسانه في الوقت ذاته. لم تكن مثل هذه الرقة ممكنة لإنسان مثل نيجروف، ولم يخطر على باله أنها يمكن أن تستاء من كلماته، فمن هي لتستاء؟ في رغبته في أن يزيد حب لوبونكا لجلافيرا الفوفنا كان يكرر لها كثيرًا أن عليها أن تتضرع لله طوال حياتها أن يحفظ زوجته، وأنها هي وحدها سبب سعادتها، ولولاها لما صارت سيدة محترمة، بل خادمة. حتى في أتفه المناسبات كان يدفعها إلى الشعور بأنها بالرغم من أنها تربت في منزله مثل أطفاله، فإن هناك فرقًا هائلًا بينها وبينهم. عندما بلغت السادسة عشرة كان نيجروف ينظر إلى كل رجل غير متزوج بوصفه عريسًا ملائمًا لها، وسواء وصل محصل الضرائب بورقة من المدينة، أو تناهى إلى أسماعه حديث عن أي جار لديه ملكية صغيرة، كان ألكسي أبراموفيتش يقول على مسمع من لوبونكا المسكينة:

«حسنًا، إذا طلب محصل الضرائب يد ليوبا (تدليل لوبوف - المترجم) فسيكون الأمر جيدًا حقًّا، وسأوافق على تزويجها منه، فممن يمكنها أن تتزوج؟ لن يتقدم لها كونت». ولم تكن جلافيرا لفوفنا بأقل إثارة لضيق لوبونكا، بل إنها في بعض المواقف أفسدتها بطريقتها الخاصة؛ كأن تجبرها على تناول الطعام حتى التخمة، أو تجعلها تتناول المربى في موعد غير موعد الطعام... إلخ. لقد عانت منها المسكينة كثيرًا. اعتبرت جلافيرا لفوفنا نفسها ملزمة بتقديم لوبونكا لكل سيدة جديدة تتعرف إليها قائلة: «إنها يتيمة، ربيتها هنا مع صغاري»، ثم تبدأ في التهامس. كانت لوبونكا تخمن عما يدور الحديث، ويشحب وجهها، وتكاد تموت خجلًا، خاصة عندما توجِّه إليها تلك السيدة الآتية من المدينة تلك النظرة الوقحة بعد أن تستمع إلى التفسير السري، وتقرن نظرتها بابتسامة ذات مغزى. في الفترة الأخيرة تغيرت جلافيرا لفوفنا قليلًا تجاه اليتيمة، وبدأت تراودها فكرة تحولت بعد ذلك إلى اضطهاد مميت للوبونكا، بالرغم من كل عماها الأمومي. لقد رأت بطريقة أو بأخرى أن ابنتها ليزا السمينة، متوردة الوجنتين، والتي تشبه أمها، ولكن بإضافة بسيطة تتمثل في تعبير غبي، سوف تُمحى دائمًا لحساب مظهر لوبونكا النبيل، والتي بالإضافة إلى جمالها الشديد، أضفى عليها استغراقها في التفكير شيئًا ما لا يمكن لأحد ألا يلحظه. بعد أن رأت الأمر على هذه الصورة وافقت ألكسي أبراموفيتش تمامًا على أنه إذا تقدم لها أي شخص لطيف، أو حتى محصل ضرائب لطيف[٦٢]، يجب أن يوافقا. لم يكن

---

(٦٢) سخرية من الكاتب، حيث لا يمكن أن يكون محصل الضرائب لطيفًا.

بوسع لوبونكا ألا ترى كل ذلك. بالإضافة إلى كل ذلك شعرت بالضيق من كل ما حولها، كانت علاقاتها بالأسرة التي عاشت فيها مربيتها[٦٣] خرقاء. كانت الخادمات ينظرن إليها نظرتهن إلى شخص محدث نعمة، وكن يعتقدن أنها تتكلف التفكير بطريقة أرستقراطية، وأن السيدة الحقيقية هي ليزا. وعندما اقتنعوا بجمال لوبونكا الخارق وتساهلها، وعندما رأين أنها لا تشي بهم لدى جلافيرا لفوفنا، سقطت تمامًا من نظرهن، وكن يقلن على مسمع منها تقريبًا في لحظات غضبهن: «اكسِ الخادمة ما تشاء وستظل خادمة، ولن تسلك أبدًا سلوك السيدات». قد تكون كل هذه التفاهات لا تستحق الذكر، ولكن دع من اختبر مناداته بأسماء تافهة وقذرة، ومن تعرض لإساءات مماثلة، يقول ما إن كانت مثل هذه الأمور يسيرة عليه أم لا. وما زاد على كل تلك البلايا التي أصابت لوبونكا هو الزيارات التي كانت تتم أحيانًا من عمة ألكسي أبراموفيتش بصحبة بناتها الثلاث. العجوز شريرة، ونصف مجنونة، ومرائية، لم تستطع أن ترى الفتاة البائسة كما يجب، وعاملتها بفظاظة. كانت تقول هازة رأسها: «لماذا تتزين هكذا؟ ها؟ قولي من فضلكِ! هل تودين أن تساوي نفسكِ ببناتي؟ لماذا تدللينها يا جلافيرا لفوفنا بهذه الطريقة؟ في كل الأحوال فإن مارفوشكا عمتها تبدو بالنسبة لي كدجاجة، كعبدة بالنسبة لي. أي حق لديها إذن لتصير هكذا؟ آه من ألكسي هذا الخاطئ العجوز! كان عليه أن يشعر بالخزي أمام الصالحين مما فعله». كانت تنهي هذه الملاحظات المسيئة في كل مرة بالتضرع للرب حتى يصفح

---

(٦٣) الإشارة إلى أمها الحقيقية.

عن ابن أخيها فيما يتعلق بخطيئة ولادة لوبونكا. أما بناتها فكن ثلاث سيدات قرويات، بلغت الكبرى منهن التاسعة والعشرين، وكانت تكبر الأخريين بعامين أو ثلاثة، وإذا لم يتحدثن بمثل هذه البساطة الأبوية كن يضايقن لوبونكا بكل كلمة يقلنها عن مدى تنازلهن في معاملتها بلطف. لم تعد لوبونكا تظهر في حضور الناس حتى لا تسيئها مشاهد مماثلة، أو بالأحرى بسبب أن المحيطين بها لم يستطيعوا أن يدركوا ويروا كما كانوا يدركون ويرون بحسب ما تم شرحه وتوضيحه لهم، لكن عندما كانت تمضي إلى غرفتها كانت تنخرط في بكاء مرير. نعم، إنها لم تستطع أن تسمو فوق هذه الإساءات. ونعم، هذا الضرر ممكن لفتاة في وضعها. كانت جلافيرا لفوفنا تشعر بالأسف على لوبونكا، ولكن لم يخطر على بالها قَطُّ أن تتعهدها برعايتها وتكشف لها عن استيائها مما يحدث لها. لقد اكتفت كالمعتاد بأن تقدم للوبونكا حصة مضاعفة من المربى، وبعد أن كانت تودع العجوز ذات اللطف الاستثنائي، وتكرر ألف مرة مناداتها لها بـ«عمتي العزيزة»[٦٤]، لا تنسى أن تقول للمربية الفرنسية إنها لم تعد تستطيع احتمالها، وإنها تشعر في كل مرة بعد زيارتها بانزعاج شديد، وتعاني ألمًا في صدغها الأيسر يستعد للانتقال إلى مؤخرة رأسها.

أيجب علينا أن نقول إن تربية لوبونكا كانت متسقة مع كل شيء آخر؟ لم يُعلِّمها أحد باستثناء إليزا أفجوستوفنا، وحتى إليزا أفجوستوفنا نفسها انشغلت عنها بتعليم الأطفال قواعد النحو الفرنسية،

(٦٤) بالفرنسية في الأصل.

بغض النظر عن أنها لم تعرف سر الكتابة الفرنسية السليمة، وأنها كانت تكتب بحروف كبيرة حتى شاب شعرها. لم تقترب من شيء علاوة على قواعد النحو، بالرغم من أنها كانت تحكي دائمًا عن أنها أعدت ابنيْ إحدى الأميرات للالتحاق بالجامعة. لم يكن هناك الكثير من الكتب في منزل آل نيجروف، بل إن ألكسي نيجروف نفسه لم يكن لديه ولا كتاب واحد، ولذلك حظت جلافيرا لفوفنا بمكتبة خاصة بها. كانت هناك خزانة في غرفة المعيشة، وشغل الرف الأعلى منها طقم شاي احتفالي لم يُستخدم قَطُّ، بينما شغلت الكتب الرف السفلي من الخزانة. حوى ذلك الرف نحو ٥٠ رواية فرنسية؛ بعضها عمل على تسلية وتعليم الكونتيسة مافرا إيلينيشنا في زمن قديم منسي، وبقيتها اشترتها جلافيرا لفوفنا في العام الأول من زواجها. لقد اشترت حينها أرجيلة لزوجها ومحفظة جلدية مرسومة عليها مناظر من برلين وعقدًا ممتازًا بقفل ذهبي. وسط هذه الأغراض التافهة اشترت نحو أربعين كتابًا من كتب الموضة، وبين هذه الكتب كان هناك كتابان أو ثلاثة بالإنجليزية، انتقلت معها أيضًا إلى القرية بغض النظر عن أن أحدًا لم يكن يجيد الإنجليزية، ليس في منزل نيجروف وحسب، بل وعلى نطاق أربعة أميال جغرافية حول منزله. لقد اشترت هذه الكتب من أجل أغلفتها المصوَّرة عليها لندن، والحق يُقال كانت الأغلفة جميلة حقًّا. سمحت جلافيرا لفوفنا للوبونكا طوعًا أن تأخذ الكتب، بل إنها شجَّعتها على ذلك؛ قائلة إنها تحب القراءة بشغف، وإنها تأسف بشدة بسبب أن اهتماماتها الكثيرة والمعقدة بإدارة شؤون المنزل والتربية لا تترك لها فرصة للقراءة. كانت

لوبونكا تقرأ طوعًا وبانتباه، لكنها لم تُبدِ اهتمامًا خاصًا بالقراءة. لم تتعود على القراءة لفترة طويلة بحيث تصير إحدى ضرورات حياتها. كانت تشعر بالفتور من قراءة الكتب، حتى إن فولتير وسكوت كانا يفضيان بها أحيانًا إلى ملل مريع. إلا أن المحيط المجدب الذي أحاط بالفتاة الشابة لم يقمع تطورها، بل على النقيض؛ عززت تفاهة الوضع الذي وجدت نفسها فيه نمو قواها. كيف؟ هذا سر النفس الأنثوية. تتكيف الفتاة من البداية مع الوسط المحيط بها، حتى إذا بلغت الرابعة عشرة تتدلل وتثرثر وتلقي نظرات على الضباط المارين بها، وتراقب ما إذا كانت الخادمات يسرقن الشاي والسكر، وتستعد لأن تصير واحدة من ربات المنازل المحترمات والأمهات الصارمات، أو أنها تتحرر بسهولة غير عادية من البداية من الأوساخ والنمائم، وتنتصر بوازع من نبل داخلي على ذلك، وتدرك الحياة بقوة نوع من الوحي الداخلي، وتكتسب لباقة تحافظ عليها وترعاها. لا يلاحظ الرجال تقريبًا مثل هذا التطور؛ فنحن نتعلم على يد الإخوة وفي الجيمنازيا والجامعات وصالات البلياردو، وفي مؤسسات تعليمية أخرى، لكن كل ذلك لا يُقرِّبنا من فهم الأمر، وما إن نبلغ الخامسة والثلاثين، ونكتسب - بالإضافة إلى فقداننا لشعرنا - قوى وعواطف، ونصل إلى تلك المرحلة من التطور حتى نفهم أن المرأة تتقدم بجانبنا، وتسير جنبًا إلى جنب مع الشاب، ممتلئة بالمشاعر النضرة.

كانت لوبونكا في الثانية عشرة عندما حدث أن دفعتها عدة كلمات سيئة وقاسية وفجة قالها نيجروف في لحظات انزعاج أبوية، في بعض

أوقات تنشئته لها، دفعة لم تتوقف بعدها. من الثانية عشرة صار هذا الرأس المكسو بخصلات شعر مجعدة داكنة يعمل، منذ هذه اللحظة وثمة موجة من الأسئلة قد استيقظت في داخلها. لم تكن هذه الدائرة عظيمة، وكانت شخصية تمامًا، والأكثر من ذلك أنها استطاعت التركيز على هذه الأسئلة، فلم يكن هناك أي شيء خارجي يحيط بها يشغلها. ظلت تفكر وتحلم، ظلت تحلم لتعالج حالة نفسها، وتفكر من أجل أن تفهم أحلامها. هكذا انقضت خمسة أعوام، وهي فترة هائلة في تطور فتاة، خاصة عندما تكون فتاة مستغرقة في التفكير، مضطرمة خفية. في هذه الأعوام الخمسة صارت لوبونكا تشعر وتفهم هذه الأمور التي لا يفهمها الصالحون من الناس غالبًا حتى ظلمة القبر. كانت تخشى أحيانًا أفكارها، وتوبخ نفسها على تطورها، لكن لم تُسكِّن نشاط نفسها. لم يكن هناك أحد تتحدث معه عن كل ما يشغلها ويحتشد في صدرها، وقرابة النهاية، ونظرًا لأنها لم تعد قادرة على حمل هذا الثِّقل الرابض في نفسها، توصلت إلى فكرة معتادة جدًّا لدى الفتيات، لقد بدأت تدوين أفكارها ومشاعرها. لم يكن هذا التدوين سوى دفتر يوميات، ورغبة منا في تعريفكم به سنقتبس السطور الآتية من هذا الدفتر:

«مساء الأمس جلستُ طويلًا قرب النافذة. كانت الليلة دافئة، وبدا منظر الحديقة جميلًا. لا أعرف لماذا أزداد حزنًا أكثر فأكثر طوال الوقت، وكأن سحابة قاتمة قد ارتفعت من أعماق نفسي. شعرت بالكآبة إلى درجة البكاء؛ بكيت بمرارة. لديَّ أب وأم، لكني يتيمة. أنا وحيدة تمامًا في هذا العالم، وأشعر بهلع لأني لا أحب أحدًا. أمر مريع! إذا

نظرتَ إلى أي شخص فستجد أن كل إنسان يحب شخصًا آخر، أما أنا فأشعر أن الجميع غرباء عني. أريد أن أحب ولا أستطيع. يبدو لي أحيانًا أني أحب ألكسي أبراموفيتش وجلافيرا لفوفنا وميشا وشقيقتي، لكني أخدع نفسي. ألكسي أبراموفيتش يعاملني بقسوة شديدة، وهو غريب عني أكثر من جلافيرا لفوفنا، لكنه أبي؛ فهل يمكن للأبناء أن يحاسبوا آباءهم؟ هل يحب الأبناء آباءهم لسبب ما؟ إنهم يحبون آباءهم لأنهم آباؤهم، لكني لا أستطيع فعل ذلك. حدث كثيرًا أن تعهدت أمام نفسي أن أستمع بإذعان إلى توبيخاته غير العادلة، ولم أستطع فعل ذلك. ما إن يصير ألكسي أبراموفيتش قاسيًا، حتى يخفق قلبي بعنف، ويبدو لي أني إذا تركت لنفسي العنان فسأجيبه بقسوة أقوى من قسوته. لقد خرَّب حبي لأمي وأفسده، وها قد مرت أربعة أعوام - حسبما أتذكر - منذ أن عرفت أنها أمي. كان الوقت قد تأخر على تعودي على فكرة أن لديَّ أمًّا. كنت أحبها بوصفها مربيتي، أحبها لكنني أخشى الاعتراف بأنني أشعر بالضيق في حضورها. حينما أتحدث معها أجد أن عليَّ أن أخفي الكثير، وهذا يضايقني ويزعجني. حينما يحب المرء شخصًا يكون عليه أن يقول أمامه كل شيء، لكني لا أشعر بهذه الحرية في حضورها. إنها عجوز طيبة. إنها أكثر طفولية مني. علاوة على ذلك تعودت على مناداتي بـ«السيدة»، وأن تتحدث معي بضمير الجمع[٦٥]. تكاد تلك اللغة تكون أصعب من لغة ألكسي أبراموفيتش. كنت أصلي كثيرًا

---

(٦٥) في روسيا يكون الحديث بضمير الجمع في المعاملات الرسمية ودلالة الاحترام، بينما يخاطب المقرَّبون بعضهم بعضًا بضمير المفرد.

من أجلها ومن أجلي، متضرعة إلى الله كي يُطهِّر نفسي من الكبرياء، ويجعلني متواضعة، ويهديني إلى الحب، لكن الحب لم يتملك قلبي بعد».

بعد أسبوع كتبت:

«هل يمكن أن يكون الناس جميعًا على شبههم، وأن الجميع يعيشون كما يعيش أهل هذا البيت؟ لم يحدث قَطُّ أن تركت منزل ألكسي أبراموفيتش، ولكني أتصور أنه من الممكن العيش بصورة أفضل، حتى في القرية. أحيانًا أشعر بضيق لا يُحتمل معهم، أم أني مصابة بالذعر لجلوسي طوال الوقت وحدي؟ حينما أمضي إلى زقاق شجر الزيزفون، وأجلس على الدكة الموجودة في نهايته، وأنظر إلى الأمام، أشعر أني بخير، وأنساهم. لكن سرعان ما يتحول هذا السرور إلى حزن، ولكنه حزن جيد. ثمة قرية تحت الجبل. أحب هذه الأكواخ الفلاحية الفقيرة، وأحب النهر الذي يتدفق بالقرب منها والبستان البعيد، وأقضي ساعات كاملة أنظر وأنظر، وأستمع إلى تلك الأغاني التي تتردد من بعيد، وطَرق درَّاسات القمح ونباح الكلاب وصرير العجلات... ما إن يروا هنا ثوبي الأبيض حتى يركض أبناء الفلاحين صوبي، ويجلبون لي الفراولة، ويحكون لي عن كل تلك الأمور البسيطة، وأستمع إليهم ولا أشعر بالملل. يا للطف والصراحة والنبل الذي يتمتعون به! كيف كانوا سيبدون لو نالوا تربية كالتي نالها ميشا! يأتون أحيانًا إلى ميشا في ساحة المنزل، ولكني أختبئ منهم هناك. يعاملهم الخدم، بل وكذلك تفعل جلافيرا لفوفنا نفسها بفظاظة، حتى إن قلبي ينزف ألمًا. يحاول

هؤلاء المساكين أن يخدموا الأخ[٦٦] بكل طريقة ممكنة، فيركضون ويصطادون السناجب والطيور، بينما يسيء إليهم. الغريب أن جلافيرا لفوفنا مفرطة الحساسية، والتي تبكي عندما يحكون لها أي شيء حزين، كانت تجعلني أحيانًا أتعجب من فرط قساوتها. تقول دائمًا، كما لو أنها تخجل: «إنهم لا يفهمون ذلك، ويستحيل التعامل معهم بإنسانية وإلا سلكوا على نحو غير لائق تمامًا». إنني لا أصدق. يبدو أن الدماء الفلاحية التي لأمي لا تزال تجري في عروقي! إنني أتحدث دائمًا مع الفلاحين بالطريقة التي أتحدث بها مع الجميع، وهم يحبونني ويجلبون لي اللبن الدافئ وأقراص العسل. صحيح أنهم لا ينحنون لي بالدرجة التي ينحنون بها لجلافيرا لفوفنا، ولكن لهذا السبب يقابلونني دائمًا مرحين، والابتسامة على وجوههم. لا يمكنني أن أفهم بطريقة أخرى السبب الذي يجعل الفلاحين في قريتنا أفضل من جميع الضيوف الذين يأتون إلينا من عاصمة المقاطعة ومن الجوار، بل وأذكى من كل هؤلاء الذين درسوا ومن مُلاك الأراضي والموظفين، جميعهم مثيرون للنفور».

من المحتمل أنه لا يوجد مكان يمكن أن تذهب إليه الفتاة التي تربت في منزل أسرة نيجروف الأبوية، والبالغة من العمر سبعة عشر عامًا؛ تلك الفتاة التي لم تقرأ ولم ترَ سوى القليل، ما الذي يمكن أن تشعر به فتاة مثلها؟ تقع مسؤولية الموثوقية الفعلية على كاهل ضمير مَن جمع هذه الوثائق، ولكن اسمحوا لي أن أتحدث أنا عن الموثوقية النفسية لما تحويه هذه الوثائق. أنتم تعرفون الوضع الغريب للوبونكا في

(٦٦) هكذا وردت في النص الأصلي: الأخ، وليس أخي.

منزل آل نيجروف. لقد كانت بطبيعتها مليئة بالطاقة والقوة، واستاءت بسبب كل العلاقات الملتبسة التي تربطها بجميع أفراد الأسرة، ووضع علاقتها بأمها، وغياب اللطف تمامًا في علاقتها بأبيها الذي اعتبر أنه ليس المسؤول عن ذنب ولادتها، بل إن الذنب يقع عليها هي، وأخيرًا بسبب علاقتها بجميع الخدم الذين كانوا ينظرون إلى دونيا بسخرية، من منطلق اتسامهم بهذا التوجه المذعن المتأثر بالأرستقراطية. أين كان يمكن للوبونكا أن تتوارى عن كل ما يثير استياءها؟ ربما لو كانت رجلًا لهربت إلى أحد الأفواج العسكرية أو إلى مكان آخر لا يعلمه أحد، أما الفتاة فليس في يدها سوى أن تهرب إلى داخل نفسها. لقد تحملت الحزن لأعوام داخل نفسها، وتحملت الإهانات، كما تحملت التبطل وتحملت أفكارها، وعندما كان جزء من هذا الشرود الكامن في نفسها يهدأ تدريجيًّا، وعندما لم يكن هناك إشباع لما هو طبيعي، وعندما كانت تشعر باحتياج قوي للتحدث لشخص ما، كانت تتناول القلم وتكتب؛ أي تبدأ في التحدث مع نفسها، وشغل نفسها بنفسها، وكان هذا يداويها.

لم يكن الأمر في حاجة إلى الكثير من الفطنة ليتنبأ المرء بأن لقاء لوبونكا بكروتسيفيرسكي في مثل هذه الظروف التي التقيا فيها لن يمر عبثًا. من الصعب أن تؤدي كل هذه الجهود التي تستمر لفترة طويلة في التربية والحياة المجتمعية إلى ضمور قدرة الشباب واستعدادهم للحب. لم يستطع كل من لوبونكا وكروتسيفيرسكي ألا يلحظ بعضهما بعضًا. لقد كانا بمفردهما. كانا في السهب. لم يستطع الكانديدات الخجول أن يتحدث مع لوبونكا ولو كلمتين لفترة طويلة، وعرف مصيرهما

الصمت. أول ما قرَّب الشابين كان تلك البساطة الأبوية في معاملة نيجروف لأهل منزله والخادمة. لم تستطع لوبونكا طوال حياتها - كما صرَّحت سابقًا - أن تتعود على تلك اللهجة الفظة لألكسي أبراموفيتش، وغني عن القول أن سلوكياته كان لها تأثير أكبر في حضور شخص غريب. لم يسعفها تورد وجنتيها واضطرابها الداخلي، إلا أنها أدركت أن تلك الأخلاقيات الأبوية تؤثر عليها التأثير ذاته الذي تتركه على كروتسيفيرسكي. فيما بعد بفترة طويلة لاحظ كروتسيفيرسكي بدوره الأمر ذاته. حينها انعقدت بينهما أواصر فهم خفي، وقد انعقدت تلك الأواصر قبل أن يتبادلا التحدث بعبارتين أو ثلاث. ما إن بدأ ألكسي أبراموفيتش يوبخ لوبونكا أو يوجِّه عقل وأخلاق شخص ما في الستين من عمره كسبيركا أو كلب الصيد العجوز ماتيوشكا، حتى تتوجه نظرة لوبونكا التي ظلت طويلًا موجَّهة صوب الأرض لا إراديًّا صوب ديمتري ياكوفليفيتش الذي أخذت شفتاه في الارتعاش، وظهرت البقع على وجهه، ويفعل هو أيضًا الشيء ذاته ليداوي ذلك الشعور ثقيل الوطأة في داخله، فيسعى خفية لقراءة ملامح وجه لوبونكا ليعرف ماذا يعتمل في داخلها. لم يفكرا في البداية إلى أين ستفضي بهما هذه النظرات العذبة، فلم يكن هناك غيرهما، ولم يقتصر الأمر على أنه لم يكن هناك أي شيء في من حولهما يمكن أن يفوق ذلك، بل لم يكن هناك حتى ما يمكنه أن يُبقي ما يحدث داخل حدود معينة، أو يلهيهما عن تلك العاطفة الناشئة. الأمر كان على النقيض تمامًا، حيث اكتنفتهما غربة كاملة عن كل من حولهما؛ الأمر الذي أدى إلى تطوير تلك العاطفة.

لا أنوي أبدًا أن أحكي لكم تفصيلًا عن قصة حب بطلي، فقد فارقتني قدرة شيطان الشعر على وصف الحب:

آه أيتها الكراهية، إنني أنشد لكِ!

سأقول لكم باختصار إنه بعد مرور شهرين على إقامة كروتسيفيرسكي في منزل آل نيجروف صار واقعًا في غرام لوبونكا بجنون بتأثير طبيعته الرقيقة والحماسية. صار حبه محور حياته؛ المحور الذي تدور حوله كل عناصر حياته، وقد أخضع له كل شيء آخر، حتى حبه لوالديه وللعلم. باختصار أحب كما يمكن لإنسان ذي طبيعة عصبية رومانسية أن يحب. لقد أحب كفيرتر(٦٧) أو كفلاديمير لينسكي(٦٨). لفترة طويلة لم يعترف بالشعور الجديد في داخله والذي ملأه تمامًا، وتطلب الأمر فترة أطول حتى يُصرِّح لها بذلك، بل إنه لم يجرؤ حتى على التفكير في الأمر، وفي معظم هذه الأمور لا يتوجب على المرء أن يفكر، حيث إن مثل هذه الأمور تتطور من تلقاء نفسها.

ذات مرة بعد الغداء، وعندما كان نيجروف في مكتبه وجلافيرا الفوفنا مستلقية على أريكتها تستريح، كان كل من لوبونكا وكروتسيفيرسكي جالسًا في الردهة، وكان يقرأ لها جهرًا قصيدة لجوكوفسكي(٦٩). أما عن مدى خطورة وضرر أن يقرأ شاب لشابة شيئًا غير منهج الرياضيات،

---

(٦٧) بطل رواية «آلام فيرتر» لجوته.

(٦٨) أحد أبطال رواية «يفجيني أونيجين» الشعرية لبوشكين.

(٦٩) شاعر ومترجم روسي شهير، يعتبر أحد مؤسسي مذهب الرومانسية في الأدب الروسي.

فهذا أمر بوسعنا أن نعرفه في ضوء فرانشيسكا دا ريميني[٧٠] وهي تدور على أنغام الفالس الملعون للدوامة الجهنمية[٧١]. لقد كانت تحكي لنا كيف تحولت هذه القراءة إلى قبلة، وكيف تحولت القبلة إلى فاجعة مأساوية. لم يكن الشابان في قصتنا يعرفان ذلك، وفي غضون بضعة أيام تضخم حبهما بفعل جوكوفسكي الذي قرأ بطلنا الكانديدات قصيدته. عندما كانا يقرآن غرانيق إيبكوس[٧٢] كان كل شيء يمضي على ما يرام، ولكن بعد أن اكتشفا القاتل في القصيدة تحولا إلى ألينا وألسيم[٧٣]، وحينها حدث ما حدث. بعد أن انتهى كروتسيفيرسكي من قراءة المقطوعة الأولى بصوت مرتعش، وجفَّف العرق على جبهته متنهدًا، تلاها بالمقطع التالي:

عندما تنمو الحياة في زهرة

تقول لنفسها:

ستكونين أنتِ لي في هذا العالم

توقف عن القراءة وانخرط في النحيب، وسقط الكتاب من يده، ومال رأسه، وبكى. بكى بجنون؛ بكى كما يبكي إنسان عشق لأول مرة. سألته لوبونكا: «ماذا بك؟»، وكان قلبها أيضًا يدق بعنف، وقد انهمرت الدموع من عينيها. كررت: «ماذا بك؟»، وقد تملَّكها الخوف تمامًا من

(٧٠) معاصرة تاريخية لدانتي أليجيري، صورها بوصفها شخصية في الكوميديا الإلهية.

(٧١) بالإيطالية في الأصل.

(٧٢) قصيدة للشاعر الألماني فريدريك شيلر.

(٧٣) قصيدة لجوكوفسكي.

سماع الإجابة. أمسك كروتسيفيرسكي يدها وقد ثمل بقوة جديدة غير مرئية، وفي الوقت ذاته لم يستطع أن يرفع عينيه صوبها قائلًا: «كوني... كوني ألينا لي! أنا... أنا»، ولم يستطع أن يضيف كلمة أخرى. سحبت لوبونكا يدها بهدوء، وتوهجت وجنتاها، وبكت ثم خرجت. لم يحاول كروتسيفيرسكي أن يوقفها، حتى إنه لم يستطع حتى أن يتمنى ذلك إلا بصعوبة. قال في نفسه: «يا إلهي! ماذا فعلت؟! لكنها سحبت يدها بهدوء ورقة»، وانخرط في البكاء مجددًا كطفل.

في مساء هذا اليوم قالت إليزا أفجوستوفنا لكروتسيفيرسكي مازحة: «هل أنت عاشق حقًّا؟ تبدو ذاهلًا وحزينًا». احمر وجه كروتسيفيرسكي حتى أذنيه. «أترى مدى مهارتي في التخمين! ألا تريدني أن أقرأ لك بختك بورق اللعب؟». اختبر كروتسيفيرسكي كل ما يمكن أن يختبره مجرم شرير لا يعرف ما يعرفه المحقق تحديدًا وما يُلمِّح إليه. سألته الفرنسية المهووسة: «ولكن ماذا تريد؟». أجاب الشاب: «أريدكِ أن تقومي بخدمة من أجلي».

وهكذا بدأت إليزا أفجوستوفنا بابتسامة شيطانية توزع الورق قائلة: «ها هي ورقة الفتاة التي تملك أفكارك. نعم، أنت سعيد جدًّا. لقد استلقت بجانب قلبك. أهنئك. أهنئك. إنها ورقة «واحد» ذات القلوب، وهذا يعني أنها تحبك جدًّا. ما هذا؟ لا، لا أستطيع أن أقول لك»... إلخ. ومع كل كلمة كانت إليزا أفجوستوفنا تُوجِّه إليه نظرات متفحصة، وتبتهج من كل قلبها بالتعذيب الذي يتعرض له الشاب البائس. «آه أيها المسكين (بالفرنسية) إنها لن تجعلك تعاني كثيرًا، ولكن أين يمكن أن

يجد المرء مثل هذا القلب الحجري؟ هل أخبرتها عن حبك؟ من المؤكد أنك لم تفعل». شحب وجه كروتسيفيرسكي، واحمر وازرق واصفر، وفي النهاية أنقذ نفسه بالركض. ما إن تمالك نفسه مجددًا في غرفته حتى تناول ورقة، ودق قلبه بعنف. لقد عبَّر عن مشاعره كافة بحماسة وشغف. لقد كان خطابًا، أو يمكن تسميته قصيدة أو صلوة. أخذ يبكي، وكان سعيدًا. باختصار اختبر في أثناء الكتابة لحظات من النعيم الكامل. ومضت تلك اللحظات كالبرق. إننا لا نستطيع أن نعطي التقدير الملائم لأفضل وأروع وأقيم ما لدينا في الحياة، وما يجب أن نثمل به. بدلًا من ذلك نسرع ونشعر بالقلق منتظرين شيئًا ما في المستقبل.

بعد انتهائه من كتابة الرسالة، هبط كروتسيفيرسكي. كانوا يشربون الشاي. لم تفارق لوبونكا غرفتها حيث قالت إنها مصابة بصداع. كانت جلافيرا لفوفنا فاتنة في ذلك اليوم على نحو خاص، لكن أحدًا لم يلتفت إليها. كان ألكسي أبراموفيتش يدخن غليونه مستغرقًا في التفكير (وأنتم بالطبع لم تنسوا أن هذا المظهر كان مجرد خداع بصري). أما إليزا أفجوستوفنا، فبينما كانت تمر ممسكة بكأسها انتهزت فرصة لتقول لكروتسيفيرسكي إنها في حاجة إلى التحدث معه. لم يتم الحوار حيث إن ميشا أخذ يضايق الكلب فتعالى نباحه. أمره نيجروف بأن يُخرج الكلب، وأخيرًا أخذت الخادمة ذات الأكمام الكتانية السماور، وانشغل ألكسي أبراموفيتش بلعب الورق بمفرده، بينما اشتكت جلافيرا لفوفنا من ألم الصداع. خرج كروتسيفيرسكي إلى الردهة. كانت الظلمة قد بدأت تُخيِّم، وكانت إليزا أفجوستوفنا هناك بالفعل. قالت: «عندما

تحل الظلمة تمامًا اخرج إلى الشرفة، وستجدها في انتظارك». كان كروتسيفيرسكي في حالة بين الحياة والموت. أيصدق ما يحدث أم لا؟ لقد أُبرِم له موعد. أيمكن أن تكون في حالة غضب شديد، وتود أن تُعرب له عن غضبها؟ ربما. ركض إلى الحديقة، وبدا له أنه رأى وميض فستان أبيض بعيدًا في زقاق أشجار الزيزفون، لكنه لم يستطع أن يذهب إلى هناك. لم يعرف حتى هل يجب أن يمضي إلى الشرفة أم لا. قال في نفسه: «فلأذهب لأسلِّم الخطاب، سأذهب لدقيقة واحدة، سأسلِّم الخطاب وحسب». لكن مجرد التفكير في كيفية الذهاب إلى الشرفة كان يخيفه. نظر إلى أعلى ورأى في زاوية الشرفة فستانًا أبيض بالرغم من الظلمة الدامسة. إنها هي، وكانت تبدو حزينة، مستغرقة في التفكير، وربما عاشقة! وطأ درجة السلم الأولى التي تقود من الحديقة إلى الشرفة. لا يمكنني أن أتعهد بأن أصف لكم كيف استطاع أن يصل إلى الدرجة الأخيرة.

سألت لوبونكا هامسة: «آه، أهذا أنت؟». ظل صامتًا مختنقًا بالهواء كسمكة. واصلت لوبونكا: «يا لها من ليلة رائعة!». أجاب كروتسيفيرسكي وقد تناول يدها بيده الميتة: «سامحيني، سامحيني في بحق الله!». سحبت لوبونكا يدها بسرعة. قال: «اقرئي هذه السطور وستعرفين لماذا يصعب عليَّ الكلام إلى هذه الدرجة».

مرة أخرى بلل الدمع وجنتيه المتوهجتين. ضغطت لوبونكا بيدها على يده، وبلل دمعه يدها وجففها بالقبلات. أخذت منه الخطاب وأخفته في صدرها. تنامى في داخله شعور بأنه قد بُعِث من جديد، ولا

أعرف كيف حدث ذلك، لكن شفتيه لامستا شفتيها، وكانت هذه هي قبلة الحب الأولى، وبائس هو من لم يختبرها!

لوبونكا التي حُمِلت بعيدًا طبعت نفسها بنفسها برجفة عاطفية طويلة.

قبلة، قبلة جعلت ديمتري ياكوفليفيتش يشعر أنه لم يختبر من قبل مثل هذه السعادة. أمال رأسه على يده وبكى، وفجأة أمسك بها صائحًا: «يا إلهي! ماذا فعلت؟!». لقد أدرك لتوِّه أنها لم تكن لوبونكا على الإطلاق، بل جلافيرا لفوفنا. قالت له جلافيرا لفوفنا التي تكاد تموت من فرط الوفرة التي تكتنف حياة آل نيجروف: «اهدأ يا صديقي!»، لكن ديمتري ياكوفليفيتش كان قد ركض إلى درجات السلم بالفعل، وهبط إلى الحديقة، وأطلق العنان لقدميه عبر زقاق شجر الزيزفون، ثم خرج من الحديقة، ومر بالقرية، وسقط في الطريق وقد وهنت قواه في حالة أشبه بمن ضربه البرق.

هنا فقط تذكر أن الخطاب ظل في يد جلافيرا لفوفنا. ما العمل؟ كان يمزق شعره كوحش حانق متدحرجًا على العشب.

إذا أردنا أن نوضح كيف حدث سوء الفهم الغريب هذا يجدر بنا أن نتوقف ونقول بضع كلمات توضيحية. لاحظت العينان الصغيرتان لإليزا أفجوستوفنا، وهما عينان شديدتا الملاحظة وجاهزتان للعمل، أنه منذ أن زادت أسرة آل نيجروف فردًا بوصول كرونسيفيرسكي، صارت جلافيرا لفوفنا أكثر اهتمامًا بتزينها، وأنها صارت ترتدي بلوزتها بطريقة مختلفة، وظهرت مختلف أنواع الياقات، كما ظهرت

قبعات مختلفة، ووجهت عنايتها إلى شعرها والضفيرة السميكة التي تضعها، والتي كانت لسوء الحظ ملائمة للون بقايا شعر جلافيرا لفوفنا، وبدأت تتحرش به بالرغم من أن الزمن كان قد عفا عليها. بدأت تلوح مجددًا على هذا الوجه البدين الرخو للأم الموقرة بهذه الأسرة سمات جديدة، وظلت هذه السمات إلى ذلك الوقت متوارية خلف امتلاء الوجنتين وهذه الابتسامة، كما أن العينين قد صارتا دهنيتين، ثم تصدر تنهيدة وتصير العينان عسليتين. لم يمر أي من هذه التغييرات من دون أن تلاحظه إليزا أفجوستوفنا، وعندما دخلت مصادفة غرفة جلافيرا لفوفنا في أثناء غيابها، وفتحت فجأة صندوق زينتها، وجدت فيه أحمر شفاه مفتوحًا (بالفرنسية في الأصل) ظل في مكانه لخمسة عشر عامًا بجانب غسول عين في الخزانة. حينها علت صيحة في داخلها: «حان الوقت الآن لأخرج أنا أيضًا إلى خشبة المسرح وأشارك في هذا العرض». في هذا المساء تحديدًا، وبعد أن صارت بمفردها مع جلافيرا لفوفنا، بدأت السيدة الفرنسية تحكي لها كيف حدث لإحدى الأميرات أن صارت تبدي اهتمامًا بأحد الشباب، وكيف أن قلبها -أي إليزا أفجوستوفنا- قد آلمها وهي ترى الأميرة الملائكية تعاني وتتألم، وكيف ارتمت هذه الأميرة على صدرها في النهاية بوصفها صديقتها الوحيدة، ووصفت لها مدى اضطرابها وشكوكها، طالبة منها النصح، وكيف بددت إليزا أفجوستوفنا شكوكها وأسدت إليها النصيحة، وكيف توقفت الأميرة بعد ذلك عن التألم والمعاناة، بل صار الأمر على النقيض، حيث بدأ جسدها يمتلئ وتستمتع بوقتها. اتقدت جلافيرا لفوفنا بشعلة مسائية

اكتنفتها إثر سماعها لهذه الحكايات. يفكر الناس عادة أن أصحاب الأجساد الممتلئة غير مؤهلين للتأثر بأي عاطفة، لكن هذا غير حقيقي. تدوم النار طويلًا حيث توجد أجساد دهنية كثيرة؛ هذا إن اشتعلت. كما ترون، تولت إليزا أفجوستوفنا نفخ الهواء، وأشعلت شعلات إيروتيكية صغيرة ظلت تدور حول جلافيرا لفوفنا مصدرة وميضًا كبيرًا كفاية. في الحقيقة لم تنجح إلى حد أن تعهد إليها جلافيرا لفوفنا بسرها، بل إنها تمتعت بالسماحة الكافية التي تجعلها لا تجبرها على الاعتراف، حيث إن هذا لم يكن أمرًا ضروريًّا على الإطلاق. كل ما أرادته هو أن تجعل جلافيرا لفوفنا تحت سلطانها، ولم يكن هناك أدنى شك في نجاحها في تحقيق ذلك. على مدار أسبوعين أهدتها جلافيرا لفوفنا هديتين: منديل من إنتاج مصنع كويافنا، وواحد من فساتينها الحريرية.

لم يستطع كروتسيفيرسكي البريء والعفيف أن يخمن من السلوكيات ماذا تعني هذه اللباقة التحذيرية للمرأة الفرنسية، وإشاراتها الملتبسة، وأخيرًا نظرات جلافيرا لفوفنا الغامضة، بل ولم يستطع حتى أن يحلم بذلك. بطء فهمه هذا وشروده الخجول ونظراته الخفيضة أيقظت أكثر فأكثر شهوة المرأة التي تحيا عقدها الرابع، وأفضت بها إلى هذا الانقلاب الغريب لوضع العلاقة العادية بين الجنسين، وجعلتها مصدر اهتمام خاص. في حقيقة الأمر لعبت جلافيرا لفوفنا دور الغازية والمغوية، بينما لعب ديمتري ياكوفليفيتش دور الفتاة البريئة التي بدأ عنكبوت خبيث ينسج شباكه حولها. لم يلحظ نيجروف الطيب شيئًا، وظل كالمعتاد يسأل زوجة البستاني عن حالة أشجار الفاكهة، وساد

السلام ذاته على المنزل الأبوي لألكسي أبراموفيتش. بمكننا الآن أن نعود إلى الشرفة. لم تفهم جلافيرا لفوفنا الهروب السريع ليوسفها[٧٤]، واقشعر بدنها قليلًا بفعل نسمة المساء، ومن ثَم ذهبت إلى غرفة النوم، وما إن بقيت بمفردها؛ أو بمعنى أدق بقيت بصحبة إليزا أفجوستوفنا وحدها، حتى أخرجت الخطاب. اضطرب صدرها المريض، وفضت الخطاب بيد مرتعشة وبدأت تقرأ، وفجأة صاحت كما لو أن سحلية أو ضفدعة كانت متوارية في الخطاب وقفزت إلى صدرها. هرعت ثلاث خادمات إلى الغرفة إثر الصرخة، وأمسكت إليزا أفجوستوفنا بالخطاب. طلبت جلافيرا لفوفنا أن يأتوها بماء كولونيا، وأعطتها الخادمة الخائفة زيتًا متطايرًا، وقالت لها أن تدهن به رأسها: «آه أيها الخائن الشرير! (بالفرنسية في الأصل) هل كان بإمكان أحد أن ينتظر كل هذا من هذا الشخص المتواضع؟! لا شيء يمكن أن يرتقي بهذا الجيل النذل الذي لا يحتوي على أي شرارات من النبل، لا شيء. لقد آويت ثعبانًا داخل صدري». وجدت إليزا أفجوستوفنا نفسها في الوضع الذي وجد أحد معارفي من الموظفين نفسه فيه، فبعد أن نجح في الاحتيال طوال حياته قدَّم استقالته، متيقنًا من أن أحدًا لن يستطيع أن يحل محله؛ أي أنه قدم استقالته ليظل في العمل، ولكنه وجد استقالته قد قُبِلت. انتهى أمر إنسان ظل محتالًا لدهر بأن احتال على نفسه! لقد استطاعت - بوصفها امرأة ذكية - أن تفهم حقيقة الأمر، والخطأ الفادح الذي ارتكبته، وفي الآن

---

(٧٤) إشارة إلى قصة هروب يوسف من زليخة (بحسب القرآن)، أو زوجة فوطيفار (بحسب التوراة).

ذاته تصورت أنها هي وجلافيرا لفوفنا بين يدي كروتسيفيرسكي بقدر ما هو بين أيديهما، وتصورت أنه إذا شعر بالغضب من غيرة جلافيرا لفوفنا يمكنه أن يلجأ إلى إليزا أفجوستوفنا، وإذا لم تكن لديه الوسائل الكافية لإثبات كل ذلك، سيلقي بالشك في نفس ألكسي أبراموفيتش. بينما كانت تتمعن التفكير في كيفية تهدئة غضب أليسار العجوز[٧٥] دخل ألكسي أبراموفيتش غرفة النوم متثائبًا، راشمًا علامة الصليب على فمه[٧٦]، كانت إليزا أفجوستوفنا في حالة من اليأس. صاحت الزوجة المستاءة: «ألكسيس، لم يخطر على بالي قَطُّ أن يحدث ما حدث، تصور يا صديقي أن هذا المعلم اللطيف يراسل لوبونكا، وما هو مكتوب في هذا الخطاب مريع حقًّا، لقد دمَّر هذه اليتيمة العزلاء. أرجو أن تطرده غدًا من منزلنا. أتوسل إليك من أجل عينَي ابنتنا. إنها لا تزال بالطبع طفلة، ولكن يمكن لهذا أن يؤثر على مخيلتها». لم يوهب ألكسيس القدرة على فهم الأمور بسرعة ومناقشتها. اندهش من الأمر دهشة لا تقل عن دهشته في شهر العسل حينما توسلت إليه جلافيرا لفوفنا بقبر أمه ورماد أبيه أن يسمح لها بتبني ابنة حبه الآثم. ما زاد على ذلك هو أن نيجروف كان يشعر بحاجة رهيبة إلى النوم، وكان توقيت عرض التقرير عن المراسلة التي اكتُشِفت خاطئًا. لا يمكن لإنسان ناعس إلا أن

---

(٧٥) ابنة ملك صور ومؤسسة قرطاج وملكتها الأولى. اشتهرت بعد ذكرها في الإنيادة التي كتبها فرجيل. وعرفت بدهائها وحسن التدبير اللذين سمحا لها بإنشاء وحكم قرطاج في شمال أفريقية التي عرفت بتجارتها الواسعة وسيطرتها على بحار المتوسط.

(٧٦) عادات دينية شعبية حماية للفم من دخول أي شيء شرير.

يغضب على من يحول بينه وبين النوم؛ أعصابه تعمل بصورة سيئة وكل شيء واقع تحت تأثير الإنهاك.

- ما الأمر؟ أي مراسلة تقصدين مع لوبا؟

- نعم، نعم، خطاب إلى لوبا من هذا الطالب. يجب أن أعترف أن مثل هذه الولادات لا تجلب لنا سوى مثل هذه النتائج!

- ولكن ما المكتوب في هذا الخطاب؟ أهو شيء صادم أم ماذا؟ لا بد من حماية فتاة في السابعة عشرة. ليس عبثًا إذن أنها كانت تجلس طوال الوقت بمفردها. رأسي يؤلمني. نعم، نعم، سوف أجبر هذا الوغد على التزوج بها. هل نسي عند من يعيش؟ أين الخطاب؟ أووف، يا لها من كتابة بائسة! معلم ولا يستطيع الكتابة؟! يكتب مثل هذه العامية البذيئة! اقرئي يا جلاشا.

- لن أقرأ مثل هذه الفضائح. يا له من هراء! داشكا، اجلبي لي النظارة من المكتب.

وجلبت داشكا التي تعرف الطريق جيدًا إلى المكتب النظارة لألكسي أبراموفيتش. جلس أبراموفيتش قرب الشمعة، وتثاءب، ورفع شفته العليا؛ الأمر الذي أكسبه تعبيرًا مبجلًا جدًّا، وأخذت عيناه ترمشان، وبدأ يقرأ بصعوبة كبيرة في النطق: «نعم، كوني لي ألينا. أنا أحبكِ بجنون ونشوة وجذل. الحب هو اسمكِ»(٧٧). وأضاف الجنرال: «يا له من مهرج!»، ثم أكمل قراءة: «إني لا آمل شيئًا، ولا يمكنني أن

(٧٧) لوبونكا هو تصغير وتدليل لوبوف، وهو اسم شائع في روسيا ويعني: الحب.

أحلم بحبكِ، ولكن صدري مليء بالمشاعر حتى إني لم أعد قادرًا على ألا أقول لكِ إني أحبكِ. سامحيني، أتوسل السماح عند قدميكِ، سامحيني».

- يا له من هراء! كان هذا مجرد بداية الصفحة الأولى. لا، يكفي ذلك! لا يجب أن تقرأ خادمة مطيعة مثل هذه السفاسف. ألم يكن من واجبكِ أن تحذرينا؟ ما الذي رأيتِه؟ لماذا أعطيتموه الفرصة؟ ولكنها ليست بلية عظيمة. صحيح أن للفلاحات شعرًا طويلًا، ولكن عقولهن صغيرة. ماذا وجدتم في الخطاب؟ إنها أكاذيب، وخلاف ذلك لا يوجد شيء. لقد حان وقت تزويج لوبا، ولكن كيف هو كمريس؟ يقول الطبيب إنه من الدرجة التاسعة. إنها محاولة لمضايقتي. في الصباح أفكر بصورة أحكم من المساء. حان وقت النوم! عفوكِ يا إليزافيتا أفجوستوفنا، صحيح أن الأعين حادة لكنها لا تدرك الأمر. فلنواصل حديثنا غدًا إذن.

بدأ الجنرال يخلع ثيابه، وفي غضون دقيقة كان قد استغرق في نوم عميق على فكرة أن كروتسيفيرسكي لن يستطيع التملص منه، وأنه سوف يزوِّجه لوبا، فهذه عقوبته وسوف يلتزم بها.

كان هذا يوم إخفاق، فلم تتوقع جلافيرا لفوفنا أن الأمر سيأخذ هذا المنحى لدى نيجروف. لقد نسيت كيف ظلت في الفترة الأخيرة تُحدِّث نيجروف باستمرار عن ضرورة تزويج لوبا. ألقت نفسها على الفراش بغضب امرأة عجوز، وكانت على وشك عض الوسائد، بل ربما عضتها فعلًا.

طوال هذه الفترة كان كروتسيفيرسكي المسكين مستلقيًا على العشب. كان مخلصًا في الأمر إلى درجة أنه أراد أن يموت من كل قلبه. شعر بمشاعر كئيبة فاجعة، ويأس وخوف وخجل، وانتهى به الأمر وهو مستلقٍ إلى أن يفعل ما فعله ألكسي أبراموفيتش؛ أي أنه نام. لم يُصَب بحمى الحب (باللاتينية في الأصل)، إنما أُصيب على حد قول الطبيب كروبوف بنزلة برد (باللاتينية في الأصل). لكن الندى البارد هنا كان مفيدًا له، بحيث هدَّأ نومه الذي كان قلقًا في البداية، وعندما استيقظ بعد نحو ثلاث ساعات كانت الشمس قد أشرقت، وهو جالس هناك. كان هاينه محقًّا تمامًا في قوله إن هذا الشيء القديم أيًّا كان منبعه يتربع هناك، وهو ليس سيئًا مهما كانت حال العاشق، وليس هناك ما يُقال عن الأمر. كان الهواء منعشًا مليئًا برائحة داخلية خاصة، وقد صارت قطرات الندى كتلًا بيضاء ثقيلة، تاركة من خلفها ملايين القطرات اللامعة. كانت هناك إضاءة أرجوانية وظلال غريبة أضفت منظرًا جديدًا غريبًا فاتنًا على الأشجار وأكواخ الفلاحين وكل المكان المحيط. صدحت الطيور بأصوات مختلفة، وكانت السماء صافية. نهض ديمتري ياكوفليفيتش وقد شعر ببعض الراحة في نفسه. تلوى الطريق وتوارى أمام عينيه، وظل ينظر طويلًا إليه متسائلًا في نفسه عما إذا كان يجدر به الهرب من هؤلاء الناس الذين كشفوا سره؛ سره المقدس الذي لطخه بنفسه في الوحل؟ كيف سيعود إلى المنزل، وكيف سيلتقي بجلافيرا لفوفنا؟ الأفضل أن يهرب! ولكن كيف يتركها، وأين يجد القوة التي تعينه على هجرانها؟ عاد بخطوات هادئة. ما إن دخل الحديقة حتى

رأى في زقاق أشجار الزيزفون فستانًا أبيض. كست الحمرة وجنتيه عندما تذكر خطأه المريع وقبلته الأولى، لكنها كانت في تلك المرة لوبونكا فعلًا. كانت جالسة على دكتها المفضلة مستغرقة في التفكير، تنظر إلى الأمام بحزن. اتكأ ديمتري ياكوفليفيتش إلى الشجرة وأخذ ينظر إليها في حالة نشوة وإلهام. في حقيقة الأمر بدت في هذه اللحظة جميلة بصورة مدهشة، وثمة فكرة كانت تشغلها بقوة. كانت حزينة، وقد أضفى عليها هذا الحزن شكلًا مهيبًا حيويًّا وحادًّا وشبابًا رائعًا. ظل الشاب واقفًا لفترة طويلة غارقًا في تأملاته، وفي النهاية قرر أن يقترب منها. كان احتياجه إلى التحدث معها عظيمًا. كان عليه أن يُحذِّرها بشأن الرسالة. ارتبكت لوبونكا عندما شاهدت كروتسيفيرسكي، ولكن لم يكن هناك مجال للسلوك بأي طريقة استعراضية، ولذلك بعد أن ألقت نظرة سريعة على ثيابها الصباحية التي لم تكن تنوي أن تلقى بها أحدًا، وبهذه السرعة نفسها نظرت إلى ديمتري ياكوفليفيتش نظرة هادئة نبيلة. وقف ديمتري ياكوفليفيتش أمامها عاقدًا يديه على صدره. قابلت نظرته المتوسلة المليئة بالحب والمعاناة والأمل والنشوة، ومدت له يدها، وقبض على يدها والدموع في عينيه. يا إلهي! كم يبدو المرء في فترة الشباب جميلًا!

الاعتراف الذي عبَّر عنه فيما يتعلق بـ«ألينا وألسيما» هز لوبونكا بقوة. لقد شعرت قبل ذلك بكثير بفضل تلك الفطنة الأنثوية التي تحدثنا عنها بأنها محبوبة، ولكن ذلك لم يكن شيئًا مفهومًا بوضوح، ولم ينل تسمية. أما الآن فقد لُفِظت الكلمة، وكتبت في دفتر يومياتها مساء:

«أحاول بصعوبة لملمة شتات أفكاري. آه كم بكى! يا إلهي! يا إلهي! لم أظن قَطُّ أن رجلًا يمكنه أن يبكي بهذه الطريقة. نظرته تتسم بنوع من القوة تجبرني على الارتجاف، لا من الخوف، إن نظرته رقيقة ودمثة، دمثة كصوته. شعرت بالأسف الشديد عليه. يبدو أنني إذا كنت قد انصعت لصوت قلبي لقلت له إنني أحبه، ولقبَّلته لأواسيه. لو فعلت ذلك لكان سعيدًا. نعم، إنه يحبني. يمكنني أن أرى ذلك، وأنا أيضًا أحبه. يا للفرق بينه وبين الآخرين! كم هو نبيل ورقيق! كان يحكي لي عن والديه وكم يحبهما. لماذا قال لي: «كوني ألينا لي»؟ لديَّ اسمي بالفعل، وهو اسم جميل. أنا أحبه، ويمكنني أن أصير له وأبقى في الآن ذاته نفسي. تُرى هل أستحق حبه؟ يبدو لي أنني لا أستطيع أن أحب بهذه القوة، مرة أخرى تراودني هذه الفكرة السوداء التي تعذبني دائمًا».

قالت لوبونكا:

– وداعًا، ولكن توقف عن الخوف من الرسالة. إنني لا أخاف شيئًا. أنا أعرفهما جيدًا.

وربتت على يده بود وعاطفية وتوارت خلف الأبواب. ظل كروتسيفيرسكي في مكانه. لقد تحدثا طويلًا. كان كروتسيفيرسكي في حالة أعظم من أن توصف بالسعادة، بل كان أكثر سعادة من الأمس. لقد تذكر كل كلمة قالتها، واكتنفته أحلامٌ الله وحده يعلم من أين جاءته، وتضمنت كلها صورة واحدة. لقد كانت هي في كل مكان، هي. لكن الخادم القوزاقي لألكسي أبراموفيتش وضع حدًّا لهذه الأحلام حينما

أبلغه باستدعاء ألكسي أبراموفيتش له. لم يحدث أن استدعاه نيجروف في هذا الوقت من الصباح من قبل.

- ماذا؟

هكذا سأله كروتسيفيرسكي وقد لاحت عليه هيئة إنسان صبوا على رأسه دلو ماء بارد.

أجابه القوزاقي بلهجة فظة بعض الشيء:

- اذهب إلى السيد من فضلك.

يبدو أن قصة الخطابات قد وصلت إلى غرفة المعيشة.

قال كروتسيفيرسكي وهو في حالة نصف ميت من فرط الخوف والخجل:

- سآتي حالًا.

وما الذي كان يخيفه؟ يبدو أنه لم يكن هناك أدنى شك في حب لوبونكا له، فما الذي يريده أكثر من ذلك؟ لكنه لم يكن في تلك الحالة بسبب الخوف، ولا بسبب الخجل. لم يستطع أن يتصور أن دور جلافيرا لفوفنا ليس أفضل من دوره. لم يستطع أن يتصور كيف يمكنه أن يلتقي بها مجددًا. من المعروف أن جرائم قد ارتُكِبت للتخلص من الإحراج.

قال نيجروف وقد لاحت عليه أمارات الانشغال بأمر عظيم وجليل:

- حسنًا أيها الأديب، ألم يعلموك في الجامعة كيف تكتب خطابات حب صغيرة؟

صمت كروتسيفيرسكي. لقد كان منفعلًا إلى حد أنه لم يستأ من نبرة نيجروف. حفَّزت هذه الهيئة المرتبكة المتألمة شجاعة ألكسي أبراموفيتش، فواصل فجأة بصوت عالٍ ناظرًا مباشرة إلى وجه ديمتري ياكوفليفيتش:

- كيف تجرؤ أيها السيد الكريم على هذه الأفعال الوقحة وارتكاب الحيل في منزلي؟ ماذا تظن عن منزلي؟ أتظنني أبله أم ماذا؟ أمر مخزٍ أيها الشاب وغير أخلاقي ما فعلته بفتاة يتيمة فقدت والديها، وليس لها ما تحتمي به سواء مناصرين أم منصبًا. آه من زماننا هذا! لماذا يُعلِّم الإخوة كل شيء: القواعد النحوية وعلم الحساب، ولا يُعلِّمون الأخلاق؟ أتشوِّه سمعة فتاة وتحرمها من شرفها؟

أجاب كروتسيفيرسكي الذي تغلب غضبه تدريجيًّا على وعيه بحماقة موقفه:

- ولكن عذرًا، ما الذي فعلته؟ أنا أحب لوبوف ألكسندروفنا (ربما يسمونها ألكسندروفنا بسبب أن أباها يُدعى ألكسي بينما يُدعى الخادم زوج أمها أكسيون[(٧٨)])، وإنني لا أخجل من إعلان هذا. أنا نفسي ظننت أنني لن أقول لأحد كلمة عن حبي. لا أعرف كيف حدث ذلك، ولكن ما الجرم تحديدًا الذي تجده فيما فعلت؟ لماذا تعتقد أن نياتي شريرة؟

---

(٧٨) المقصود أن لوبوف إذا دُعيت على اسم أبيها البيولوجي يجب أن تُسمَّى لوبوف ألكسيفنا (نسبة إلى ألكسي)، ولو نُسبت إلى زوج أمها كان من المفروض أن تُدعى لوبوف أكسيونيفنا (نسبة إلى أكسيون).

- إذا كانت نياتك شريفة فعلًا لماذا تفسد سمعة فتاة بخطاباتك الغرامية (بالفرنسية في الأصل) بدلًا من أن تأتي إليَّ مباشرة؟ أنت تعرف أنني أبوها الجسدي، ومن ثَم كان يجب عليك أن تأتي لي وتطلب موافقتي وإذني، لكنك ذهبت إلى الشرفة الخلفية ووقعت في شر أعمالك. من فضلك لا تلمني، فأنا لن أسمح بمثل هذه الأمور في منزلي، وهل هو أمر صعب أن يدير المرء رأس فتاة؟ لا. لم أكن أنتظر منك ذلك. تظاهرت بالتواضع بمهارة، وهي قد ميَّزت نفسها وقدمت لنا شكرها على تربيتها ورعايتها! لقد ظلت جلافيرا لفوفنا تبكي طوال الليل.

لاحظ كروتسيفيرسكي أن الخطاب في يد ألكسي أبراموفيتش فقال:

- الخطاب بين يديك، ويمكنك أن ترى بنفسك أنه الخطاب الأول.

- نعم، إنه الخميرة الأولى لصنع الفطيرة كاملة. إنك تطلب يدها في هذا الخطاب الأول، أليس كذلك؟

- لم أجرؤ على التفكير في ذلك.

- كيف تجرؤ إذن على ما فعلت وفي الآن ذاته تخجل من ذلك؟ ما الهدف الذي جعلك إذن تكتب هذه السفاسف في خطاب كامل؟

أجاب كروتسيفيرسكي مذهولًا من حديث نيجروف:

- لم أجرؤ فعلًا على التفكير في طلب يد لوبوف ألكسندروفنا. كنت لأصير سعيدًا سعادة المبعوث من موته لو استطعت أن آمل ذلك.

– كلام معسول. هذا ما يُعلِّمونك إياه: الكلام المخادع. اسمح لي أن أسألك: لو سمحت لك بأن تتقدم لطلب يدها ولم أمانع، علام ستعيشان؟

لا ينتمي نيجروف بالطبع إلى نوعية الأذكياء من الناس، لكنه يتسم تمامًا ببراعتنا القومية النابعة من مستودع العقل العملي الذي يُدعى «استقلالية عقلية». كان تزويج لوبا من شخص ما – أيًا كان – هو حلمه المفضل، خاصة بعد أن لاحظ والداها المبجلان أن في وجودها تفقد ليزونكا (تدليل ليزا – المترجم) الكثير. لقد خطرت على بال ألكسي أبراموفيتش فكرة تزويج لوبا بكروتسيفيرسكي قبل موضوع الخطاب بفترة طويلة، وإيجاد وظيفة له في مكان ما بالمقاطعة. خطرت على ذهنه تلك الفكرة على الأساس الذي تحدث عنه؛ أي أنه إذا صار سكرتيرًا لطيفًا سيزوِّجه لوبا. أول ما خطر على ذهنه عندما اكتشف حب كروتسيفيرسكي هو إجباره على الزواج منها. كان يفكر في أن الخطاب مجرد عمل طائش، وأن الشاب لن يقبل بسهولة حمل نير الحياة الزوجية، لكنه رأى بوضوح من إجابات كروتسيفيرسكي أن الأخير غير نافر من الزواج، ومن ثَم غيَّر استراتيجية الهجوم وبدأ يتحدث عن المركز الوظيفي، خائفًا أن يطلب منه كروتسيفيرسكي مهرًا إذا قرر الزواج منها فعلًا.

صمت كروتسيفيرسكي، وقد وضع سؤال نيجروف ثقلًا شديدًا على صدره كموقد حديدي.

واصل نيجروف حديثه:

- ألست... ألست مخطئًا في ظنك عن وضعها المالي؟ ليس لديها شيء، ولا يُنتظر أن يصلها شيء من أحد. لن أدعها تخرج بالطبع من منزلي بتنورة واحدة، ولا يمكنني أن أعطيها شيئًا غير الخرق، فأنا لديَّ عروس تنمو وتحتاج إلى كل شيء.

لاحظ كروتسيفيرسكي أن السؤال عن المهر غريب عنه تمامًا. كان نيجروف مسرورًا بنفسه، وقد قال في نفسه: «هذا مغفل حقيقي، ومثقف في الآن ذاته!».

- هكذا هو الأمر يا عزيزي. في النهاية لا يبدأ الطيبون الأمر بهذه الصورة. قبل أن تبدأ كتابة هذه الخطابات الغرامية كان عليك أن تفكر في البداية في أنك إذا كنت تحبها فعلًا لوددت أن تطلب يدها. لماذا لم تهتم بالتفكير في المستقبل؟

سأل كروتسيفيرسكي بصوت إنسان مرتبك في أعماقه:

- وماذا يمكنني أن أفعل؟

- تسألني ماذا يمكنك أن تفعل؟! أنت موظف رائع، وعلاوة على ذلك أظن أنك في الدرجة التاسعة. نحِّ علم الرياضيات والشعر جانبًا واطلب وظيفة رسمية. كفى تضييعًا للوقت. يجب أن تكون مفيدًا. عليك أن تعمل في وظيفة رسمية. نائب حاكم المقاطعة صديقي. بمرور الوقت يمكنك أن تصير مستشارًا. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ بهذا تكون قد ضمنت رزقك ووظيفة جيدة.

لم يخطر على بال كروتسيفيرسكي طوال حياته قَطُّ أن يعمل في

وظيفة رسمية أو في أي ديوان كان. كان من الصعب عليه أن يتخيل نفسه مستشارًا صعوبة أن يتحول إلى طائر أو قنفذ أو نحلة أو شيء من هذا القبيل. لكنه شعر أن نيجروف محق مبدئيًا. لم يكن ثاقب النظر حينما لم يدرك حقيقة وضع نيجروف الأبوي الذي أكد أن لوبونكا لا تملك شيئًا، وأنه من غير المنتظر أن يرسل لها أحد شيئًا، وفي الآن ذاته يُرتِّب أمر زواجها بوصفه أبيها. في النهاية قال ديمتري ياكوفليفيتش:

- ربما من الأفضل أن أعمل مدرسًا في الجيمنازيا.

- ولكن هذا أسوأ. ما قيمة مدرس في الجيمنازيا؟ إنه مجرد موظف ضئيل، ولا يمكن أن يدعونه أبدًا لمقابلة حاكم المقاطعة، بل إن مدير الجيمنازيا نفسه يتقاضى راتبًا متواضعًا.

تم هذا الحوار الأخير بلهجة عادية، حيث كان نيجروف قد هدأ تمامًا في تفاوضه، وكان متيقنًا من أن كروتسيفيرسكي لن يفلت من بين يديه.

صاح نيجروف صوب الغرفة الأخرى:

- جلاشا! جلاشا! (تدليل جلافيرا - المترجم).

شحب كروتسيفيرسكي. كان يعتقد أن قبلة الحب الأخيرة كانت مهمة ومذهلة لجلافيرا لفوفنا أهمية قبلة الحب الأولى له التي ضلت طريقها.

أجابت جلافيرا لفوفنا:

- ماذا تريد؟

- تعالي هنا.

دخلت جلافيرا لفوفنا وقد أكسبت نفسها مظهرًا فخورًا جليلًا، كان من الواضح أنه لا يلائمها، لم يخفَ ارتباكها إلا بدرجة ضئيلة. لسوء الحظ لم يستطع كروتسيفيرسكي ملاحظة ذلك. كان يخشى أن ينظر إليها.

قال نيجروف:

- جلاشا، إن ديمتري ياكوفليفيتش يطلب يد لوبونكا. لقد ربيناها دائمًا كابنة عزيزة لنا، ولنا الحق الآن في أن ندبر أمور زواجها، ولكن هذا لا يمنع من سماع رأيها. هذا دورِكِ.

قالت جلافيرا لفوفنا بمرارة:

- آه يا إلهي! هل ستتزوج؟ يا له من خبر! إن هذا المشهد مستقى من «إلواز جديدة[٧٩]».

لو كنت مكان كروتسيفيرسكي لقلت حتى أجاري جلافيرا لفوفنا: «نعم، والمشهد الذي تم بالأمس في الشرفة كان مستقى من فوبلاس[٨٠]»، لكن كروتسيفيرسكي ظل صامتًا.

نهض نيجروف ليشير إلى نهاية الحديث قائلًا:

- لكني أرجوك ألا تفكر في طلب يد لوبونكا قبل أن تنال الوظيفة. في كل الأحوال أنصحك يا عزيزي أن تتحلى بالحذر. سأراقبك دائمًا.

---

(٧٩) لواز وبيتر أبلار من أشهر ثنائيات قصص الحب في القرون الوسطى.

(٨٠) عمل أدبي إيروتيكي شهير من تأليف: «Jean-Baptiste Louvet de Couvray».

يجدر بك أن تسلك بطريقة محترمة في منزلي. يجب أن نولي عنايتنا أيضًا لهذه الفتاة لوبونكا.

خرج كروتسيفيرسكي. تحدثت جلافيرا لفوفنا بأكبر درجات الاستخفاف، وختمت حديثها بأن كائنًا باردًا كلوبونكا يمكنه أن يتزوج بأي شخص، لكنها لا يمكن أن تحقق السعادة لأحد.

في صباح اليوم التالي مكث كروتسيفيرسكي بغرفته غارقًا في تفكير عميق. لم يمر سوى يومين على قراءة «ألينا وألسيما» وفجأة صار عريسًا تقريبًا، وهي عروسه، كما أنه ماضٍ نحو وظيفة رسمية. يا لغرابة سلطان القدر الذي يتحكم في حياته والذي رفعه فجأة إلى قمة السعادة الإنسانية! وكيف حدث ذلك؟ لقد حدث ذلك إثر تقبيله لامرأة ظانًّا أنها امرأة أخرى، وتسليمها خطابًا ليس لها. أليست معجزة؟ أليس حلمًا؟ ثم تذكر مجددًا كل كلمات ونظرات لوبونكا في زقاق شجر الزيزفون، ومن ثَم شعر بالراحة والسرور في نفسه.

فجأة تناهت إلى أذنيه أصوات خطوات ثقيلة على السلالم المؤدية إلى غرفته، والتي تشبه سلالم السفينة. جفل كروتسيفيرسكي، وشعر بالخوف قليلًا في انتظار ظهور الشخص صاحب هذه الخطوات الثقيلة. انفتح الباب وظهر صاحبنا القديم الطبيب كروبوف. كان ظهوره مفاجئًا للغاية. في كل أسبوع كان يأتي لنيجروف مرة، وأحيانًا مرتين، لكنه لم يكن يأتي لغرفة كروتسيفيرسكي قَطُّ. أنبأت زيارته بشيء خاص.

قال كروبوف لاهثًا، وهو يمسح العرق عن وجهه بمنديل أبيض:

- آه من هذه السلالم اللعينة! لقد وجد ألكسي أبراموفيتش لك غرفة ملائمة حقًّا!

قال بطلنا الكانديدات سريعًا وقد احمر خجلًا والله وحده يعلم لماذا:

- آه، سيميون إيفانوفيتش!

واصل الطبيب:

- آه، تُرى ما المنظر الذي تطل عليه نافذتك إذن؟ تطل نافذتك على كنيسة دوبوف التي يتم تبييضها، أليس كذلك؟

- يبدو ذلك حتمًا، لكني لا أعرف.

هكذا أجاب كروتسيفيرسكي محدقًا صوب اليسار.

- طالب يتعذر تعليمه، ولكن كيف قضيت هنا شهورًا ولم تعرف ما المنظر الذي تطل عليه نافذتك؟ آه من الشباب! هات يدك!

- أنا بخير حمدًا لله يا سيميون إيفانوفيتش.

واصل الطبيب وهو يمسك بيد كروتسيفيرسكي:

- ها أنت بخير حقًّا، حمدًا لله. كنت أعرف ذلك. نبض قوي وغير منتظم. اسمح لي بالقياس: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... نشاط محموم وحيوي على مستوى مرتفع. في مثل هذه الحالة يرتكب الإنسان مختلف أنواع الحماقات. لو كان نبضك منتظمًا: توك، توك، توك، لما وصلت إلى تلك الحالة قَطُّ. يقولون لي بالأسفل يا صديقي المحترم: «إنه يريد أن يتزوج». إنني لا أصدق أذنيَّ، لأنني أظن أن صديقي الشاب الصغير

ليس غبيًّا. لقد جلبته بنفسي من موسكو. قلت لهم إنني لا أصدق، وإنني سأذهب وأتحقق من الأمر بنفسي. نبض قوي وغير منتظم، وفي ظل هذا النبض لا يقتصر الأمر على الزواج، بل الشيطان نفسه لا يعرف ماذا يمكن لصاحب هذا النبض أن يرتكب من حماقات. ولكن هل يمكن أن يتخذ المرء قرارًا بهذه الأهمية في مثل هذه الحالة المحمومة؟ فكِّر في الأمر. تداوَ أولًا، واجعل عضو التفكير؛ أي العقل، يعود إلى حالته الطبيعية، بحيث لا تؤثر هذه الحالة على تفكيرك. إذا شئت سأستدعي مساعدي ليصنع حجامة لك بكأس ونصف. موافق؟

- شكرًا جزيلًا لك، لكني لا أشعر بأي حاجة إلى ذلك.

- ومن أين لك أن تعرف ما إذا كنت في حاجة إلى ذلك أم لا؟ إنك لم تدرس الطب، وأنا درسته. إذا كنت لا تريد حجامة فلتتناول إذن ملح جلوبر[٨١]. الصيدلية الصغيرة معي. أرجوك خذه.

- شكرًا جزيلًا لك، ولكن يجب عليَّ أن أؤكد لك أنني في تمام الصحة ولا أمزح إطلاقًا، بل إنني أريد فعلًا (وهنا تلعثم) أن أتزوج، ولا أفهم ما الذي لديك ضد تحقيق سعادتي.

لاحت ملامح الجدية الشديدة على وجهه وهو يجيب:

- لديَّ الكثير جدًّا. أنا أحبك أيها الشاب، ولذلك أشفق عليك. أنت تُذكِّرني يا ديمتري ياكوفليفتش في نهاية أيامي بأيام شبابي. لقد ذكَّرتني بالكثير جدًّا من الماضي. أنا أريد لك الخير، والصمت

---

(٨١) معدن كبريتات الصوديوم المائي له الصيغة الكيميائية $Na_2SO_4 \cdot 10H_2O$.

الآن يبدو لي جريمة. ولكن كيف تتزوج في سنك هذه؟ إن نيجروف يخدعك. انظر كم أنت مضطرب الآن حتى إنك لا تريد أن تستمع لي. أرى ذلك بوضوح، لكني سأجبرك على الاستماع لي. لفرق العمر بيننا حقه عليك.

أجاب الشاب وقد اضطرب بعض الشيء من كلمات الشيخ:

- لا يا سيميون إيفانوفيتش. أنا أفهم جيدًا أنك تقول رأيك هذا بدافع حبك لي ورغبتك في تحقيق خيري. أشعر بالأسف فقط لأنه غير ضروري الآن؛ فالفرصة قد فاتت.

- آه، لو كان هذا فقط هو ما لديك ضد رأيي؛ فدعني أقول لك أن هذه محض تفاهات. ليس هناك أبدًا أي ظرف لا تكون فيه فرصة للتوقف. الزواج، كم هو أمر صعب! تكمن البلية في أن البعض لا يفكرون في الزواج الذي سيقبلون عليه إلا في وقت متأخر، في أوقات فراغهم، بعد أن يكون الوقت قد فات. إنها الحمى الشبقية (باللاتينية في الأصل – المترجم). كيف يمكن للمرء أن يفكر جيدًا في هذه الخطوة بينما نبضه مرتفع بهذه الطريقة كما هي الحال معك يا صديقي العزيز؟ إنك تخاطر بكل ما لديك. ربما تنجح في سرقة بنك، ربما. ولكن إلى أي حد يمكن أن يخاطر الإنسان الذكي؟ في لعب الورق يكون المرء نفسه هو المذنب وهو الذي يتلقى العقاب، وكذلك هو الأمر مع سرقة الطحين. ولكن عندما يتعلق الأمر بالزواج فإنك تُغرِق معك شخصًا آخر. آه يا ديمتري ياكوفليفيتش، فكِّر في الأمر. أنا أعلم أنك تحبها وأنها تحبك، ولكن كل هذا لا يعني شيئًا. كن متيقنًا من أن الحب سينقضي في الحالتين؛ إذا

رحلت سينقضي الحب، وإذا تزوجت سينقضي كذلك بصورة أسرع. لقد وقعت بنفسي في الحب، ولم يحدث هذا مرة واحدة، بل خمس مرات، ولكن الله أنقذني. بعودتي الآن إلى المنزل، أستريح بهدوء من متاعبي كافة. يومي كله مكرس لمرضاي، وفي المساء ألعب الورق وأنام بلا هموم. أما إذا تزوجت فلن تجد سوى القلاقل والصيحات والأطفال، وستشعر أن العالم كله يهلك إلا عائلتك! يصعب على المرء العيش في مثل هذا المكان، ومن الصعب التغلب على كل ذلك. ستجد الثرثرات التافهة تدور حولك، وكتابك تحت المقعد. يجدر بك أيضًا التفكير في المال ومصدر الرزق. لو قالوا لك الآن إنك ستمر بفاقة، فما المشكلة؟ سوف ينقضي الأمر في كل الأحوال. عندما لم أكن أجد أنا وأنطون فرديناندوفيتش، وأنت تعرفه جيدًا، سوى عدد قليل من الروبلات، وأكون راغبًا في التدخين، لا نتناول حينها شيئًا سوى الخبز، ونشتري رطلًا من لحم الخنزير ولا ندخن، ويضحك كلانا على ذلك، ويمر الأمر ببساطة، ولكن إذا كانت لديك زوجة لن ينقضي الأمر بالطريقة ذاتها. سوف تأسف على زوجتك، وسوف تصرخ في وجهك.

– لا، يمكن لهذه الفتاة أن تتحمل الفاقة. أنت لا تعرفها.

– يا عزيزي، هذا أسوأ من أن تصرخ وتغضب، أو على الأقل تبصق ويمضي الأمر، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل حينما تراها صامتة وآخذة في النحول، فتقول لنفسك: «المسكينة! لماذا أفضيت بها إلى هذا الجوع؟». ستوشك على تحطيم رأسك من أجل أن تجلب مالًا. حسنًا، ستظن أنك ستأتي بالمال بطريقة شريفة، وأنك لن تغش ولن تصير

محتالًا. هكذا ستفكر من أجل أن تنعش رأسك، ولكنك ستصاب بكل ما هو مرير، وهذا كله لا شيء. أنا نفسي أستخدم دواء المعدة كطبق ثانٍ، ويمكنك أن تتصور الطبق الثالث، هل تفهم؟ ولكن دعنا نفترض أنك استطعت تأمين كسرة خبز، وليس أكثر. إنها ابنة نيجروف، ونيجروف هذا ثري جدًّا وأنا أعرفه تمامًا. قد يهب ابنته خمسمائة قن، ولكن هل تظن أنه يمكنه أن يمنح لوبونكا خمسة آلاف روبل؟ كم أشفق عليك يا ديمتري ياكوفليفيتش! دع الآخرين الذين ليس لديهم شيء ليفعلوه أفضل من ذلك، وأنقذ أنت نفسك. كنت سأعرض عليك عملًا آخر، ولكن فلترحل من هنا سريعًا. الحب سيتبدد آجلًا أم عاجلًا. هناك فرصة عمل جيدة متاحة الآن في الجيمنازيا. لا تتصابَ، كن رجلًا!

– في الحقيقة أنا ممتن لك يا سيميون إيفانوفيتش على ما تفعله من أجلي، ولكن كل ما تقوله الآن غير ضروري. تريد أن ترهبني كما لو أني طفل. أفضل إنهاء حياتي عن هجران هذا الملاك. لم يكن بوسعي أن أحلم بمثل هذه السعادة. الله ذاته هو الذي دبَّر كل ذلك.

– آه، لقد أفضيت به إلى الهلاك. لماذا رشحته للعمل في هذا البيت؟ إنها إرادة الله. حسنًا! إن نيجروف يخدعك مستغلًّا شبابك. فليكن كما تشاء. لا أريد أن أخفي شيئًا. لقد عشتُ طويلًا يا عزيزي ديمتري ياكوفليفيتش في هذا العالم، ولا أتباهى بذكائي، وبدد الريح الكثير. كما تعرف مهنتنا الطبية لا تفضي بنا إلى غرفة المعيشة ولا إلى الردهة، بل إلى المكتب الخاص وغرفة النوم. لقد رأيت أناسًا كثيرين في زماني، ولم أفوِّت واحدًا منهم تقريبًا إلا وفحصته على الجانبين. أنتم ترون

الناس جميعًا في أبهى ثيابهم، بينما نمضي نحن إلى ما خلف الحجب. كنت أنظر إلى الصور العائلية ولا أشعر بالخجل من النظر لأحد منهم، فلقد رأيت الناس من دون تزين وبلا أي حدود. هوموسابيانس[٨٢]، أي سابيانس هو؟ عليه اللعنة، إنه ليس عاقلًا بل متوحش (باللاتينية في الأصل - المترجم)، بل إنه أكثر الكائنات توحشًا. إذا رأيته في عرينه فستجد أنه أسوأ من أي وحش. لماذا بدأتُ ذلك الآن؟ نعم، نعم، لكني تعودت تمييز هذه الشخصيات. عروسك ليست ملائمة لك، ولكن كما ترغب. هاتان العينان، هذا الوجه الجميل، هذه الرجفة التي تسري في وجهها أحيانًا، إنها كالنمر الذي لم يدرك مدى قوته بعد، أما أنت، فمن أنت؟ أنت العروس لا هي. أنت تبدو كعجوز، كألماني. سوف تكون أنت الزوجة، أيلائمك ذلك؟

استاء كروتسيفيرسكي من هذه المزحة الأخيرة، حتى إنه قال بنوع من البرودة والجفاف، بعكس عادته:

- هناك بعض الحالات يجدر بالمشاركين فيها تقديم الدعم بدلًا من قراءة الخطب. قد يكون كل ما تقوله صحيحًا، لن أعارضك، وقد يكون المستقبل مظلمًا، لكني أعرف أمرًا واحدًا: أمامي الآن طريقان، ويصعب اكتشاف إلى أين يؤديان، ولكن ليس هناك طريق آخر. إما أن ألقي بنفسي في المياه أو أن أكون سعيدًا.

- يجدر بك أن تلقي بنفسك في المياه وأن تضع حدًّا نهائيًّا للأمر.

---

(٨٢) الإنسان العاقل هو الاسم العلمي للنوع الوحيد غير المنقرض من جنس الأناسي والمعروف بهومو، الذي يحتوي أيضًا على نياندرتال وأنواع أخرى من القردة العليا.

هكذا قال كروبوف مستاءً نوعًا ما هو الآخر، مخرجًا منديله الأحمر.

لا ريب في أن هذه المحادثة في حد ذاتها لم تجلب الفائدة التي كان الطبيب كروبوف يرجوها، بل ربما كان طبيبًا جيدًا في مداواة الأمراض الجسدية، لكنه كان يتعامل بطريقة خرقاء مع الأمراض النفسية. من المحتمل أنه حكم على قوة الحب من واقع خبرته الخاصة، وقال إنه وقع في الحب عدة مرات، ومن ثَم اعتقد أن لديه خبرة كبيرة، ولكن لهذا السبب تحديدًا لم يستطع أن يناقش هذا الحب الذي يأتي مرة واحدة في العمر.

انصرف كروبوف غاضبًا، وفي مساء هذا اليوم أخذ يخطب على طاولة عشاء نائب حاكم المقاطعة لساعة ونصف تقريبًا عن موضوعه المفضل، حيث ظل ينتقد النساء والحياة الأسرية، ناسيًا أن نائب حاكم المقاطعة تزوج ثلاث مرات، وأنجب أطفالًا من ثلاثتهن. باختصار، لم تترك كلمات كروبوف أي تأثير على كروتسيفيرسكي تقريبًا. أقول «تقريبًا»، لأن ثمة انطباعًا كئيبًا غامضًا غير واضح ظل يلازمه، كما يحدث بعد نعيق غراب مشؤوم أو بعد المرور على المقابر، عندما نكون في طريقنا مسرعين نحو وليمة مبهجة. انمحى كل هذا بالطبع مع أول نظرة من لوبونكا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقولون والسرور بادٍ عليكم:

- يبدو أن الرواية قد قاربت على الانتهاء.

وأجيبكم بالاحترام الواجب:

- معذرة، إنها لم تبدأ بعد.

- معذرة، ألا يتبقى إرسالهما إلى الكاهن وحسب؟

- أحيانًا تأتي النهاية بأن يصل العريس والعروس إلى الكاهن، ويدهنهما بالزيت المقدس، وفي أحيان أخرى لا تكون هذه هي النهاية. عندما يأتي الكاهن من أجل إتمام الزواج تبدأ قصة مختلفة تمامًا، تشارك فيها الشخصيات ذاتها، وهي لن تبطئ في الظهور أمامكم.





-٥-

فلاديمير بيلتوف

كانت (س) - وليس هناك أي داعٍ هنا لتحديد المكان والزمان فلكيًّا وجغرافيًّا - مقر إجراء انتخابات مقاطعة (ن. ن) في القرن التاسع عشر. كانت المدينة مفعمة بالحياة. كثيرًا ما كانت تُسمع جلجلة الأجراس وصرير عربات الطريق، وكثيرًا ما كانت تُرى عربات المُلاك الشتوية والمركبات بمختلف أنواعها ممتلئة عن آخرها بالنبلاء الذين يرتدون المعاطف الشتوية والصوفية، والمناشف معقودة حولهم لتناول الطعام. جزء من المدينة يسير عادة في شوارعها، ينحني أمام أصحاب المتاجر، مبتسمًا أمام بوابات المتاجر. أما الجزء الآخر فتجده عادة نائمًا في مختلف أوضاع الجسم البشري التي يصعب معها النوم. رويدًا رويدًا حملت العربات جميع المُلاك تقريبًا من الفاعلين الرئيسيين في إدارة المقاطعة، وكان الكورنيت[٨٣] المتقاعد درياجالوف حاضرًا أيضًا، وقد زيَّن ستار نافذة شقته بزهور قرمزية؛ شقته التي استأجرها بآخر ما تبقى له من مال. لقد سافر إلى خمس مقاطعات مختلفة لحضور الانتخابات، ولم يخسر

---

(٨٣) رتبة عسكرية من رتب سلاح الفرسان.

مالًا قَطُّ، بالرغم من أنه كان يقضي وقته من الصباح وحتى الليل في لعب الورق، ولم يكن يربح أيضًا بالرغم من أنه كان يفوز من الصباح وحتى الليل! كان الجنرال الثري المتقاعد خرياشوف المشهور بموسيقييه بالرغم من بلوغه ٦٥ عامًا حاضرًا أيضًا. لقد ظهر في الانتخابات وأقام أربع حفلات راقصة، وكان يرفض - بدعوى المرض - في كل مرة منصب حاكم المقاطعة الذي كان النبلاء يعرضونه عليه بامتنان. بدأت المعاطف الغريبة في الظهور داخل غرف المعيشة، والتي استراحت لثلاثة أعوام كاملة محفوظة داخل أوراق التبغ[٨٤]، وياقات مخملية تَغيَّر لونها وحافظت على شكل ما بدا يائسًا. بالإضافة إلى تلك المعاطف ظهرت أزياء رسمية خاصة بمختلف العصور: أزياء ميليشيا ذات صفين من الأزرار، وأخرى ذات صف واحد؛ أزياء ذات كتافة واحدة، وأخرى من دون كتافات. ظلت الزيارات تتوالى من الصباح وحتى الليل. بعض هؤلاء الناس لم يلتقِ بعضهم بعضًا منذ ثلاثة أعوام، ولاحظوا عندما نظر بعضهم إلى بعض، وشعور ثقيل يُخيِّم على صدورهم، زيادة الشيب والتجاعيد وزيادة النحافة أو البدانة؛ الأمر الذي جعل الوجوه القديمة لم تعد تبدو كما الماضي؛ فصنوف التدمير المختلفة قد تركت بصمتها بصورة ما على كل منهم. من جانب ما، وفي ظل شعور أشد وطأة، كان بالإمكان ملاحظة العكس تمامًا، كما لو أن الأعوام الثلاثة مرت بالطريقة ذاتها التي مرت بها ثلاثة عشر عامًا سابقة أو حتى ثلاثين عامًا.

---

(٨٤) يتعلق الأمر بمواصفات معينة لأوراق التبغ، حيث تحافظ على طراوة وليونة الأنسجة وتقلل من جفافها.

لم يكن هناك حديث في المدينة إلا عن مرشحي الكانديدات، والولائم، وقادة المقاطعات، والحفلات الراقصة، والقضاة. في اليوم الثالث كان رئيس ديوان المقاطعة المدني في حيرة بشأن مُسوَّدة الخطاب. لقد أفسد دستة أوراق كاملة بلا فائدة ولم يكتب سوى: «السادة الكرام، نبلاء مقاطعة (ن. ن)»، وهنا كان يتوقف ويستغرق في الطريقة التي يجب أن يبدأ بها؛ هل يقول: «اسمحوا لي أن أكون في وسطكم من جديد»، أم الأفضل أن يقول: «يسعدني أن أكون في وسطكم»؟ وحينها قال لأكبر مساعديه:

- آه يا كوبريان فاسيليفيتش، أصعب قضية جنائية أسهل بسبعمائة مرة من الوصول لأفضل طريقة لكتابة هذه الخطبة.

- يجدر بسعادتك أن تسأل أنطون أنطونوفيتش عن «التراكيب المثالية». بقدر ما أتذكر هناك خطب جاهزة.

قال رئيس الديوان وقد ضرب على كتف مساعده بخوف وألم:

- فكرة ممتازة. رائع يا كوبريان فاسيليفيتش!

اعتقد رئيس الديوان أنه سيكون أمرًا مربكًا جدًّا لو سُمِّي امرأ مرة بالأب ومرة باسمه. في هذا المساء كتب بضعة أسطر مسترشدًا بخطبة الأمير خولمسكي من حكاية مارفا بورتسكايا لكارامزين[٨٥].

وسط هذه المشاغل الشاملة والصعبة توجه انتباه المدينة

---

(٨٥) أحد القادة الذين ناضلوا من أجل استقلال نوفوجورود عن موسكو والتقارب مع ليتوانيا، وفقدت ثروتها إثر هزيمتها في حرب نوفوجورود - موسكو ١٤٧٧ - ١٤٧٨. أما نيكولاي كارامزين فهو مؤرخ وروائي روسي.

المتوتر فجأة إلى شخصية مفاجئة تمامًا لا يعرفها أحد، ولم يكن أحد في انتظارها، ولا حتى الكورنيت درياجالوف الذي كان في انتظار الجميع. إنها شخصية لم يفكر فيها أحد، ولم يكن حضورها ضروريًا على الإطلاق وسط هذه العائلة الأبوية التي تضم صفوة شخصيات المجتمع؛ شخصية ظهرت كما لو أنها قد سقطت من السماء، بالرغم من أنها في واقع الأمر قد وصلت في مركبة إنجليزية رائعة. كانت هذه الشخصية هي سكرتير المقاطعة المتقاعد فلاديمير بتروفيتش بيلتوف الذي يتمم ما ينقصه من ألقاب بامتلاك ٣٠٠٠ نفس لملكيات غير مرهونة. كانت هذه الضيعة المعروفة بـ«بيلي بولي» (الحقل الأبيض) معروفة جيدًا للناخبين والمنتخبين على السواء، ولكن مالكها كان بمثابة شخصية أسطورية خرافية غامضة، حكوا عنها أحيانًا مختلف أنواع القصص الخيالية، كما يحكون قصصًا مماثلة عن البلاد البعيدة ككامتشاتكا[٨٦] وكاليفورنيا؛ قصص تتضمن أمورًا غريبة وغير محتملة الحدوث بالنسبة لنا. قالوا مثلًا منذ بضع سنوات عندما كان بيلتوف قد تخرج لتوِّه من الجامعة إنه سيتولى إحدى الوزارات، ثم قالوا إن بيلتوف اختلف معهم وقدم استقالته بالرغم من وجود نصير له. لم يُصدَّق ذلك. ثمة شخصيات في بعض المقاطعات كوَّن البعض عنها مفهومًا نهائيًا ومحددًا، حتى إن مناقشتهم أمر مستحيل، ولا يكون في وسعك - بل ويتوجب عليك - إلا أن تبدي لهم الاحترام. أيمكن أن يكون بيلتوف قد

---

(٨٦) منطقة بعيدة في أقصى شرق روسيا.

جرؤ على ذلك؟ ولكن هل كان يجلب على نفسه غضبًا عادلًا إذا خسر في لعب الورق أو ثمل أو أخذ من أحدهم ابنته، ولا أقصد هنا ابنة واحد بعينه، بل ابنة أي شخص؟ يقولون بعد ذلك إنه رحل إلى فرنسا. وقد أضاف الخبراء بالأمر سريعًا إلى ذلك أنه لن يعود أبدًا، وأنه ينتمي إلى المحفل الماسوني بباريس، وأن هذا المحفل قد عيَّنه قاضيًا ضميريًّا[٨٧] في أمريكا. علَّق الكثيرون على ذلك: «هذا مرجح جدًّا. منذ صغر سنه كان منبوذًا. يبدو أن أباه مات في العام الذي وُلِد فيه. أما الأم، فأنتم تعرفون أصلها جيدًا. إنها امرأة تافهة مهتاجة، والمعلم الذي تولى تدريسه معلم سيئ لا يحتاج إليه أحد». علاوة على ذلك وضَّح ما فات كيف أهمل إدارة أملاكه بالرغم من أن فلاحيه مشهورون بثرائهم ويرتدون الأحذية طويلة العنق. في النهاية لم يتحدثوا عنه لثلاثة أعوام، وفجأة ظهر أمام مجتمع مدينة (ن. ن) هذا الوجه الغريب، القاضي الذي من أعضاء المحفل الماسوني بباريس في أمريكا، الإنسان الذي يجب أن يُشهد عنه بأقصى درجات الاحترام، والذي رحل إلى فرنسا إلى الأبد. ظهر أمامهم كورقة شجر يبدو منظرها لافتًا على العشب، وقد جاء ليُرشِّح نفسه في الانتخابات. بدا كل ذلك غير مفهوم تمامًا لسكان (ن. ن). بدا الأمر غريبًا أن يفضل الخدمة بالمقاطعة عن الخدمة بالعاصمة. ثم: باريس وممثل من النبلاء للجمعية، و٣٠٠٠ نفس[٨٨] ورتبة سكرتير

(٨٧) إشارة إلى نوع من أنواع المحاكم الذي ظهر في روسيا في فترة مبكرة.

(٨٨) إشارة إلى امتلاكه ٣٠٠٠ قن.

المقاطعة... حسنًا، يبدو أن لديه إذن الكثير من الأعمال التي يمكن أن ينشغل بها، ولا يبدو أنه في حاجة إلى الانشغال بشؤون (ن. ن).

كان أقوى ذهن في المدينة هو بلا شك رئيس الديوان الجنائي، ولقد حسم جميع المسائل التي شغلت المجتمع بشكل قاطع، وكانوا يأتون إليه ليتشاوروا معه حول الأمور الأسرية. كان مثقفًا جدًّا، كما كان أديبًا وفيلسوفًا. كان لديه منافس وحيد؛ ألا وهو مفتش الإدارة الصحية الطبيب كروبوف، وكان ممثل الديوان الجنائي يرتبك أمامه بصورة ما. لكن سمعة كروبوف لم تكن واسعة إلى هذا القدر، خاصة بعد أن قالت إحدى سيدات الطبقة الأرستقراطية بالمقاطعة، من النوع شديد الحساسية الذي لا تقل ثقافته عن حساسيته في مناسبات كثيرة: «أنا أحترم سيميون إيفانوفيتش، ولكن هل يمكن لإنسان يستطيع النظر إلى الأجساد المائتة ويجسها بيديه أن يفهم قلب المرأة والمشاعر الرقيقة للنفس؟». وافقتها السيدات كافة على ذلك، وقررن جميعًا أن رئيس الديوان الجنائي، الذي ليست لديه مثل هذه العادات الضارية، هو وحده القادر على حسم المسائل الرقيقة التي تختلج في قلب المرأة، ناهيكم عن المسائل الأخرى كافة. غني عن القول أن الفكرة ذاتها خطرت على بال الجميع عندما ظهر بيلتوف: ما الذي سيقوله أنطون أنطونوفيتش عن وصوله؟ ولكن أنطون أنطونوفيتش لم يكن من النوع الذي يمكنك أن تقول له فجأة: «ما رأيك في ج. بيلتوف؟». إنه بعيد كل البعد عن ذلك، بل إنه لم يظهر لثلاثة أيام كما لو أنه متعمد (وفي الغالب كان متعمدًا

فعلًا) لا عند نائب الحاكم للعب الويست[٨٩]، ولا على طاولة الجنرال خرياشوف لشرب الشاي. أكثر الجميع فضولًا وأكثرهم إقدامًا، كان المستشار الوحيد في المدينة الحاصل على وسام القديسة آنا، والذي كان يستخدم وسامه ببراعة فائقة، بحيث إنه سواء جلس أم وقف كان بإمكان الجميع رؤية الوسام معلقًا عليه من كل زوايا الغرفة. قرَّر حامل وسام القديسة آنا هذا في يوم الأحد أن يعرج بعد زيارته لمنزل الحاكم (ولم يكن يستطيع ألا يزور منزل الحاكم في يوم الأحد) على الكاتدرائية لبرهة، وإذا لم يجد رئيس الديوان الجنائي هناك يذهب إليه مباشرة. بعروجه على الكاتدرائية سأل الملازم المسؤول: «هل يوجد هنا أي مزالج خاصة بالمسؤولين؟». أجابه الملازم: «لا، لا أحد هنا. لا بد أن سعادته لن يأتي لأني رأيت لتوِّي حوذيه بافنوشكا ذاهبًا إلى الحانة». بدت الملاحظة الأخيرة في غاية الأهمية للمستشار. قال في نفسه إن أنطون أنطونوفيتش لن يذهب إلى الكاتدرائية بجواد واحد، وأين هو نيكيشا ساعي البريد ليجلب له جواده؟! ما دام لن يتوجه إلى الكاتدرائية، فلأتوجه أنا إذن إلى رئيس المقاطعة.

نظرًا لأن رئيس الديوان الجنائي لم يكن في انتظار أي زيارات، جلس بثيابه المنزلية المؤلفة من سترة ما طويلة محبوكة، وسروال واسع، وحذاء ملبد في قدمه. لم يكن طويل القامة، لكنه عريض المنكبين، ذو رأس كبير (فالمخ القوي يحب أن يعيش في براح)، وعبَّرت سمات وجهه كافة عن نوع من الأهمية، وشيء من الاحتفالية، وإدراكه لمدى

(٨٩) لعبة ورق إنجليزية.

قوته. كان يتحدث عادة بطريقة مطولة وبتشديد على بعض المقاطع بالطريقة التي يتحدث بها رجل حسم تمامًا جميع المسائل، وجرؤ شخص ما على مقاطعته، فكان حينها يتوقف وينتظر برهة قصيرة، ثم يكرر مجددًا الكلمة الأخيرة بتشديد، مواصلًا عبارته بالروح والشخصية ذاتهما اللتين بدأ بهما. لم يكن يتحمل الاعتراضات، ولم يجد قَطُّ أي ضرورة للاستماع إليها ولا لأي شخص عمومًا سوى الطبيب كروبوف. لا تخطر على باله ضرورة الجدال مع أي شخص عداه، حتى لو اختلف معه الكثيرون. حتى حاكم المقاطعة، نظرًا لشعوره الداخلي بتفوق نائبه تمامًا عليه من حيث ملكاته العقلية، كان يتحدث عنه حديثه عن إنسان يتمتع بذكاء غير عادي، وكان يقول: «عذرًا، ليس له أن يكون رئيس الديوان الجنائي، بل شيئًا أكبر من ذلك. يا لها من أخبار! ستسمعون أفكاره، حينما يتحدث يبدو كماسيون[٩٠]. لقد فقد الكثير في العمل، بسبب تكريسه جزءًا كبيرًا من وقته للقراءة والعلوم». كان هذا السيد الذي فقد الكثير بسبب حبه للعلوم جالسًا مرتديًا سترته أمام مكتبه، بعد أن وقَّع محاضر عمل مختلفة موجِّهًا العدد اللازم من الضربات الموجعة ضد تجارة الخمر غير الشرعية[٩١] والتسول وما إلى ذلك. جفَّف قلمه ووضعه على الطاولة، وتناول كتابًا من على الرف غلافه مصنوع من

(٩٠) أسقف كاثوليكي فرنسي وواعظ شهير.

(٩١) احتكرت الدولة تجارة الخمر، ومن ثَم كانت هي المصدر الشرعي الوحيد لتوزيع الخمور في أنحاء روسيا. علينا أن نضع في اعتبارنا أيضًا المشكلات الضخمة التي كان تحدث بسبب سُكْر الفلاحين الذين كانوا ينفقون أحيانًا أموالهم البسيطة على الخمر وسط تركيبة من ضيق الأفق والفقر والجهل.

السختيان[٩٢]، وفتحه وبدأ يقرأ فيه. تدريجيًا ارتسم على وجهه شعور لطيف بالرضا يصعب التعبير عنه. لكن القراءة لم تستمر طويلًا، حيث ظهر في المشهد الحاصل على وسام القديسة آنا.

- آآه كم أزعجت سيدي! ذهبت لتهنئة رئيس المقاطعة، ولم أجد سيادتكم هناك يا أنطون أنطونوفيتش. لم تذهب بالأمس للعب الهويست، ولم أجد مركبتكم عند الكاتدرائية. أظن أن هذا منذ نحو ساعة، وقلت إنك يمكن أن تكون قد مرضت، فالجميع يمكن أن يمرضوا. ماذا أصابك؟ يا إلهي! لقد قلقت جدًّا.

- أشكرك من كل قلبي. أنا بخير حال حمدًا لله، ولا أشكو صحيًّا من شيء. تفضل اجلس أيها المستشار المبجل.

- آآه يا أنطون أنطونوفيتش! يبدو أني أزعجتك، فقد كنت منخرطًا في القراءة.

- لا عليك، لديَّ وقت للاستغراق في التفكير ووقت آخر للأصدقاء الرائعين.

- حسنًا يا أنطون أنطونوفيتش! بخصوص الكتب الجديدة أظن أنك تزودت ببعضها.

قاطع رئيس الديوان الجنائي المستشار بدبلوماسية قائلًا:

- لا أحب الكتب الجديدة، لا أحبها. أعيد الآن قراءة «دوشينكا»[٩٣]

---

(٩٢) جلد الماعز المدبوغ.

(٩٣) قصة للشاعر الروسي القديم إيوليت فيودوروفيتش بوجدانوف.

للمرة المائة، وأؤكد لك فعلًا أني لا أزال أقرأها بشعور جديد بالدهشة والمتعة. يا لخفتها وذكائها! حقًّا لم يُورِّث إبوليت فيودوروفيتش أحدًا موهبته من بعده.

وهنا بدأ رئيس الديوان الجنائي يقرأ:

«كراهية شريرة تحكم كل مكان، لها أعين كثيرة وتستطيع أن ترى ما يجري وراء الحجب. عبثًا حاولت ابنة القيصر أن تخفي الأمر عن أخواتها. مر يوم، والثاني، فالثالث، واستمر التظاهر كما لو أنها تنتظر زوجها فعلًا. لاحت القتامة على أوجه الأخوات، ولم يكشفن عما يدور في رؤوسهن من مكر ودهاء. كان بحسب أقوالهن مريعًا وشريرًا».

قاطعه المستشار بدوره:

- الكلمات هنا دقيقة تمامًا سعادتكم، كما يتحدثون هنا الآن بدقة أيضًا عن مسافر قد وطأ أرض مدينتنا، يتحدثون عن الصيد والقانون، وثرثرة أخرى كثيرة.

نظر رئيس الديوان الجنائي إليه بصرامة، وواصل قراءته كما لو أنه لم يرَ أو يسمع شيئًا:

«طبقًا لحديثهم كان مريعًا وسيئ الأخلاق. لقد عاشت دوشينكا فعلًا مع وحش. لقد نسيت في هذا الوقت النصائح المتعلقة بالتواضع. هل الذنب هنا يعود إلى أخواتها أم إلى القدر أم إلى المصير أم إلى دوشينكا ذاتها؟ كشفت لأخواتها بتحسر أنها لم تحب في زواجها سوى ظل، وكشفت لهن كيف وأين يأتي الظل لبرهة، وحكت لهن الأحداث

تفصيلًا. لكن أمرًا واحدًا لم تستطع أن تقوله لهن: من كان زوجها وما طبيعته؛ أهو ثعبان أم إله أم روح؟».

- هذه ليست مجرد كلمات فارغة، بل مكتوبة بكل قوة النفس والقلب. أنا - يا صديقي المستشار المبجل - لا أفهم هذه الكتب الجديدة، بداية من المدعو فاسيلي أندرييفيتش جوكوفسكي[٩٤]، ربما بسبب ضعف قدراتي أو عدم كفاية تعليمي.

قال المستشار الذي لم يقرأ شيئًا في حياته سوى قرارات إدارة المقاطعة الخاصة بقسمه فقط، وكان يعتبر نفسه ملزمًا بالتوقيع عليها حتى إذا لم يقرأها:

- كلامك صحيح بلا شك، ولذلك أفترض أن القادمين من العاصمة لا يفكرون بهذه الطريقة.

- وما لنا بهم؟ أعرف، أعرف جيدًا أن كل المنشورات التي تصدر الآن تثني على بوشكين. لقد قرأت بعضًا من أعماله. قصائد مصقولة ولكن لا أفكار فيها ولا مشاعر. بالنسبة لي عندما لا تنطلق القصيدة من هنا (وقصد أن يشير بيده إلى مكان القلب لكنه أشار خطأ إلى الجانب الأيمن) تكون محض ثرثرة.

أضاف المستشار الذي لم يستطع قَطُّ أن يملك زمام الحوار:

- أنا نفسي أعشق القراءة. لكن منذ فترة طويلة وأنا لا أجد وقتًا لها. في الصباح أنشغل بالأوراق الرسمية اللعينة. في الأوراق الرسمية نادرًا

(٩٤) شاعر ومترجم روسي شهير، يعتبر أحد مؤسسي مذهب الرومانسية في الأدب الروسي.

ما يكتب المرء شيئًا بقوة عقله وقلبه فعلًا، وفي المساء ألعب البسطن والهويست.

عارضه رئيس الديوان الجنائي مبتسمًا قائلًا:

- من يريد أن يقرأ لن يجلس للعب الورق كل مساء!

- طبعًا أنت محق. يُقال مثلًا عن بيلتوف هذا إنه لا يمسك ورق اللعب أبدًا، بل يقرأ دائمًا.

صمت رئيس الديوان.

- من المؤكد أنك سمعت عن وصوله، أليس كذلك؟

أجاب رئيس الديوان الفيلسوف باستخفاف:

- سمعت شيئًا عن أمر كهذا.

- يُقال إن ثقافته رهيبة. سيكون الأمر ملائمًا لسعادتكم. الحق يُقال إنه يستطيع التحدث حتى بالإيطالية.

عارض رئيس الديوان بشعور بالجدارة الذاتية قائلًا:

- أين نحن منه؟ أين نحن؟! لقد سمعت عن السيد بيلتوف، وعرفت أنه زار بلدانًا أجنبية، وعمل في وزارات مختلفة. أين نحن الدببة القروية منه؟! لم أتشرف بمعرفته شخصيًا، حيث إنه لم يزُرني.

- نعم سعادتكم، لكنه لم يكن هنا، والآن قد جاء منذ خمسة أيام بحسب ظني. ستبلغ مدة وصوله اليوم حينما يحين موعد الغداء خمسة أيام. لقد تغديت أنا ومكسيم إيفانوفيتش عند قائد الشرطة، وأتذكر الآن كيف أخذ ينشد: «سمعنا الأجراس عند بودين». أنت تعرف

بالطبع ضعف مكسيم إيفانوفيتش. لم يحتمل وأنشد: «أمي تقول إن فيرا فاسيليفنا تسامح»، واقترب من النافذة وصاح فجأة: «مركبة فخمة! يا لها من مركبة!». اقتربت أنا أيضًا من النافذة قائلًا في نفسي: ما هذه المركبة بحق السماء؟! وقالوا: «إنه بيلتوف من سان بطرسبرج».

بدأ رئيس الديوان بلهجة غامضة بعض الشيء:

– أقول لك بصراحة إن هذا السيد مثير للشكوك. إما إنه يبذر ماله أو إنه على علاقة بالشرطة، أو ربما هو نفسه مراقب من الشرطة. عذرًا، هل من المعقول أن يكلف نفسه وعثاء السفر تسعمائة فرست(٩٥) من أجل الانتخابات، بينما لديه ثلاثة آلاف نفس؟

– ليست هناك شكوك بالطبع. أعترف بأنني كنت لأدفع ما هو ثمين حتى تراه، ولو كنت رأيته لكنت قد عرفت حقيقة الأمر الآن. بالأمس تنزهت بعد الغداء – هذه أوامر سيميون إيفانوفيتش من أجل حالتي الصحية – ومررت بالقرب من الفندق مرتين. وفجأة خرج إلى الرواق أحد الشباب. قلت في نفسي إنه هو، وسألت خادم الحانة فقال لي: «إنه مستخدم الفندق». لاح في ثياب كثياب أخينا، وكان من المستحيل اكتشاف أن هذا الإنسان تـ... آه! يا إلهي! ثمة عربة توقفت عند مدخل منزلك.

أجاب رئيس الديوان الرواقي(٩٦):

---

(٩٥) مقياس روسي للطول يبلغ ١,٠٦٦٨ كيلومترًا.

(٩٦) هي مذهب فلسفي هِلِنستيٌّ أنشأه الفيلسوف اليوناني زينون السيشومي في أثينا ببدايات القرن الثالث قبل الميلاد. الوصف هنا يشير إلى التأمل والسكون والثبات الانفعالي، والمقصود به السخرية بالطبع.

- وما الغريب في ذلك؟ الكثير من الأصدقاء الطيبين يزورونني.

- نعم سعادتكم، ولكن ربما يكون...

في هذه اللحظة دخلت الغرفة خادمة سمينة متوردة الوجنتين ترتدي ثوبًا أزرق، وقالت:

- وصل سيد ما في عربة. لم أرَه سابقًا. هل نستقبله؟

- ائتِني بالمبذل وادعيه!

في هذا الوقت لاح على وجهه شيء يشبه ابتسامة، بينما كان يرتدي مبذله الحريري بلون ظهر الضفدع. نهض المستشار من مقعده يعتريه اضطراب قوي.

دخل إنسان في نحو الثلاثين من عمره، بثياب رائعة وبسيطة في الآن ذاته، وانحنى لسيد البيت باحترام. كان رشيقًا نحيلًا، ويبدو على وجهه كأنما اجتمعت النظرة السمحة بشفتين ساخرتين؛ تعبير إنسان محترم وتعبير إنسان مهذار، آثار استغراق في أفكار طويلة وحزينة، وآثار شهوانية يبدو أنها لم يُكبح جماحها. لم يفقد رئيس الديوان رباطة جأشه، ونهض من كرسيه وبدا في وضعه كأنه ذاهب للقاء أحد.

- أنا مالك الأرض المحلي بيلتوف، وصلت إلى هنا من أجل الانتخابات، ورأيت أن من واجبي أن أتعرف إلى سيادتكم.

- أنا سعيد جدًّا، سعيد جدًّا، وأطلب منك بكل تواضع أن تجلس رجاء أيها السيد الكريم.

جلس الجميع.

- هل وصلت منذ فترة طويلة؟

- منذ خمسة أيام.

- من أين جئت؟

- من سان بطرسبرج.

- لكنك بعد أن فارقت ضجيج العاصمة ستشعر بالملل هنا من رتابة حياة مدينة إقليمية صغيرة.

- لا أعرف، لكني صدقًا لا أعتقد ذلك. كنت أشعر بالملل في المدن الكبيرة.

فلنترك رئيس الديوان والمستشار الذي لم يشعر بهذه الفرحة قَطُّ منذ أن نال وسام القديسة آنا إلا الآن. فلنتركهما لبضع دقائق أو لبضع صفحات. لقد استولى الوافد الجديد على قلبه وعقله وعينيه وأذنيه تمامًا. لقد رصد فيه كل شيء، بل إنه انتبه حتى لأن هذا الوافد لم يربط أزرار سترته حتى الزر الأخير، وأن ثمة سنة مخلوعة في الفك السفلي ناحية اليمين، وتفاصيل أخرى من هذا القبيل. سنتركهما وسوف ننشغل بهذا الوافد الجديد كما انشغلت مدينة (ن. ن) بصورة استثنائية به.



-٦-

نعرف بالفعل أن والد بيلتوف مات بعد ولادته بفترة قصيرة، وأن والدته كانت مهتاجة، واتُّهِمت بأنها هي سبب سوء سلوك بيلتوف. ولكن لسوء الحظ يستحيل أن نوافق على أنها أحد الأسباب الرئيسة في كل الإخفاقات التي مرت بها حياة ابنها العملية. إن قصة حياة هذه المرأة في حد ذاتها مدهشة. لقد وُلدت كفلاحة، وفي الخامسة من عمرها أخذوها إلى الخدمة. كانت لسيدتها ابنتان وزوج. أدار الزوج عدة مصانع وأجرى تجارب زراعية انتهت بأن اضطر إلى رهن الضيعة لصالح أحد دور الأيتام. من المحتمل أنه مات بعد أن شعر بأنه قد أوفى بمهمته الاقتصادية للعالم. بكت الزوجة، ظلت تبكي، وفي النهاية جفت دموعها بشجاعة إنسان عظيم أقدم على إصلاح أمور الضيعة. وحده عقل المرأة وقلب الأم الرقيقة الراغبان في توفير دوطة جيدة لبناتها، يمكنهما أن يتوصلا إلى مختلف أنواع الوسائل الممكنة التي يمكن استغلالها لتحقيق الهدف. لم تخجل من تجفيف الفطر والتوت والخداع في وزن السمن وتقليم بساتين الغرباء وبيع الرجال للتجنيد. لقد فعلت كل ما يمكن فعله (كان هذا منذ زمن طويل، وما يندر حدوثه

الآن كان حينها بمثابة عادة بالنسبة لها). الحق أننا يجب أن نضيف أيضًا إلى ذلك أن مالكة الأرض بقرية زاسيكينا استغلت تمامًا سمعة أمها التي لم تكن تشوبها شائبة. وجدت بين أوراق زوجها الراحل، الباحث الزراعي، سندًا أعطته إياه مالكة إحدى المدارس الداخلية بموسكو وقد وقَّعت عليه. لكن عندما وجدت أن نيل مال منها سيكون صعبًا، أقنعتها بأن تأخذ ثلاث أو أربع فتيات من بنات أقنانها بحيث تصنع منهن مربيات لبناتها أو لبنات غيرها. في غضون عدة سنوات عادت المربيات إلى سيدتهن وقد نلن شهادة كبيرة مكتوبًا فيها أنهن يعرفن قانون الله جيدًا، ويُجدن علم الرياضيات والتاريخ الروسي القديم والحديث بصورة عامة، كما يُجدن اللغة الفرنسية... إلخ. كما نلن الوسام الذهبي تقديرًا على دورهن في مسرحية «بول وفيرجينيا»[٩٧]. أمرت السيدة بتجهيز غرفة مخصصة لهن، وانتظرت الفرصة الملائمة لإرسالهن للعمل. كانت عمة والد صديقنا بيلتوف تبحث في هذه الفترة تحديدًا عن مربية لبناتها، وبعد أن عرفت أن جارتها لديها مثل هؤلاء المربيات توجهت إليها، وتفاوضتا على السعر وتجادلتا وغضبتا وتفرقتا، وفي النهاية اتفقتا. سمحت السيدة للعمة بأن تختار أي واحدة منهن، ووقع الاختيار على الأم المستقبلية لبطلنا. في غضون عامين أو ثلاثة وصل والد فلاديمير إلى القرية. كان حينها لم يزل شابًّا، منحلًا، مُقبلًا على لعب الورق، متقاعدًا، صيادًا مُقبلًا على شرب الخمر، يمضي بصحبة سلاحه ويُظهِر جرأة لا ضرورة لها، ويغازل جميع النساء الأصغر من ثلاثين

---

(٩٧) رواية للفرنسي برناردين دي سان بيير.

عامًا، واللاتي لا تشوب جمال وجوههن شائبة. مع كل ذلك يستحيل القول إنه كان إنسانًا ضائعًا تمامًا، فقد جلبت له الخيلاء والثراء ونقص الثقافة والصحبة السيئة «كمية معتبرة من الوحل» على حد تعبير أحد معارفي، ولكن يُحسب له في الآن ذاته أن هذا الوحل لم يغطِّه تمامًا. نادرًا ما كان بيلتوف ينشغل بشيء، ولذلك كان يزور عمته كثيرًا. كانت ضيعته على بُعد خمسة فرست من ضيعة عمته. انجذب لصوفي، وهو الاسم الذي أطلقوه على المربية. كانت حينها في العشرين من عمرها، طويلة القامة، ذات شعر وعينين داكنتين بعقصة شعر شبابية مائلة. التفكير طويلًا يبدو لبيلتوف أمرًا سخيفًا. بعكس عمته لم يُجرِ استفسارات طويلة عن الأمر، بل ما إن بقي في غرفة واحدة معها بمفردها حتى أحاط خصرها وعانقها وقبّلها، ودعاها بإصرار لأن تأتيه في الحديقة مساءً. أفلتت من بين يديه، وأرادت أن تصرخ، ولكن الشعور بالخجل والخوف من الفضيحة حالا بينها وبين ذلك. اندفعت مباشرة إلى غرفتها، وقاست حينها للمرة الأولى كل أبعاد هذا الوضع الملتبس الذي وجدت نفسها فيه. إثر غضبه من رفضها بدأ بيلتوف في مطاردتها بحبه، وحاول أن يعطيها خاتمًا ماسيًّا، لكنها رفضته، ووعدها بأن يعطيها ساعة فخمة لم تكن لديه، ولم يستطع أن يتساءل عن سبب عدم إمكانية بلوغه لهذه الفاتنة. تملكته الغيرة لكنه لم يستطع أن يصل إليها. في نهاية الأمر لجأ بيلتوف المتكدر إلى إطلاق التهديدات والسباب، ولكن هذا لم يُجدِ أيضًا. حينها خطرت على ذهنه فكرة مختلفة؛ أن يعرض على عمته مالًا مقابل أن تترك له صوفي. كان على يقين أن الجشع سوف

يغلب عفتها الظاهرية، ولكن بوصفه إنسانًا يسلك بتهور دائمًا لمَّح للفتاة البائسة بما ينتويه، ولا شك أن ذلك أخافها أكثر من أي شيء آخر، ومن ثَم اندفعت صوب قدمَي سيدتها، ذارفة الدموع، وحكت لها كل شيء، وتوسلت إليها أن تسمح لها بالسفر إلى بطرسبرج. لا أعرف كيف حدث ذلك، لكن ربما مرد الأمر إلى أنها فاجأت سيدتها. ونظرًا لأن سيدتها لم تكن تعرف قاعدة تاليران[٩٨]: «لا تتبع أبدًا صوت قلبك الأول لأنه يكون جيدًا دائمًا»، تأثرت بمصيرها وعرضت السيدة عليها أن تتركها لتنعم بإجازة مقابل أن تدفع المربية لسيدتها مبلغًا بسيطًا يُقدَّر بألفي روبل. قالت لها: «هل يجب عليَّ أن أتحمل بنفسي كل المال الخاص بنفقات طعامكِ وثيابكِ منذ أن جئتِ إلى هنا؟ حسنًا، بالإضافة إلى ذلك يتوجب عليكِ أن تدفعي أيضًا رسمًا بسيطًا يُقدَّر بـ١٢٠ روبلًا، وسوف آمر بلاتوشكا أن يعد لكِ جواز سفر. صحيح أنه أحمق ويفسد كل شيء، ولكن ما البديل؟ الورقة المختومة بشمار النبالة غالية اليوم». وافقت صوفي على كل ذلك، وشكرت سيدتها والدموع تنهمر من عينيها، وهدأت قليلًا. في غضون أسبوع كان بلاتوشكا قد أعد لها جواز سفر، ولاحظ أن وجهها يبدو عاديًّا، وكذلك أنفها، وقامتها متوسطة، وفمها معتدل، وأن لا شيء فيها يبدو لافتًا سوى قدرتها على التحدث بالفرنسية. في غضون شهر كانت صوفي قد أقنعت زوجة مدير الضيعة المجاورة التي كانت سوف تسافر إلى بطرسبرج أن تضع مالًا في مكتب الرهونات لصالح الابن الذي يدرس في الجيمنازيا، وأن تأخذها معها

(٩٨) سياسي ودبلوماسي وقائد عسكري فرنسي.

إلى بطرسبرج. كانت المركبة مُحمَّلة عن آخرها بالفطر والمربى والعسل والمنقوع والفاكهة المجففة التي ستُرسل كهدية، ولم تترك زوجة مدير الضيعة المجاورة مكانًا في العربة إلا لنفسها. استقرت صوفي في أحد الدلاء؛ الأمر الذي ظل يُذكِّرها طوال ٩٠٠ فرست بأنها لم تُصنع من زغب بجعة ما. كان طالب الجيمنازيا جالسًا فوق الماعز. كان طويلًا ونحيفًا، يبلغ أربعة عشر عامًا، يدخن نوعًا من التبغ، وكان أكثر نضجًا مما يبدو. ظل طوال الطريق يغازل صوفي، ولو كان قد استطاع الإفلات قليلًا من مراقبة أمه له لفاق بيلتوف فيما فعله بصوفي. على ذكر الأمر، حاول بيلتوف أن يخطف صوفي عندما انتقلت من منزل عمته إلى زوجة مدير الضيعة، وكان من الممكن أن ينجح في ذلك لو لا أن الحوذي كان ثملًا وضل الطريق. في ظل ما شعر به من حزن، ومع شعوره بالدفقة الأولى لمرارة النبيذ الذي يتجرعه وسط بقية رفاقه في أثناء لعب الورق، حكى بيلتوف حكاية مختلفة تمامًا عن حقيقة ما حدث. حكى أن عمته غيورة مثلها مثل جميع العجائز، ومن ثَم أبعدت صوفي التي غرقت في غرامه حتى أذنيها. إلا أن جانبًا منه كان سعيدًا بأنها رحلت وأخذت معها كل ما كان يلفت انتباهه. من المعروف أنه من وسط بدو أوروبا ثمة فئتان لا تعيشان حياة مستقرة أبدًا؛ ألا وهما الغجر ولاعبو الورق، ولذلك لا يوجد أي شيء غريب في حقيقة أن أحد المستمعين لبيلتوف سافر إلى بطرسبرج بعد عدة أيام، وأنه صار على صلة وثيقة جدًّا بسيدة فرنسية تُدعى جوكور، صاحبة إحدى المدارس الداخلية. كانت جوكور؛ المرأة التي لا تتخطى الأربعين في

كل عام، والتي كانت ترتدي فستانًا ذا ياقتين مرتفعتين من فرط حيائها، صارمة جدًّا تجاه أخلاقيات المحيطين بها، وكانت تتحدث عن هذا وذاك، وتحكي لصديقها عن استئجارها سيدة راقية تبدو إنسانة غير عادية، كانت تعمل لدى إحدى سيدات مدينة (ن. ن)، كما يمكنها أن تتحدث الفرنسية بروعة. انفجر الصديق الرحالة في الضحك قائلًا: «آه! معرفة قديمة! هذا رائع! هذا ممتاز! هههههه. عذرًا، لكنني رأيتها ألف مرة عند بيلتوف حيث كانت تذهب إليه ليلًا بعدما كانت عمته تغرق في النوم». ثم حذَّر السيدة جوكور من صوفي حفاظًا على سمعة منزلها. ارتعبت جوكور وصرخت: «يا للانحلال الذي يملأ هذا البلد البربري!» (بالفرنسية في الأصل - المترجم)، ونسيت من فرط غضبها كل شيء في العالم، حتى ما يتعلق بأن الفلاحة المستأجرة في زاوية شارعهم قد ربَّت لتوِّها ابنين؛ واحد منهما يشبه جوكور، والثاني يشبه صديقنا الرحالة. أرادت بغضب أن تُنهي الفصل ربع السنوي ثم تذهب إلى القنصل الفرنسي، ولكنها فكرت في الأمر مليًّا، ورأت أنه لا لزوم لفعل ذلك، وأنه يكفيها ببساطة أن تطرد صوفي من المنزل بأشد الطرق فجاجة، وأن تنسى منحها ما تستحقه من مال وسط عجلتها. حكت جوكور لثلاث من صديقاتها من المشرفات على مدارس داخلية مثلها هذه القصة المريعة، وحكت صديقاتها القصة لبقية المشرفات على مدارس داخلية في سان بطرسبرج بأكملها. أينما توجهت الفتاة البائسة كانوا يشيرون لها إلى الباب ويطردونها. حاولت البحث عن عمل بمكان خاص، ولكن أين لها أن تجد مثل هذه الفرصة وليس لديها

معارف؟ استطاعت أن تجد فرصة فعلًا خارج بطرسبرج، ومربحة كفاية لها، ولكن الأم أنهت كل شيء معها بعد أن توجهت للسيدة جوكور لتستعلم عنها، وشكرت العناية الإلهية التي أنقذت ابنتها من مربية كهذه. تبقَّى مع صوفي في هذا الوقت ٣٥ روبلًا، ولم تتبقَّ لديها أي آمال. الشقة التي استأجرتها كانت مكلفة للغاية، وبعد أن ظلت تبحث طويلًا انتقلت في النهاية إلى الطابق الخامس - إذا لم يكن السادس - في بناية ضخمة في آخر شارع جوروخوفايا، مليئة بتجمع من الأوغاد. بدا المنظر بسبب الفناءين القذرين كأنه قاع بحيرة لم تجف تمامًا بعد، وكان على المرء أن يمضي صوب باب صغير لا تمكن رؤيته إلا بصعوبة وسط هذا الجدار الضخم. يؤدي هذا الباب إلى درجات رطبة قاتمة حجرية متهشمة، إنه سلم لا نهائي يؤدي في كل طابق إلى بابين أو ثلاثة، وفي قمة السلم؛ أي عند السماء الفنلندية - على حد تعبير الفكاهات البطرسبرجية الشهيرة - استأجرت امرأة ألمانية عجوز أصاب الشلل قدميها شقة، وهي في حالة شبه ميتة مستلقية عند الموقد منذ أربعة أعوام، تحوك الجوارب طوال أيام الأسبوع، وتقرأ ترجمة لوثر[٩٩] للكتاب المقدس في أيام الأعياد. تكونت الشقة من ثلاث غرف صغيرة، وبدا وجود غرفتين أخريين للألمانية الفقيرة ترفًا شديدًا، ومن ثَم أجَّرت الغرفتين إلى جانب النافذة التي ارتفع منها جدار مائل من الطوب غير المدهون بمقدار نصف أرشين[١٠٠] لمنزل آخر. اتفقت صوفي مع

(٩٩) مارتن لوثر: راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران.

(١٠٠) مقياس طول روسي يقدر بـ٧١ سم.

الألمانية واستأجرت هذه الغرفة. كانت غرفة قذرة، سخامية، رطبة، يملأها الدخان، وكان الباب يفتح على ممر بارد يزحف فيه بعض الأطفال البائسين، يرتدون أسمالًا ويبدون شاحبين بأعين منتفخة كملك الجان. امتلأ المكان من حولهم بالحرفيين السكارى. أفضل شقة بالطابق استأجرها بعض الحائكين، ولم يكونوا يظهرون قَطُّ؛ على الأقل نهارًا، حيث كان من الملاحظ أنهم يعملون. لكن كان واضحًا من طريقة حياتهم أنهم بعيدون عن التطرف، حيث كانت الطاهية التي تحيا معهم تركض كل يوم خمس مرات تقريبًا ثملة، ممسكة بإبريق ذي طرف مكسور. باءت كل المحاولات بالعثور على مكان آخر بالفشل. سألت صوفي امرأة لطيفة من أجلها، وأزعجت المرأة الوحيدة من بلدها التي تعرفها وتعيش معها كي تتحقق من وجود أي فرصة عمل كمربية لأطفال أي شخص، ووعدتها مواطنتها بأن تتحقق من أجلها لكنها لم تجد شيئًا. قررت صوفي أن تلجأ إلى الحل الأخير. بدأت تبحث عن فرصة عمل كخادمة، ووجدت فعلًا فرصة. اتفقتا على السعر، ولكن ما إن رأت السيدة وجود علامة خاصة في جواز سفرها حتى قالت لها: «لا يا عزيزتي، لا أريد خادمة تتحدث الفرنسية». قَبِلت صوفي أن تحوك ثيابًا كتانية. كانت رئيستها في الحياكة راضية تمامًا عن عملها، ودفعت لها كل ما اتفقتا عليه تقريبًا، كما دعتها لشرب الشاي عندها وكانت تستمتع بدلًا منه بشرب الجعة الوردية. دعت الفتاة الفقيرة كثيرًا للانتقال إليها، ولكن شعورًا داخليًّا بالهلع منع صوفي عن ذلك، ومن ثَم رفضت. أساء ذلك كثيرًا لرئيستها، وأغلقت بابها بكبرياء عندما غادرت صوفي،

وقالت لها: «ستأتين بنفسكِ راكعة. يا لها من أميرة مهمة! لدينا امرأة ألمانية من ريجا[١٠١] تعيش مثلكِ». في المساء تحدثت رئيستها في العمل بسخرية حادة عن الفتاة الفقيرة لمفتش الشرطة الذي كان يأتيها أحيانًا في المساء ليستريح بصحبتها الممتعة من عناء العمل اليومي، وأثار أمرها اهتمامه، حتى إنه توجَّه إلى شقة المرأة الألمانية مباشرة وسألها عنها:

- حسنًا يا سيدتي، كيف يمكنكِ العيش هكذا؟ ألم يحن الوقت لتنهضي على قدميكِ؟

ارتدت المرأة الألمانية قبعتها الموجودة بجانبها لحالات الطوارئ، على عجل، وأجابت:

- كل شيء بأمر الله.

- ولكن أين هذه الفتاة المدعوة صوفيا نيمتشينوفا؟

أجابت صوفي:

- إنها هنا.

- أين تعلمتِ الفرنسية؟ ها؟ لا بد على البغي المحتالة أن تجيد الفرنسية، أليس كذلك؟

صمتت صوفي.

- لا يمكنكِ التحدث بالفرنسية، أليس كذلك؟ قولي شيئًا إذن.

(١٠١) عاصمة لاتفيا وكبرى مدنها.

صمتت صوفي، وامتلأت عيناها بالدموع.

- هل تظنين يا سيدتي[١٠٢] أنها تستطيع؟

- جيت جدن[١٠٣]!

- ربما تستطيع التحدث بالفرنسية كما تستطيع أن تقرفص. أليس عندكِ شيء لأشربه؟ أنا عطش جدًّا.

أجابت الألمانية:

- لا.

- أمر سيئ! أهذه التفاحة لكِ؟ (جلبت هذه التفاحة عجوز ألمانية صديقة لها، وقد أبقت عليها المرأة الألمانية لتأكلها في أثناء قراءتها لترجمة لوثر للكتاب المقدس في يوم الأحد).

أجابت الألمانية:

- إنها لي.

- ولكن أحدهم عضها. يبدو أن الفرنسية أكلت منها خلسة.

قال مفتش الشرطة ذلك من دون أن يلحق أي ضرر بهما، وفي ظل شعوره بالرضا عن نفسه من جراء ذلك توجه إلى الحائكين في الشقة المقابلة بعد أن أخذ التفاحة.

مرت الأيام مؤلمة مريعة. انطفأت الفتاة البائسة وسط هذه القذارة، وقد أساء إليها الجميع وأهانوها. لو لم تكن راقية هكذا لتدبرت أمرها

---

(١٠٢) في مخاطبته للمرأة الألمانية يقول لها: فراو، أي سيدة بالألمانية.

(١٠٣) تنطق المرأة الألمانية الروسية بشكل سيئ.

بطريقة ما، ولكن طريقة نشأتها كشفت كم هي لطيفة ورقيقة، وأن كل شيء من حولها له تأثير عليها أقوى عشرة أضعاف من تأثيره على غيرها. مرت عليها لحظات من الضعف وتخدر القوى، كان من الممكن أن تسقط فيها سقوطًا شديدًا، لو لم تكن محمية من هذا الانغماس في الوحل المبتذل الذي أظهر هذه الرذيلة. مرت عليها لحظات فكرت فيها في تناول سم، وأرادت أن تقتل نفسها حتى تخرج من هذا الوضع الذي لا يبدو له مخرج. لقد كانت في درجة من اليأس لم تكن قادرة فيها على توجيه أي لوم لنفسها. مرت عليها لحظات أيضًا امتلأ فيها قلبها بالضغينة والكراهية، وفي واحدة من هذه اللحظات أمسكت بالقلم من دون أن تدرك ماذا تفعل وماذا تكتب، وكتبت خطابًا لبيلتوف، وهذا نصه:

«لا أريد أن أمنع نفسي أكثر من ذلك. أكتب إليك، أكتب إليك لربما أحظى بآخر فرحة في حياتي؛ فرحة أن أُعبِّر لك عن مدى ازدرائي لك. سوف أدفع عن طيب خاطري آخر كوبيكات تبقت لديَّ؛ الكوبيكات المخصصة لشراء الخبز، لأرسل لك هذا الخطاب. سوف أعيش على فكرة أنك ستقرأه. كشفت لي أفعالك معي في منزل عمتك مدى الحقارة الأخلاقية التي تتمتع بها، والانحلال المفزع الذي فيك. كنت أعذرك أنا أيضًا – بسبب قلة خبرتي – بسبب تربيتك السيئة والوسط الذي قضيت حياتك فيه. كنت أعذرك وأقول في نفسي إن وضعي الغريب هو الذي أثار كل هذا في داخلك. لكن الوشاية التي عرَّضتني لها؛ تلك الوشاية القذرة الحقيرة، كشفت لي مدى دناءتك، ولا أقول كراهيتك،

بل دناءتك. تحديدًا. لقد قرَّرتَ بدافع الانتقام وحب الذات الحقير أن تُدمِّر فتاة مسالمة وتفتري عليها بالأكاذيب. ولماذا كل ذلك؟ هل كنت تحبني فعلًا؟ اسأل ضميرك! ابتهِج، لقد نجحت! رفيقك لطخ سمعتي وطردوني، وهم ينظرون الآن إليَّ بازدراء، وتوجب على أذني أن تستمع إلى إساءات مريعة، وأخيرًا ها أنا من دون كسرة خبز. لذلك عليك أن تعرف كم أزدريك لأنك شخص حقير تافه. اسمع هذه الكلمات من خادمة عمتك. كم يسرني التفكير في الضغينة العاجزة والسعار اللذين ستقرأ بهما هذه السطور! إنك تشتهر بأنك شخص لائق، لكن ربما كنت ستطلق رصاصة في الجبهة لو قال أحدهم لك هذه الكلمات».

أما بيلتوف الذي كان قد خسر ماله في لعب الورق، كان مستلقيًا بانزعاج على الأريكة والشاي أمامه عندما أحضروا له خطاب صوفي. لم يكن يعرف ماذا فعلته يداه، ومن ثَم لم يُخمِّن الأمر من العنوان، وفض الخطاب بهدوء شديد. مع قراءة السطر الأول بدأت يداه ترتعشان، لكنه أكمل قراءة الخطاب بهدوء، ثم نهض ووضعه بعناية، ثم جلس على المقعد مميلًا رأسه إلى النافذة. ظل جالسًا في هذه الوضعية لمدة ساعتين. ظل الشاي كما هو على الطاولة من دون أن يرشف منه شيئًا. كان غليونه قد انطفأ منذ فترة طويلة، ولكنه لم ينادِ الخادمة القوزاقية. عندما استعاد نفسه مجددًا بدا له أنه يعاني من مرض عضال طويل الأمد؛ لقد شعر بالضعف في قدميه، وشعر أيضًا بالإنهاك وبضجيج في أذنيه، ومرَّر يديه مرتين بالقرب من رأسه كما لو أنه يتلمس طريقه. شعر بالبرودة، وكان شاحبًا كالكتان، وذهب إلى غرفة نومه، وارتمى

على الأريكة بكامل ثيابه. بعد ساعة استدعى الخدم، وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس كانت العربة ترتج على طول الطريق بالقرب من الطاحونة، وأربعة خيول قوية تجرها أعلى التل. خرج الطحَّانون لينظروا، وتساءلوا: «إلى أين يمضي سيدنا؟». أجاب واحد منهم: «يقولون إنه ماضٍ إلى بطرسبرج». وفي غضون نصف عام رأوا العربة ذاتها تعود على الجسر ذاته، وفي تلك المرة عاد السيد وبصحبته سيدة. قال الكاهن القروي الذي مضى ليهنئ بيلتوف بوصوله وعودته إلى منزله لزوجته بأعظم درجات التعجب:

- أتعرفين من هي السيدة؟ إنها تلك المعلمة التي كانت تعمل لدى فيرا فاسيليفنا؛ الفتاة التي أتت من عند السيدة من قرية زاسينكا. غريبة جدًّا أفعالكم أيها السادة!

- ماذا؟ أتقسم على ذلك؟

- لا، لا أريد أن أقسم أيتها الثرثارة!

ظلت عمة بيلتوف غاضبة منه ليومين بسبب المربية، ولم تستطع طوال حياتها أن تنسى تلك الزيجة الشنيعة لابن أخيها، وماتت مبعدة إياه عن أنظارها. كانت تقول كثيرًا إنها كانت من الممكن أن تحيا مائة عام لولا هذا الحادث المؤسف الذي حرمها من النوم وأفقدها شهيتها. يبدو أن هذه هي حال قلب المرأة. حتى عمة بيلتوف نفسها لم تستطع أن تتخلص من هذه التجربة المريعة التي تحملتها قبل الزواج. ثمة طبائع رقيقة ومرهفة لا يمكن للحزن أن يكسرها بسبب رقتها ورهافتها تحديدًا. إنها تتجاوزه لكنها تتشوه بسببه، وتضم بين طياتها نتاج تجربة عميقة

مريعة، حتى إنها لا تستطيع أن تفصل نفسها عن تأثيره طوال حياتها. تظل الخبرة المكتسبة بفضل المعاناة باقية كمادة شريرة تجري في الدم؛ في الحياة ذاتها، تتوارى أحيانًا وتظهر في أحيان أخرى بقوة مريعة تحطم الجسم. هكذا كانت طبيعة عمة بيلتوف تحديدًا؛ لم يتمكن حب زوجها لها ولا تأثيره النافع والواضح أن ينتزعا من نفسها ذلك الجوهر المر. لقد كانت تخشى الناس، مستغرقة في التفكير دائمًا، مسعورة، منكفئة على ذاتها، ناحلة، شاحبة، شكاكة، تخشى كل شيء، تحب البكاء وتجلس صامتة لساعات طويلة في الشرفة. بمرور ثلاثة أعوام أصيب بيلتوف بنزلة برد، وفي اليوم الخامس مات. جسده الذي أنهكته حياته الماضية لم يتمتع بالقوى الكافية ليقهر الحمى، ومات بيلتوف وهو فاقد الوعي. كانت صوفي قد أنجبت منه صبيًا صار حين موته في الثانية. نظر إليه نظرة ضارية، فمد الطفل الخائف يديه خوفًا وهرع إلى الغرفة الأخرى. أثَّرت هذه الضربة بشدة على زوجة بيلتوف. كانت تحب هذا الإنسان بسبب الندم الشديد الذي شعر به. لقد تبينت طبيعته النبيلة وسط الوحل المحيط بها، ووسط كل ما علق بها. لقد قدَّرت التحول الذي طرأ عليه، بل إنها حتى أحبت هذه التفجرات العربيدية العاصفة التي كانت تعاوده أحيانًا، والتصرفات الجامحة الفاسدة.

بعد موت زوجها تركزت جهود بيلتوفا[١٠٤] بكل حدة طبعها المريض على تربية ابنها. إذا نام نومًا سيئًا ليلًا لا يمكنها هي أيضًا أن تنام، وإذا لم يبدُ بصحة جيدة، تمرض هي الأخرى؛ باختصار لقد عاشت

(١٠٤) تُنسب الزوجة إلى زوجها، ومن ثَم صار اسم صوفي: بيلتوفا.

وتنفست به، وصارت له مربية ومرضعة وسريرًا هزازًا وجوادًا. لكن هذا الحب المرضي لابنها امتزج بالجوهر الأسود الكامن في نفسها. ظلت فكرة فقدانها لابنها تتجسد دائمًا في أحلامها. كان يحدث كثيرًا أن تنظر بيأس إلى طفلها النائم، وإذا كان هادئًا تمد يدها المرتجفة صوب شفتيه. لكن بالرغم من الصوت الداخلي للأم - كما كانت تُسمِّي رؤاها المرضية - نما الطفل، وإذا لم يكن من الممكن وصفه بأنه في تمام الصحة، فعلى الأقل لم يكن مريضًا. لم تفارق ضيعتها ببيلي بولي، وكان الصبي وحيدًا تمامًا مثلما هي الحال مع كل ابن وحيد. إلا أنه بالإضافة إلى التأثيرات الخارجية لاحت على الطفل بوضوح لا شك فيه بوادر شخصية ذات قدرات نادرة وحيوية شديدة. ثم حان وقت الدراسة. اصطحبت بيلتوفا ابنها إلى موسكو بهدف أن تجد معلمًا خاصًا له. كان هناك عم لزوجها عاش في موسكو، وهو رجل مبدع ذو مقدرات كبيرة، مكروه من جميع أقاربه تقريبًا، وهو أعزب، متقلب المزاج، شديد الذكاء، كسول، وفي حقيقة الأمر يمكن تحمله بسبب أصالة شخصيته.

لا أستطيع هنا منع نفسي من قول بعض الكلمات عن هذه الشخصية غريبة الأطوار. تجذبني بشدة سير جميع الشخصيات التي ألتقي بها. يبدو الأمر كما لو أن حياة الناس العاديين متماثلة، لكن هذا ما يبدو ظاهريًا وحسب؛ فليس هناك في العالم ما هو أكثر أصالة وتنوعًا من حياة الشخصيات غير المعروفة، خاصة حينما لا تكون هناك شخصيتان متصلتان بعضهما ببعض، وحينما يتطور كل شاب بطريقته الخاصة من دون أي أفكار سابقة، ويترك نفسه لأفكاره تقوده حيثما يشاء. لو كان

الأمر بيدي لأعددت قاموسًا لسير الشخصيات، مرتبًا أبجديًا يشمل الشخصيات كافة، ولنبدأ مثلًا بأصحاب اللحى. إذا نشدنا الاختصار يمكننا أن ننشر السير الذاتية للعلماء والأدباء والفنانين والمحاربين ورجال الدولة؛ بشكل عام المهتمون بالمصالح العامة. سنجد أن حياتهم متماثلة ومملة: نجاحات ومواهب واضطهادات وتصفيق وحياة مكتبية أو حياة خارج المنزل، والموت قابع في منتصف الطريق، والفقر في الشيخوخة، ولا شيء خاص بهم على وجه التحديد، بل ينتمي كل شيء إلى الحقبة التاريخية التي يعيشون فيها. لهذا لا أتجنب أبدًا هذه الاستطرادات المتعلقة بسرد السير الذاتية لشخوص الحكاية، لأنها تكشف مدى ثراء الخليقة. يمكن لمن يشاء أن يتجنب هذه الفصول، لكنه سيفوِّت الرواية ذاتها في الآن ذاته. هكذا حان وقت سرد سيرة العم.

والده مالك أرض سهبية، تظاهر طوال عمره بالإفلاس. سار طوال حياته مرتديًا معطفًا من صوف الخرفان[١٠٥]، وكان يذهب بنفسه إلى عاصمة المقاطعة ليبيع حبوب الجاودار والشوفان والحنطة السوداء، وكالعادة كان يزن بنفسه ويلعب ألاعيبه. إلا أنه بالرغم من كل الظروف المرتبكة كان يرسل ابنه، وبصحبته الحارس، ومعهما ثمانية خيول وطباخان وخادم خاص وخادم عملاق وأربعة صبية كتتمة لهذه المجموعة. لقد وجدوا في سان بطرسبرج أن الضابط الشاب الذي نال تربية رائعة هو من يملك ثمانية جياد، وأناسًا لا يقل عددهم عن عدد هذه الجياد، وطباخيْن، وما إلى ذلك. مضى كل شيء في البداية بسهولة

(١٠٥) نوع رخيص يرتديه الفلاحون.

فائقة: صار العم المستقبلي ملازمًا في الحرس، ثم حدث فجأة حدث مهم في حياته، وكان حينها في السابعة عشرة من عمره. في يوم شتوي رائع فكَّر في التجول على المزلجة بالقرب من نيفسكي[١٠٦]. عند جسر أنيتشكوف سارت بمحاذاته مزالج كبيرة لترويكا[١٠٧]، وأرادت أن تتجاوزه، وأنتم تعرفون بالطبع كيف هو قلب الإنسان الروسي. صاح الملازم في الحوذي: «أسرع، أسرع». وصاح الرجل المهيب الجالس في المزلجة الأخرى، وبدت صيحته كزئير أسد مدوٍّ، وكان ملفوفًا في معطف من جلد الدب. تجاوزه الضابط. أما السيد الآخر الملفوف في معطف من جلد الدب، وقد كان مختنقًا من فرط الغضب، ممسكًا بالسوط في يده، فأمسك بيده عربة الملازم وجذبها صوبه عمدًا قائلًا:

- لا تسبقني أيها المحتال!

سأله الضابط:

- ماذا بك؟ هل جننت؟

- أريد أن ألقِّن سائقك الأحمق هذا درسًا حتى لا يتجاوزني مجددًا.

- أنا الذي أمرته بذلك أيها السيد الكريم، ويمكنك أن تتفهم أنني أحترم هذه البدلة العسكرية التي أرتديها، ولن أسمح بتلطيخ شرفها.

- يا لك من شاب! من عساك تكون؟

- أتسألني من عساي أكون؟

---

(١٠٦) من أشهر شوارع بطرسبرج.

(١٠٧) عربة تجرها ثلاثة خيول.

سأله الملازم مستعدًّا للهجوم عليه كوحش.

نظر إليه الشخص المهيب بازدراء، وأشار له بقبضته العظيمة التي تبدو كقدم فيل وقال:

- أتريد أن تحاذيني؟ لا يا أخي. عليك أن تتخلف.

ثم صرخ في حوذيه:

- أسرع.

صاح الملازم في حوذيه هو الآخر:

- الحق به.

وأضاف كلمتين يعرف الجميع أنه ليس بوسعنا أن نجدهما في القاموس[١٠٨].

عرف الضابط بالفعل أين يعيش هذا السيد، لكنه غيَّر رأيه في مسألة زيارته. لقد قرَّر أن يكتب له خطابًا، وبدأ كتابته بنجاح، ولكن حيل بينه وبين إكماله بصورة تبدو كما لو أنها متعمدة. استدعاه الجنرال وأمره بالقبض على شخص ما، ثم نقلوه إلى حامية قلعة أورسك. تقع قلعة أورسك على أجمل وأعظم القمم الجبلية، ومع ذلك الحياة هناك مملة للغاية. أخذ الضابط معه مجموعة من روايات كريبيون[١٠٩] ذات الطابع التعليمي، وتوجَّه إلى حدود مقاطعة أوفيمسكايا. بمرور ثلاثة أعوام أعادوه مجددًا إلى الحرس، لكنه عاد من قلعة أورسك مضطربًا

(١٠٨) يقصد بالطبع سبابًا قبيحًا.

(١٠٩) كلود بروسبر جوليوت دي كريبيون، روائي فرنسي.

بعض الشيء بحسب ما يتذكر أصدقاؤه. قدَّم استقالته ثم رحل إلى ضيعته التي ورثها عن أبيه المفلس الذي ظل يسير ويئن مرتديًا معطفه المصنوع من صوف الخرفان، ومع ذلك اشترى ألفين ونصف قن بطريقة ملتوية. تشاجر المالك الجديد مع أقاربه كافة ورحل إلى خارج البلاد. قضى ثلاثة أعوام في الجامعات الإنجليزية، ثم طاف كل أوروبا تقريبًا متجاوزًا النمسا وإسبانيا اللذين لم يكن يحبهما، واتصل بكل الشخصيات المرموقة، وقضى أمسيات بصحبة بونيت[١١٠] متحدثين عن الحياة العضوية، كما قضى ليالي كاملة مع بومارشيه[١١١]، تحدثا فيها عن تجاربه الخاصة بكؤوس النبيذ. صادق أيضًا شلوزر[١١٢] الذي كان قد أصدر حينها جريدته الشهيرة. كما سافر أيضًا إيرمنونفيل[١١٣] لزيارة جاك روسو الذي كان قد بدأ يذوي، ومر بفيرني أيضًا بكل كبرياء من دون أن يزور فولتير القاطن هناك. بعد عودته من رحلته التي امتدت لعشر سنوات، حاول أن يعيش في بطرسبرج. لم ترُق له الحياة في بطرسبرج، ومن ثَم أقام في موسكو. في البداية وجد كل شيء هناك

---

(١١٠) ستيد بونيت، قرصان إنجليزي بربادوسي، ولد في سنة ١٦٨٨ في بربادوس. هو بعكس كل القراصنة في عصره ولد لأسرة ثرية وورث الكثير من المزارع، وبسبب ذلك لقب بالقرصان الشهم، لكن بسبب مشكلاته مع عائلته وحبه للاستطلاع صار قرصانًا. أصبح ضمن أحد قراصنة العصر الذهبي. عمل تحت إمرة اللحية السوداء وكان من الذين كونوا جمهورية القراصنة.

(١١١) موسوعي فرنسي، عمل في فترات مختلفة من حياته كصانع ساعات، ومخترع، وكاتب مسرحي، وموسيقي، ودبلوماسي، وجاسوس، وناشر، وبستاني، وتاجر أسلحة، وناقد، وخبير مالي وثوري.

(١١٢) أغسطس لودفيج فون شلوزر، كان مؤرخًا ألمانيًا وضع أسس الدراسة النقدية للتاريخ الروسي.

(١١٣) قرية في شمال فرنسا.

غريبًا، ثم بدأ الجميع هناك يرونه غريبًا. في حقيقة الأمر لقد ضاع بطريقة ما. صار يقرأ الكتب الطبية وحسب، ومن الواضح أن الحال انحدرت به، وصار ساخطًا، متقلب المزاج، غريبًا عن كل شيء، وكل شيء غريب عنه.

وصل إليه الجنيفي (نسبة إلى جنيف - المترجم) في الفترة التي كانت بيلتوفا تبحث فيها عن معلم خاص، بترشيح من أحد أصدقائه السويسريين، وأعرب الجنيفي عن رغبته في أن يصير معلمًا. كان هذا الجنيفي في الأربعين من العمر، أشيب الشعر، نحيلًا، بعينين زرقاوين شابتين، وصاحب وجه ورع صارم. كان مثقفًا بصورة رائعة، يجيد اللاتينية بامتياز، كما كان جيدًا في علم النباتات، أما في أمور التربية فرأى هذا الحالم ذو الضمير الحي أن تنفيذ واجبه يُلقي مسؤولية رهيبة على كاهله. ظل يدرس كل الدراسات الممكنة عن التربية ووسائل التعليم، بداية من «إميل»[١١٤]، مرورًا ببستالوتزي[١١٥]، وصولًا إلى فون باسدو[١١٦] ونيكولاي[١١٧]. أمر واحد لم يجده في الكتب؛ ألا وهو أن أهم ما في التربية يتألف من تكييف العقل الفتي مع ما حوله، وأن التربية يجب أن ترتبط بالمناخ العام، وأن لكلٍّ عصره كما أن لكلٍّ

---

(١١٤) الكتاب الشهير لجان جاك روسو.

(١١٥) تربوي سويسري.

(١١٦) طبيب ألماني اشتهر بذكره لأعراض مرض داء غريفز، المعروف الآن باسم تضخم الغدة الدرقية.

(١١٧) ربما يقصد فون نيكولاي، الشاعر الألماني الذي شغل منصب رئيس أكاديمية سان بطرسبرج للعلوم.

بلده وطبقته، وربما لكل أسرة طريقة معينة أيضًا في التربية. لم يستطع مواطن جنيف هذا أن يدرك ذلك. لقد درس القلب الإنساني بحسب بلوتارخ[١١٨]، وعرف الحداثة على يد مالتي بروني[١١٩]، والإحصاءات، وفي الأربعين من عمره لم يكن بإمكانه أن يقرأ كارلوس[١٢٠] من دون أن يذرف دموعه، وآمن بكمال فكرة إنكار الذات، ولم يستطع أن يغفر لنابليون عدم تحريره لكورسكا[١٢١]، وأخذ معه بورتريه لباولي[١٢٢]. الحق أن مصادماته المريرة بالعالم الواقعي الممثلة في الفقر والفشل قد ضغطته، لكنه لم يتعلم شيئًا عن الواقع من ذلك إلا بقدر ضئيل. لقد اندفع حزينًا ليتسكع على الشواطئ الساحرة للبحيرة، ساخطًا على قدره وعلى أوروبا، وفجأة أشارت له المخيلة إلى بلد جديد بالشمال، كان مثل أستراليا من الجانب المادي؛ أي مثَّل من الناحية المعنوية شيئًا مركبًا على نطاق واسع؛ شيئًا آخر جديدًا بارزًا. اشترى الجنيفي كتاب التاريخ لليفاسك[١٢٣]، وقرأ كتاب فولتير الشهير: «بطرس الأول»، وفي غضون أسبوع ذهب إلى بطرسبرج سيرًا. بنظرته البريئة إلى العالم حظي الجنيفي بصلابة لا تُنسى، بل إنه حظي أيضًا بنوع من البرودة. الحالم البارد يتعذر إصلاحه، بل سيبقى إلى الأبد طفلًا.

---

(١١٨) فيلسوف ومؤرخ يوناني.

(١١٩) جغرافي وصحفي فرنسي.

(١٢٠) مسرحية للأديب الألماني شيلر.

(١٢١) جزيرة فرنسية.

(١٢٢) سياسي، وضابط من كورسيكا، وكان عضوًا في الجمعية الملكية، توفي في لندن، عن عمر يناهز ٨٢ عامًا.

(١٢٣) بيير تشارلز ليفاسك، مؤرخ فرنسي.

تعرفت بيلتوفا عليه عند العم، وكانت قد أوشكت على فقدان الأمل في العثور على معلم خاص مثالي بالصورة التي تألفت في مخيلتها، ولكن الجنيفي كان قريبًا من هذه الصورة. عرضت عليه أربعة آلاف روبل في العام، وكان هذا مبلغًا ضخمًا حينها. قال الجنيفي إنه لا يحتاج إلى أكثر من ألفين فقط، ووافق. أعربت بيلتوفا عن دهشتها، لكنه عارض ببرود أن يأخذ أقل أو أكثر مما يحتاج إليه، وقال إنه قد وضع لنفسه ميزانية مقدارها ٨٠٠ روبل، بالإضافة إلى أربعمائة روبل في حالات الطوارئ. أضاف: «لا أريد التعود على الترف، كما أن جمع المال هو عمل غير شريف». وقد عهدت الأم إلى هذا المجنون بتربية الوريث المستقبلي لبيلي بولي بأراضيها البور وملكياتها.

وحده العم العجوز الذي لم يكن يرضى عن أي شيء في العالم، كان غير راضٍ عن ذلك، وفي الوقت الذي كانت فيه بيلتوفا في أوج سرورها قال العم، وهو الوحيد الذي استقبلها من بين جميع أقارب زوجها: «آه يا صوفيا، آه يا صوفيا! كل ما تفعلينه هراء. كنت لأختار بكل هدوء هذا الجنيفي ليصير قارئًا لي، ولكن مُربٍّ؟ هو نفسه في حاجة إلى مربية. وماذا سيصنع من فولوديا؟ أسيجعله سويسريًا؟ في رأيي أنه من الأفضل أن تأخذيه ببساطة إلى مكان ما في فيفي أو لوزان(١٢٤)». رأت صوفيا أن هذه الكلمات تُعبِّر عن أنانية الشيخ، ونظرًا لأنها أحبت الجنيفي، وفي الآن ذاته لم تُرد أن تغضبه، تحلت بالصمت، وبعد مرور أسبوعين عادت مصطحبة فولوديا و(الشاب) البالغ الأربعين من العمر

(١٢٤) بلدان في سويسرا.

إلى ضيعتها. كان الربيع قد حل. بدأ الجنيفي بإشعال حب علم النباتات في فولوديا. منذ الصباح الباكر كانا يتوجهان لجمع الفطر، واستَبدل الحوار الحي بالدروس المملة. صار كل شيء تقع عليه العين موضوعًا للحديث، واستمع فولوديا بانتباه استثنائي إلى شروحات الجنيفي. بعد الغداء كانا يجلسان عادة في الشرفة المطلة على الحديقة، وكان الجنيفي يحكي له سير العظماء وحكايات رحلاته الطويلة، وكان يسمح أحيانًا – كنوع من أنواع المكافأة – بأن يقرأ لفولوديا بنفسه أجزاء من بلوتارخ. ومر الوقت، وحل موعد إرسال فولوديا إلى الجامعة. شيء ما جعل الأم لا تود ذلك؛ فعلى مدار هذه الأعوام اختبرت سعادة لطيفة، فلم تشعر طوال حياتها بمثل هذه الحالة الجيدة في هذه الحياة الهادئة المتآلفة، حتى إنها خشيت حدوث أي تغيير. لقد تعودت وأحبت أن تنتظر في شرفتها العزيزة فولوديا قادمًا من جولته البعيدة. كانت تستمتع عندما كانت تراه يجفف جبهته من العرق، متوردًا ومبتهجًا، مندفعًا صوب معانقتها. كانت تنظر إليه بفخر وسرور. في الحقيقة كان مرأى فولوديا يؤثر عليها. كان شديد النبل حتى إن شيئًا مباشرًا وواضحًا مفعمًا بالثقة يبدو عليه، إلى درجة أن الناظر إليه يصير مسرورًا، ويشعر في الآن ذاته بالحزن عليه. اتضح تمامًا أن هذا الفرع الرشيق الغض ذا النظرة المشرقة للحياة لم تلوثه شائبة واحدة، وأن الخوف لم يزُر قلبه، ولا الكذب مس شفتيه، وأنه لا يعلم على الإطلاق ماذا ينتظره بمرور السنوات. ارتبط الجنيفي بتلميذه ارتباط المرء بأمه تقريبًا. أحيانًا كان يحدق في وجهه طويلًا وتمتلئ عيناه بالدموع وهو يقول في نفسه: «لم تضع حياتي

عبثًا، وذلك لإدراكي أنني ساهمت في تطوير هذا الشاب. ضميري لا يعذبني».

كم ارتبك كل شيء! كم صار كلِ شيء غريبًا تحت الضوء الساطع! لم تكن الأم ولا المربي يتصوران قَطُّ كم الأحزان وطول فترة الاختبار التي يُعدَّان فولوديا لها بهذه التربية الانعزالية. لقد فعلا كل شيء يمكن أن يجعله لا يفهم الواقع. لقد حرصا كل الحرص على فصله عما يحدث في العالم الكئيب، وبدلًا من التفاني المرير في الحياة منحاه مُثلًا لامعة، وبدلًا من اصطحابه إلى السوق ليرى الحشود النافرة الجشعة الساعية إلى المال، اصطحباه إلى حفل باليه رائع، وأكدا للطفل أن هذا السمو والتناغم الموسيقي للحركات مع الأصوات يُعبِّر عن الحياة العادية. لقد أعدا نسختهما الأخلاقية الخاصة من كاسبر هاوزر[١٢٥]. هكذا كان الجنيفي، ولكن الفرق كبير. إنه عالِم فقير مستعد للانتقال من طرف الكرة الأرضية للطرف الآخر بحقيبة صغيرة وبورتريه باولي، وأحلامه المحرمة واعتياده الرضا بكل ما هو قليل وازدراء الترف والاستعداد للعمل؛ فماذا فيه إذن يشبه فولوديا الذي يتمتع بوضع اجتماعي مختلف تمامًا؟

لكن بغض النظر عن الكيفية التي تعودت بها بيلتوفا على تلك الحياة المنعزلة، وعن مدى تألمها من الابتعاد عن بيلي بولي الهادئة، قررت الانتقال إلى موسكو. بوصولها إلى هناك اصطحبت فولوديا إلى العم مباشرة. كان العجوز قد صار ذاويًا جدًّا، ووجدته جالسًا على مقعد

---

(١٢٥) شاب ألماني ادَّعى أنه نشأ في عزلة تامة بزنزانة مظلمة.

فولتيري[١٢٦]، ساقاه ملفوفتان بشالات مصنوعة من جلد الماعز، وقد تناثرت خصلات شعره الطويلة الشيباء على مبذله، وفي عينيه لاح شكل مظلة خضراء.

سأل العجوز:

– ماذا تعمل يا فلاديمير[١٢٧] بتروفيتش؟

– أستعد للالتحاق بالجامعة يا عمي.

– أي جامعة؟

– جامعة موسكو.

– وماذا ستفعل هناك؟ أنا على معرفة شخصية بماتي وكذلك جييم في هذه الجامعة، ولكنني أظن أن الأفضل لك أن تلتحق بأكسفورد، أليس كذلك يا صوفيا؟ هناك أفضل لا شك. وأي كلية تحديدًا تريد الالتحاق بها؟

– سأدرس القانون.

بدت ملامح الازدراء على العم.

– ماذا تقول؟ أتريد دراسة القانون الطبيعي والدولي وقانون جستنيان[١٢٨]؟ وماذا بعد ذلك؟

---

(١٢٦) نوع من المقاعد المريحة، ذو ذراعين فاخرتين، وناعم.

(١٢٧) فولوديا هو تدليل فلاديمير.

(١٢٨) مجموعة من القوانين التي تبعتها أمم مختلفة، حيث أمر الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول بعضًا من رجال الدين المسيحي في مملكته، بانتقاء مجموعة من القوانين الرومانية لاتباعها.

أجابت الأم ضاحكة:

- بعد ذلك... بعد ذلك يعمل في بطرسبرج.

- هههههه. إنه في حاجة ماسة إذن إلى معرفة الديجيستا[١٢٩] وكل هذه الحواشي، أو ربما تلتحق يا فلاديمير بتروفيتش بهيئة المحلفين. هههههه. أم ستصير محاميًا؟ افعل ما يتراءى لك يا أخي، لكنني أرى أنه يجدر بك أن تدرس الطب. سوف أترك لك مكتبتي. إنها مكتبة كبيرة، ولقد أبقيتها في حالة جيدة، ودوَّنت كل شيء جديد. علم الطب الآن أفضل من بقية العلوم، وستكون مفيدًا في وقت قريب جدًّا. لكنك ستخجل من تقاضي المال مقابل العلاج، وستعالج مجانًا، ومن ثَم سيكون ضميرك هادئًا.

نظرًا لمعرفتهما بمدى تصميم العم على رأيه لم يحاول لا فولوديا ولا والدته أن يعارضاه، ولكن الجنيفي لم يستطع تحمل ذلك وقال:

- رائع بالطبع هو الانخراط في الحقل الطبي، لكنني لا أعرف لماذا لا يلتحق فلاديمير بتروفيتش بالقطاع المدني بينما يحاولون بكل الوسائل أن يدفعوا الشباب المتعلمين نحو الخدمة العسكرية.

أجاب العجوز المتقلب:

- سوف يُعلِّمك، وكذلك سوف أفعل أنا. لقد كنت في جنيف عندما كان لا يزال يحبو على أربع يا عزيزي المواطن الجنيفي!

---

(١٢٩) خلاصة وافية من الكتابات القانونية عن القانون الروماني، تم جمعها بأمر من الإمبراطور الروماني جستنيان.

وأضاف بعد أن هدأ قليلًا:

- أتعرف؟ كتبوا هنا في إحدى ترجماتهم لجان جاك روسو: «من تأليف السيد البرجوازي الجنيفي: روسو».

وانفجر الشيخ من فرط الضحك. لقد حكى مئات المرات عن هذه الترجمة، وكان يظن دائمًا أن مستمعه لا يعرف بعد هذه القصة. واصل حديثه في حالة من السرور:

- فولوديا، ألا تكتب الشعر؟

أجاب فلاديمير وقد احمر خجلًا:

- حاولت يا عمي.

- من فضلك لا تكتب الشعر يا صديقي العزيز. التافهون هم من يكتبون الشعر. هذا محض هراء. عليك أن تعمل.

لم يُنفِّذ فلاديمير شيئًا من نصائح عمه سوى النصيحة الأخيرة. لم يلتحق بجامعة أكسفورد، بل التحق بجامعة موسكو، ولم يدرس بكلية الطب، بل درس الأخلاقيات السياسية. أكملت الجامعة تربية بيلتوف، فقد كان حتى التحاقه بالجامعة وحيدًا، أما بعد التحاقه صار وسط جماعة صاخبة من الرفاق. هنا أدرك وضعه الخاص، حيث قابل تعاطفًا حارًّا من قِبل أصدقائه الشباب، وانفتح على الجميع بروعة، وصار منشغلًا بكد بالعلوم. حتى عميد الكلية التفت إليه حيث وجد أن كل ما ينقص هذا الشاب حتى يصير طالبًا مثاليًّا هو أن يُقصِّر شعره قليلًا، وأن يُبدي مزيدًا من الاحترام. أنهى الدراسة أخيرًا، وصار الشاب على

مفترق طرق الحياة العملية. بدأت بيلتوفا تستعد للانتقال إلى بطرسبرج، وأراد الابن أن تذهب هي أولًا إلى هناك، حتى ينتهي هو من إنهاء أموره بموسكو واللحاق بها. حتى اللحظة التي اجتمع فيها أصدقاؤه بالجامعة عشية يوم رحيله، كان الجميع لا يزالون مملوئين بالأمل. بدا المستقبل فاتحًا ذراعيه لهم، وقد لوَّح لهم ككليوباترا التي أعطت لنفسها الحق في الموت من فرط البهجة. وضع الشباب خططًا ضخمة لأنفسهم. لم يتصور أي منهم أن أحدهم سوف ينهي حياته المهنية كرئيس قسم بعد أن يخسر كل ما لديه في لعب الورق، وأن ثانيًا سيصير نسيًا منسيًّا في حياة مدينته الإقليمية، وسيشعر أنه ليس بخير صحيًّا حتى يشرب ثلاث كؤوس قبل الغداء وينام ثلاث ساعات بعده، وأن ثالثًا سوف يصير في ذلك الوضع الذي يشعر فيه بالغضب من الشباب لا من الشيوخ، بسبب أنهم لا يشبهون مديره ولا أخلاقهم كأخلاقه، وأن جميعهم قد صاروا بضعة حالمين تافهين. كان يمين صون الصداقة والإخلاص للأحلام وارتطام الكؤوس بعضها ببعض، لا يزال يتردد في أذني بيلتوف حينما أيقظه الجنيفي بثوب السفر.

انتقل بطلنا الحالم إلى بطرسبرج. إلى العمل! إلى العمل! هناك تنعقد آماله وستتطور مشروعاته، وهناك سيعرف الواقع. هناك البؤرة التي ستنبع منها حياة جديدة لروسيا. قال في نفسه إن موسكو قامت بمأثرتها وجمعت في نفسها كل عروق الدولة، كما لو أنها قلب دافئ. إنها تنبض من أجل الدولة، ولكن بطرسبرج... بطرسبرج، إنها عقل روسيا. إنها بالأعلى بجانب جمجمة جليدية وجرانيتية. إنها الفكرة

الناضجة للإمبراطورية. دارت في رأسه مجموعة من الأفكار والصور الشبيهة التي ليس لها أي إطار واضح، وتم ذلك بإخلاص شديد. في الوقت نفسه كانت المركبة تنتقل من محطة لأخرى، تقل - بالإضافة إلى بطلنا الحالم - عقيدًا فارسًا متقاعدًا، ذا شوارب طويلة، وموظفًا من أرخانجلسك، اصطحب معه حفرية سمكة وزهرة بابونج تحسبًا لاضطراب الحالة الصحية، كما حملت العربة خادمًا ارتدى معطفًا بسيطًا من صوف الخرفان، وطالبًا عسكريًّا أشقر كان لون وجنتيه أشد دكنة من لون شعره، وكان يفتخر بتأثيره على أحد قادة الأوركسترا. اتسمت كل هذه الوجوه بالجدة والبهجة بالنسبة لفلاديمير. كان يضحك بسرور من المواطن الذي من أرخانجلسك عندما ناوله الأخير أحفورة السمكة، كما ضحك على خراقته عندما ظل يبحث طويلًا في محفظته عن العملة الملائمة ليدفع ثمن حساء الملفوف، حتى إن العقيد نافد الصبر لم يستطع تحمل ذلك ودفع من أجله. ضحك صاحبنا أيضًا من العقيد الذي لم يكن بإمكانه التعبير بوضوح عن فكرة واحدة، حيث لم يكن يستطيع بدء كلمة أو إنهاءها بصورة واضحة، الأمر الذي كان بعيدًا تمامًا عن جلب الاحترام. ضحك كذلك بسبب ذلك العجوز الأخرق الذي كان في خدمة المواطن من أرخانجلسك؛ أو بالأحرى الذي أوشك على الموت في خدمته، حيث كان يرتدي معطفًا خفيفًا من الجلد الروسي، بالرغم من شدة البرودة. نظر الشاب إلى كل ذلك بسرور!

كان وصوله إلى سان بطرسبرج، وظهوره في دائرة الضوء، ناجحًا بصورة استثنائية. كان معه خطاب توصية موجَّه إلى آنسة ذات وزن في المجتمع؛ آنسة عجوز. ما إن رأت هذه الآنسة العجوز مدى روعة هذا الشاب حتى قرَّرت أنه مثقف جدًّا، ويجيد اللغات بروعة. كان أخوها مدير أحد الفروع بالإدارة المدنية. قدَّمت له فلاديمير. تحدث الأخ معه لبضع دقائق، وفي الحقيقة تأثر ببساطة الحديث، حيث رأى أن الشاب مثقف من أوجه كثيرة ومتحمس وذو عقل متوقد. عرض عليه أن يوظفه في إدارته، وكتب بنفسه لمديره أن يوليه عنايته. أقبل فلاديمير على العمل بحماسة، وأعجبته البيروقراطية التي كان ينظر إليها من خلال منظور شاب في التاسعة عشرة؛ البيروقراطية القلقة والمشغولة بالأرقام والسجلات؛ البيروقراطية المتمثلة في مظهر المشغولية وأكوام الأوراق. لقد رأى في عمل الإدارة عجلة صغيرة تجبر حشودًا كبيرة من الناس على مواصلة التحرك. حشود مبعثرة في نصف الكرة الأرضية. لقد حوَّل كل شيء إلى نوع من الشِّعر.

أخيرًا وصلت بيلتوفا إلى سان بطرسبرج. كان الجنيفي لا يزال يعيش عندهما. حاول في الفترة الأخيرة أكثر من مرة أن يترك منزل آل بيلتوف، لكنه لم يستطع فعل ذلك، لقد اعتاد العيش مع هذه الأسرة، وكشف الكثير عن نفسه لفلاديمير، وكنَّ احترامًا عميقًا لوالدته، حتى إنه كان من الصعب عليه أن يخطو خطوة واحدة خارج عتبة منزلهما. لقد صار كالحًا، معاديًا لنفسه، أو كما قلنا سابقًا كان حالمًا باردًا، ومن ثَم صار من المتعذر إصلاحه. ذات مساء، بعد أن تم تعيين فلاديمير في

وظيفته مباشرة، كانت الأسرة الصغيرة جالسة بالقرب من الموقد، وكان بيلتوف الشاب الذي تطور حبه لذاته، ووعيه الشاب بقواه وجاهزيته، مستغرقًا في الحلم بالمستقبل، تسكعت في رأسه آمال متنوعة وخطط وتوقعات، كما استغرق في أحلامه الخاصة بنشاط مدني واسع النطاق، وكيف سيُكرِّس حياته برمتها من أجله، وسط استغراق الشاب في هذا المستقبل المتوقد ألقى بنفسه على عنق الجنيفي، قال له: «كم أنا مدين لك يا صديقنا المخلص والطيب! أنت من صنعت مني إنسانًا. أنا مدين لك ولأمي بكل شيء، بكل شيء. أنت بالنسبة لي أكثر من والد». أغلق الجنيفي عينيه بيديه، ثم نظر إلى الأم والابن، وأراد أن يقول شيئًا، لكنه لم يقل شيئًا، ونهض وخرج من الغرفة.

بوصوله إلى مكتبه الصغير سحب الجنيفي حقيبته المتربة من أسفل الأريكة، ومسحها، وبدأ يُجهز كنوزه، وينظر إليها بحب. كشفت هذه الكنوز بصورة أو بأخرى عن كل رقة هذا الإنسان اللا متناهية. كان قد أبقى على كنوزه هذه ملفوفة بعناية في حافظة جلدية، وكانت هذه الحافظة المائلة والمعوجة قد أعدها الجنيفي بنفسه في الليل خفية من أجل فولوديا. كان يبلغ من العمر ١١ عامًا. لصق عليها من الأعلى صورة لواشنطن منتزعة من أحد الكتب، كما احتفظ أيضًا ببورتريه ملون لفولوديا عندما بلغ ١٤ عامًا. كان مرسومًا بعنق مكشوف سفعت الشمس بشرته، وعينين تلوح أمارات التفكير الثاقب عليهما، مملوءتين بالرجاء والآمال اللذين أبقى عليهما لخمسة أعوام أخرى، ثم تلألأ في

لحظات نادرة كالشمس في بطرسبرج[١٣٠]؛ كشيء من الماضي لا يلائم جميع سمات الحاضر. كانت لديه أيضًا أدوات رياضية فضية منحها إياه العم العجوز. كما كان لديه أيضًا صندوق السعوط الضخم الخاص بالعم، المصنوع من عظام السلحفاة، مرسومة عليه صورة العيد، وكان هذا الصندوق بجانب العجوز دائمًا. اشتراه الجنيفي بعد موت العجوز من خادمه. بعد أن وضع كل هذه المقتنيات الثمينة وأغراضًا أخرى مشابهة لها، اختار ١٥ كتابًا ونحى بقية الكتب. في الصباح الباكر خرج بحذر في طريقه إلى الميناء واستدعى أحد السائقين المتهورين، وقد جلب معه شخصًا آخر وحقيبة وكتبًا، وأمر السائق أن يخرج به مسافة يومين خارج المدينة، وقد ارتدى معطفًا طويلًا، وأخذ معه عصا ومظلة، وصافح الخادم الذي عمل بخدمته طوال هذه المدة، ومضى سيرًا بصحبة السائق، وقد بللت دموعه الغزيرة سترته.

بمرور يومين استلمت بيلتوفا التي اندهشت بشدة من رحيل الجنيفي، والتي كانت في انتظار عودته، الخطاب التالي:

«سيدتي العزيزة، نلت مساء الأمس مكافأتي الكاملة على أعمالي. صدقيني، ستظل هذه اللحظة عالقة في ذاكرتي دائمًا، كما أنها ستجلب لي العزاء حتى نهاية حياتي، وسأنظر لها كتبرير لذاتي في عينيَّ. لكن في الوقت ذاته اختتمتْ هذه اللحظة عملي رسميًّا. لقد كشفت بوضوح عن أن المعلم يجب أن يترك تلميذه ليتطور من تلقاء نفسه، وأن بالإمكان أن يُلحق الضرر بأصالة تلميذه بسبب تأثيره عليه بدلًا من أن يفيده. صحيح

(١٣٠) تشتهر بطرسبرج بأنها مدينة غائمة أغلب الوقت.

أن على الإنسان أن يتعلم طوال حياته، ولكن يأتي وقت لا يجب فيه بعده أن يتعلم. ما الذي يمكنني أن أفعله الآن من أجل ابنكِ؟ لقد تجاوزني.

لقد انتويت منذ فترة بعيدة أن أترك بيتكِ، لكن ضعفي حال دون تحقيق ذلك. لقد منعني حبي لابنكِ. لو لم أكن قد هربت الآن لما استطعت أن أفي بهذا الواجب الذي كُلِّفت به. أنتِ تعرفين قواعدي، لذلك لم أستطع البقاء. إنني أعتبرها صدقة مُذلة أن آكل كسرة خبز لم أكدح من أجلها، وأن آخذ مالكِ لإشباع نزواتي ليس إلا. هكذا ترين أنه قد توجب عليَّ أن أترك منزلكِ. لنفترق كأصدقاء، ولن أعيد التحدث عن ذلك مجددًا.

عندما يصلكِ خطابي سوف أكون في طريقي إلى فنلندا، وأنتوي أن أذهب من هناك إلى السويد. ما دام توفر معي مال فسأواصل السفر، ثم سأعود إلى العمل مجددًا، فلا تزال لديَّ القوة اللازمة لذلك.

في الفترة الأخيرة لم آخذ منكِ مالًا. لا تحاولي إرسال المال إليَّ، بل أعطي نصف المال إلى الخادم الذي تبعني، والنصف الآخر لبقية الخدم الذين أطلب منهم بكل ود أن يعذروني. جلبت أحيانًا الكثير من المتاعب لهؤلاء المساكين. الكتب التي تركتها عندكم هي هدية مني لفلاديمير. سوف أكتب له خطابًا خاصًّا.

وداعًا، وداعًا يا أكثر النساء نبلًا وجدارة بالاحترام العميق. فلتحل البركة على بيتكِ، وكيف يمكننا أن ننتظر منكِ ابنًا غير ذلك؟! أتمنى لكِ أمرًا واحدًا: أن تعمِّري طويلًا، طويلًا جدًّا. أُقبِّل يدكِ».

أما خطابه إلى فلاديمير فبدأ كالآتي:

«إنها ليست نصائح معلم، بل نصائح صديق، وسوف تكون بمثابة الحديث الأخير معك يا فلاديمير. أنت تعرف أنه ليس لديَّ أقارب يمكن أن يكونوا قريبين مني، وليس لديَّ من هو أقرب منك إليَّ، بغض النظر عن الفجوة الزمنية الضخمة بيننا. على جبهتك ترتسم آمالي وأمنياتي. لديَّ الحق يا فلاديمير في إعطائك نصيحة ودية عند رحيلي. امضِ في الطريق الذي أشار قدرك إليه؛ إنه طريق رائع. إنني لا أخشى الفشل والبلايا؛ سوف يُقابَلون بالقوة والمقاومة في داخلك، لكني أخشى صنوف النجاح والسعادة. أنت واقف على طريق زلق. أدِّ عملك، ولكن احذر كي لا يحدث النقيض؛ أي احذر ألا يخدمك عملك. لا تخلط يا فلاديمير الوسيلة بالهدف. وحدها المحبة للقريب وللخير يجب أن تكون هي الهدف. إذا جف الحب في نفسك فلن تستطيع أن تفعل شيئًا. سوف تخدع نفسك. وحده الحب هو ما يؤسس ما هو متين وحي، أما الفخر فغير مثمر، لأنه لا يحتاج إلى أي شيء خارج نفسك».

لن أعيد نقل الخطاب بأكمله هنا؛ إنه مكون من ثلاث صفحات.

وهكذا تلاشى من حياة فلاديمير هذا النموذج المضيء والصالح للمربي. «أين السيد جوزيف؟» هكذا كانت تتساءل الأم وابنها كثيرًا، ثم يستغرقان في التفكير، وترتسم في مخيلتهما هيئة المعلم المتواضعة، الهادئة، التقية، في سترة سفره الطويلة التي توارت خلف الجبال النرويجية الفخورة والمستقلة.



-٧-

أثبت أزايس[١٣١] (الأمر ممل حقًّا!) أن كل شيء في العالم يدور حول محور، ولا شك أنك لست في حاجة إلى أن تكون شديد الصرامة، وتثير اعتراضات تافهة، كي تصدق ذلك. بناء على ذلك نطلب الإذن لتقديم أوسيب يفسيتش نظرًا لفقداننا السيد جوزيف. كان أوسيب يفسيتش عجوزًا نحيلًا في الستين من العمر، يرتدي معطفًا رسميًّا باليًا، ويبدو دائمًا راضيًا متورد الوجنتين. في الثلاثين كان يترأس طاولة رباعية (مكتب مكون من أربعة موظفين) في الديوان الذي يعمل به بيلتوف. قبل ذلك بخمسة عشر عامًا كان يعمل كاتبًا في هذا المكتب، أما الخمسة عشر عامًا الأخرى فقد قضاها في ساحة الديوان مُتوجًا باللقب الفخري لابن البواب؛ الأمر الذي منحه مكانة أرستقراطية في عيني بقية أبناء الخفراء. يمكن أن يكون هذا الرجل أفضل دليل ممكن على أنه ليس بوسع السفريات الطويلة ولا المحاضرات الجامعية ولا الدائرة الواسعة من الأنشطة أن تُشكِّل الإنسان. لقد كان خبيرًا بدرجة استثنائية في العمل

(١٣١) فيلسوف فرنسي.

ومعرفة الناس، ولم تكن مهارته الدبلوماسية تقل بالطبع عن أوسترمان أو تاليران[١٣٢]. كان سريع البديهة بطبيعته، وحظي بالفرصة الكاملة والوقت اللازم لتطوير وتدريب حسه العملي، حيث إنه منذ الخامسة عشرة وهو موجود بالديوان، ومن ثَم لم يمنع تحقيق ذلك لا علم ولا قراءة ولا اصطلاحات أو نظريات وهمية من تلك النوعية التي نفسد بها مخيلتنا، ولا بريق الحياة الاجتماعية ولا الخيالات الشعرية. بنسخ الأوراق نسخًا نظيفًا والتأمل في الوقت ذاته في الناس بعمقٍ، اكتسب معرفة يومية بالواقع أعمق بكثير، وفهمًا سليمًا للمحيط من حوله، واللباقة السلوكية الواجبة للمرور بهدوء بين مستنقعات الديوان التافهة، والطينية الخطيرة في الآن ذاته. تبدل الرؤساء الأساسيون في الديوان، وتبدل المديرون، وتلاشى وميض رؤساء الإدارات، أما رؤساء الأقسام الرباعية فظلوا كما هم، وقد أحبه الجميع لأنه كان ضروريًا، ولأنه أيضًا أخفى ذلك باجتهاد. ميزه الجميع وأنصفوه لأنه حاول أن يختفي تمامًا من الصورة. كان يعرف كل شيء، ويفهم كل الأمور المتعلقة بالعمل في الديوان. كانوا يلجأون له كما يلجأون إلى الأرشيف، ولم يحاول هو التقدم للأمام. عرض عليه المدير منصب رئيس القسم، لكنه بقي مخلصًا للطاولة الرباعية. أرادوا أن يجعلوه يعتلي الكرسي. لعامين ظل يبعد عن نفسه حمل هذا الصليب، طالبًا أن يغيروا راتبه لسبب واحد فقط، يتلخص في أن رئيس الطاولة الثلاثية يحسده. هكذا كان يتعامل

(١٣٢) سياسيان شهيران.

في كل الأمور؛ فلم يحدث قَطُّ أن اشتكى أحد من طمعه أو جشعه، ولم يحدث قَطُّ أيضًا أن راود الشك أحد زملائه في مدى إيثاره. يمكنكم أن تتصوروا كم من الأعمال المختلفة قد انقضت على مدار خمسة وأربعين عامًا على يديه، ولم يحدث قَطُّ أن غضب أوسيب يفسيتش من أي منها أو أبدى استياءه، أو حتى حرمته هذه الأعمال من روحه المعنوية المرحة. لم يحدث طوال حياته قَطُّ أن عَبَرَ نطاق العمل الورقي المكتبي إلى ظروف الوجود والأشخاص الحقيقيين. كان ينظر إلى شؤون العمل نظرة مجردة كما ينظر المرء إلى سلسلة من العلاقات المتعددة والأخبار والتقارير والتحقيقات، في ظل نظام معين وقواعد محددة مزدهرة. في مواصلته للعمل الخاص بطاولته، أو في سماحه للأمور بالتقدم - على حد تعبير رؤساء الطاولات الرومانسيين - كان يضع نفسه في الاعتبار من دون شك، حيث يسعى لتنظيم أمور طاولته وإنهاء شؤونه بقدر المستطاع، فهذه مثلًا شهادة في كراسنويرسك لا يمكن أن تعود قبل عامين، أو حتى قد يتعلق الأمر بإعداد قرار نهائي، أو - وكان يحب ذلك أكثر من أي شيء آخر - نقل العمل إلى ديوان آخر، حيث يتوفر موظف آخر يستطيع أن ينهي الأمر وفقًا لقواعد لعب الورق! لقد كان منصفًا في العمل لدرجة أنه لم يظن قَطُّ أنه ربما يكون هناك أشخاص يطوفون العالم قبل أن يعود الاستفسار من كراسنويرسك؛ فثميس[١٣٣] يجب أن تكون عمياء.

---

(١٣٣) إلهة القانون في بعض الأساطير اليونانية.

أخرج هذا الزميل المبجل لفلاديمير، بعد تعيين الأخير بنحو ثلاثة شهور، وإنهائه فحص الأوراق والمسائل الرسمية الخاصة بحجم الإمدادات الجديدة لأربعة كُتاب، صندوق سعوطه الفضي وقدَّمه للمساعد قائلًا:

- جرب هذا يا فاسيلي فاسيليفيتش. لقد جلبه أحد الزملاء من مدينة فلاديمير.

- تبغ ممتاز.

هكذا أعرب المساعد في غضون دقيقة قضاها بين الحياة والموت، بعد أن استنشق كمية ضخمة من المسحوق الجاف ذي اللون الأخضر الفاتح.

- ماذا؟ هل أبعده يا سيدي؟

هكذا قال رئيس الطاولة وهو في تمام الرضا من إفساده للغشاء الأنفي لمساعده. عندما أفاق المساعد لنفسه تدريجيًا بعد أن أصابه الشلل تقريبًا من هذا التبغ، ومسح عينيه وأنفه وجبهته وحتى ذقنه بمنديله الأزرق، سأل:

- آه يا أوسيب يفسيتش! لم أسألك بعد كيف أعجبك مجددًا هذا الشاب القادم من موسكو؟ أهو من موسكو فعلًا؟

- يبدو هذا الصغير مفعمًا بالحيوية، ويقولون إن المدير عيَّنه بنفسه.

- نعم، بالضبط. يستحيل إبعاد هذا الذكي الصغير. سمعته بالأمس يتجادل مع بافل بافليتش، والأخير كما تعرف جيدًا لا يحب أن يعترض

أحد على أي شيء، ولكن بيلتوف هذا لا يسير حسب هوى الآخرين. بدأ الغضب يصيب بافل بافليتش. كان يقول له: أقول لك كذا وكذا، بينما يجيب بيلتوف: لا عذرًا، بل الأمر كذا وكذا. راقب الأمر مسرورًا. بعد أن انصرف بيلتوف قال بافل بافليتش لصديقه: «الأجدر به أن يحافظ على رسوخ أمور الديوان، وإلا تصرفت بنفسي مع هذا الجامعي العنيد. لا يهمني من عيَّنه».

قال رئيس الديوان بطل حكايتنا، وكان من الواضح أن انطباعًا سعيدًا قد انطبع في داخله هو أيضًا:

– أمر مثير! أيقول إنه لا يهمه من عيَّنه؟ آه يا بافليتش! وقال ذلك وعينه في عين محدثه؟

– لا، قرابة النهاية رطن بشيء من الفرنسية. سأعترف لك بالطريقة التي نظرت بها إلى هذه المزحة، وما خطر في بالي؛ تخيلت أنني وأوسيب يفسيتش سنظل جالسين بالعرض إلى الطاولة الرباعية، وهو يتحرك هناك، في المكان الخاص بالمدير.

قال مدير الطاولة:

– آه من رأسك يا فاسيلي فاسيليتش! من الواضح أنني لن أجد أذكي منك في أي طاولة ثلاثية. إنك تشق طريقك بسهولة. لقد شاهدت يا أخي في زمني حكايات كثيرة تكفي ليخرج منها أناس عمليون حقيقيون ومديرو دواوين. لا يتسم هذا الغندور بما يكفي ليصير مديرًا. صحيح أنه ذكي ومتحمس، ولكن حتى متى يمكن أن يكفيه هذا الذكاء وتلك الحماسة؟ أتراهن بزجاجة أفسنتين على أنه لن يصل إلى منصب رئيس طاولة؟

- لا أريد أن أراهن، لكني قرأت بالأمس أوراقًا كتبها بنفسه، ووجدت أنه يكتب بصورة رائعة. يا إلهي! لا يمكن للمرء أن يقرأ أسلوبًا كأسلوبه إلا في «ابن الوطن»[١٣٤].

- رأيتها، فلديَّ عين هناك. أنت محق، الأسلوب جميل وراسخ، ومع ذلك ليس إلى هذه الدرجة، بل وأقول إنه أعمى. إنه لا يعرف التركيبات. إذا لم يكن يعرفها بسبب غبائه، كان عليه أن يعرفها حتى بحكم العادة، ولكن هذا لا يشكل بلية كبيرة. يومًا ما سيتعلم ذلك، لأنه لن يعرف ذلك من عقله وحسب. في العمل يثير ضجيجًا من لا شيء، والأهم من كل ذلك أن كل شيء يمضي بلا طائل. إنه لا يبالي بنوع الخبر وما إذا كان في مساره الصحيح وإلى من يرسله. نسمي هذا بالروسية: «الاستيلاء على القمة». اسأله وستجد أنه يريد أن يعلمنا نحن الكبار. لا يا أخي. ستدرك سريعًا أن كفاءته العملية ضئيلة. أنا نفسي قلت في البداية: «يبدو أنه غير أحمق. ربما ستكون هناك طريقة. صحيح أنه غير معتاد على العمل بعد، لكن من المؤكد أنه سيتعود». أما الآن، تجده على مدار ثلاثة أشهر يساير مختلف أنواع الحماقات، ويفعل ذلك بكل حماسة، وكأن الأمر - وليغفر الله لي قولي هذا - يتمثل في أن كبارنا يفسدون الأمر وهو يخلصنا، ولكن إلى أين سينتهي به كل ذلك؟ لقد رأينا مثل هؤلاء الشباب، هو ليس الأول وليس الأخير. حياتهم كلها تتمحور حول الحديث وحسب؛ كأن أقول إنني سأقضي على التجاوزات، لكني لا أعرف ما هي التجاوزات وما طبيعتها. يظل

---

(١٣٤) مجلة روسية تاريخية وأدبية واجتماعية.

يصرخ ويصرخ، لكنه يظل طوال حياته موظفًا من دون أي مهام، يسخر منا بسبب حماقته. هكذا هو الأمر مع عمال الدواوين؛ إنهم يفعلون كل شيء. إذا أردت أن تقدم قضيتك إلى المجلس المدني فعليك أن تدفع لهم، وإذا كنت لا تعرف كيفية القيام بالأمر، تذهب إليهم أيضًا. أزيز!

هكذا أنهى رئيس الطاولة حديثه الفصيح.

في حقيقة الأمر فكر رئيس الطاولة في الأمر تفكيرًا جيدًا، وبدا الأمر كما لو أن الأحداث تسارعت لتثبت صحة كلماته. سرعان ما اكتنفت البرودة بيلتوف تجاه أعمال الديوان وصار حاد الطباع، غير مبالٍ. استدعاه رئيس الديوان وحدَّثه حديث أم حنون، ولكن ذلك لم يُجدِ نفعًا. دعاه الوزير وحدَّثه حديث أب حنون بصورة مؤثرة، حتى إن المدير بعدما سمع عن ذلك الحديث ذرف دموعه، بالرغم من أنه لم يكن من السهل أن يتأثر بشيء، وهو الأمر الذي كان يعرفه جيدًا جميع الخفراء الذين عملوا تحت إمرته. لم يُجدِ هذا نفعًا أيضًا. كان بيلتوف قد بدأ في نسيان الكثير من الأمور، حتى إنه صار يستاء تحديدًا من هذه الطريقة التي يتدخل بها غرباء وكأنهم أقرباء؛ صار يستاء تحديدًا من هذه الرغبات الأبوية في إصلاح شؤونه. باختصار، بعد مرور ثلاثة أشهر على هذا الحوار الفصيح الذي دار بين رئيس الطاولة ومساعده غضب أوسيب يفسيتش على أحد الكتبة؛ وهو الأمر الغريب، وقال:

- متى ستتعلم؟ كم مرة توجب عليَّ أن أكتب لك، وفي كل مرة أغير لك المُسوَّدة برمتها؟ كل هذا بسبب أنك لا تفكر في عملك، بل ذهنك مشغول بفستان بمحل بجادة أدميرالتيسكي، وتتبع النساء.

رأيتك أكثر من مرة هناك. حسنًا، اكتب: «وحتى يتمتع بحرية العيش في الإمبراطورية الروسية قدمنا لسكرتير المقاطعة المتقاعد بيلتوف جواز السفر هذا موقعًا حسب الأصول، ومرفقًا به الختم الرسمي». هل انتهيت؟ تفضل.

وتمتم بصوت خفيض:

- من الفناء... المقاطعة... الصف الدراسي... الهيئة... ١٨ سبتمبر... أرثوذكسي... حسنًا!

ووقَّع أوسيب يفسيتش على طرف الورقة السفلي بحروف صغيرة جدًّا.

- خذ الورقة واملأ البيانات، وعندما توقعها أرسلها إلى مكتب التسجيل، وهناك سيختمونها من الجانب حيث يكون مكتوبًا: «استلام جواز السفر»، وسيصلك غدًا.

- حسنًا يا فاسيلي فاسيليتش، ألا تريد الرهان على الأفستين؟ أم أن الأمر قد انتهى الآن؟ لا شيء يمكن قوله. بارع حقًّا!

أدلى المساعد بملاحظة فكهة:

- أربعة عشر عامًا وستة أشهر بالتمام ولم يعرف بعد كيف يتعامل مع مشبك!

انفجر رئيس الطاولة في الضحك، وتبعه كل أعضاء الطاولة.

بهذه الضحكة الأوليمبية انتهت فترة عمل صاحبنا الطيب فلاديمير بتروفيتش بيلتوف. حدث ذلك قبل عشرة أعوام بالضبط من اليوم الذي

كانوا يقدمون فيه الحلوى على طاولة فيرا فاسيليفنا ورن الجرس؛ الأمر الذي لم يتحمله ماكسيم إيفانوفيتش فهرع إلى النافذة. ماذا فعل بيلتوف خلال هذه الأعوام العشرة؟

كل شيء، أو تقريبًا كل شيء.

ماذا فعل؟

لا شيء، أو تقريبًا لا شيء.

من لا يعرف ذلك الفأل القديم الذي مفاده أن الأطفال الذين يبدون أنهم يعدون بالكثير نادرًا ما يحققون ذلك؟ تُرى ما السبب؟ أيمكن أن تكون القوى تتطور في الإنسان بكمية معينة، إذا استُهلِكت في الشباب لا يتبقى منها شيء لسن الرشد؟ سؤال حكيم! لا يمكنني أن أجيب عنه، ولا أريد ذلك، لكني أعتقد أنه يجب البحث عن إجابته في البيئة المحيطة والتأثيرات والاحتكاكات أكثر من البحث عنها في مفهوم سخيف عن تركيب الإنسان النفسي. بغض النظر عن كل شيء تحقق الفأل في شخصية بيلتوف. كان بيلتوف غاضبًا من الظروف المحيطة به بطيشه الشبابي ولا عقلانيته الحالمة، شاعرًا في الآن ذاته بهلع داخلي اكتنف كل شيء إلى الدرجة التي عبَّر عنها أوسيب يفسيتش بفصاحة حينما قال: «الكادحون فقط هم من يفعلون ذلك»، ويعود ذلك إلى أن حيوانات الغرير وفئران الفراعنة[١٣٥] لا تستطيع أن تفعل شيئًا، وتضحي

(١٣٥) اتخذ بعض الفراعنة الفئران إلهًا.

الإنسانية بها لتحقيق رغبة واحدة ومسعى واحدًا؛ كثيرًا ما يكون نبيلًا، لكنه غالبًا ما يكون غير مثمر.

إذا لم يكن الصباح رائعًا فلا بد أن يكون صباحًا بطرسبرجيًا؛ صباحًا تتحد فيه كل مكدرات فصول السنة الأربعة، مثل الثلج المبلل الذي يضرب النوافذ في الحادية عشرة صباحًا، وتكون الشمس لم تبزغ بعد، ويبدو الوقت وكأنه الغسق. في أحد هذه الصباحات كانت بيلتوفا جالسة عند الموقد الذي دار عنده حديثها الأخير مع الجنيفي. كان فلاديمير مستلقيًا على الأريكة، وكتاب بين يديه، يقرأه ولا يقرأه، وأخيرًا قرر نهائيًا ألا يقرأه، ووضعه على الطاولة، وبعد أن ظل جالسًا لمدة طويلة متكاسلًا ومستغرقًا في التفكير قال:

- أتعرفين ماذا خطر على بالي يا ماما؟ كان عمي محقًا عندما نصحني بالالتحاق بكلية الطب. ما رأيك، ألا تجب عليَّ دراسة الطب؟

أجابت بيلتوفا بوداعتها المعتادة.

- كما تريد يا صديقي. شيء واحد يخيفني يا فولوديا؛ سيتوجب عليك الاقتراب من المرضى، وثمة أمراض معدية.

قال فلاديمير مبتسمًا، وقد أمسك بيدها برقة:

- ماما العزيزة، كم أنتِ أنانية، مليئة بالحب! العيش من دون عمل أي شيء أقل خطورة بالطبع، لكنني أفترض أن بعض الناس مدعوون للتبطل وبعضهم مدعو للعمل. لا يمكن لكل من يرغب في التبطل أن يعيش حياة البطالة حقًا.

- يمكنك أن تجرب.

في صباح اليوم التالي ظهر فلاديمير في ردهة التشريح بالحماسة ذاتها التي أقبل بها على العمل في الديوان، وبدأ في دراسة التشريح. لكنه لم يشعر في هذه الردهة بذلك الحب الصافي للعلم الذي رافقه في جامعة موسكو. مهما خدع نفسه كان الطب بالنسبة له هدفًا للهروب، وظل يتنقل فيه من الفشل إلى الملل إلى عدم وجود شيء ليفعله. لقد كانت هناك بالفعل مسافة كبيرة تفصل بين الطالب المرح الذي كانه، والموظف المتقاعد الهاوي للطب. نظرًا لأنه قد وُهِب سرعة بديهة عثر سريعًا في المجال الجديد الذي انشغل به على تلك الأسئلة التي يصمت الطب أمام الإجابة عنها علميًّا، والتي يعتمد كل شيء آخر على الإجابة عنها. توقف أمام هذه الأسئلة، وأراد أن يتوصل إلى هذه الإجابات بالقوة وبشجاعة التفكير اليائس، ولم يوجِّه انتباهه إلى مسألة أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة تكون ثمرة أعمال طويلة ومستمرة بلا تعب ولا كلل، وهو ليست لديه طاقة لمثل هذه الأعمال. اكتنفته البرودة بدرجة لافتة تجاه دراسة الطب، وبالأكثر تجاه الأطباء أنفسهم. لقد وجد فيهم مجددًا نموذج رفاقه بالديوان، وأراد منهم أن يكرسوا كل حياتهم لحل هذه المسائل التي شغلته، كما أرادهم أن يذهبوا إلى فراش المريض ذهابهم إلى أقدس الشعائر الدينية، بينما أرادوا هم أن يقضوا المساء في لعب الورق. لقد أرادوا أن يتدربوا لكن لم يكن لديهم الوقت الكافي لذلك.

فكر فلاديمير في نفسه: «لا. لا أريد أن أصير طبيبًا. كم سأكون وقحًا لو جرؤت على علاج مريض في ظل هذا النزاع المعاصر في القضايا الفيسيولوجية كافة! فلأنحِّ كل ما هو عملي جانبًا. أي نوع من الموظفين أنا؟ أي نوع من العلماء أنا؟ أنا... أنا لا أستطيع الاعتراف بذلك، لكني... لكني فنان!». برسمه بعض الصور للجمجمة خمن بيلتوف أنه فنان. لُفِّق الأمر بنجاح! تمت تغطية القضبان السفلية لنوافذ حجرة مكتبه بستائر بأقمشة سميكة لا يمكن رؤية شيء من خلالها، وإلى جانب جمجمتين ظهر نموذج صغير لكوكب الزهرة. ظهرت في كل مكان، كما لو أنها تخرج من تحت الأرض، رؤوس مصنوعة من الجبس يرتسم عليها تعبير الهلع والخزي والغيرة والبسالة، بالطريقة التي يفهمها بها الخبير في فن النحت؛ أي بطريقة لا تظهر بها هذه المشاعر في الطبيعة. توقف فلاديمير عن تصفيف شعره، وصار يقضي فترة الصباح بأكملها مرتديًا قميصًا يمثل هذا الزي البروليتاري الذي حاكه له حائك أرستقراطي في جادة نيفسكي. صار فلاديمير يمضي أسبوعيًّا إلى متحف الإرميتاج[١٣٦]، ويجلس ليعمل بكد خلف حامل اللوحات. كانت الأم تسير أحيانًا على أطراف أصابعها خشية أن تزعج تيتيان المستقبلي[١٣٧] عن إتمام عمله. بدأ يتحدث عن إيطاليا، وعن رسم لوحة تاريخية بذوق معاصر وقوي. تخيل لقاء بيرون القادم من سيبيريا بفون مونيش الذاهب إلى سيبيريا، وحولهما منظر طبيعي شتوي

---

(١٣٦) متحف في سان بطرسبرج، يعد واحدًا من أكبر المتاحف في العالم، ويحوي ٣ ملايين تحفة فنية، وهو واحد من أقدم المتاحف والمعارض الفنية والبشرية والتاريخية والثقافية في العالم.

(١٣٧) تيسيانو فيتشيليو، رسام إيطالي شهير من البندقية.

ممثلًا في الثلج والمركبات والفولجا.

غني عن القول أن الرسم لم يُرضِ بيلتوف. كان يفتقر إلى الرضا عن أعماله. لم يرضَ عن هذا الوسط الأرستقراطي المحيط به، وهذا التفاعل الحيوي والخداع اللذان يدعمان الفنان. لم يستطع شيء أن يستفز نشاطه، حيث لم يكن ضروريًا على الإطلاق، وكان مشروطًا برغبته الشخصية وحسب. لكن أكثر ما أعاقه هو أحلامه السالفة عن الوظيفة والنشاط المدني. لا شيء في العالم مغوٍ للطبيعة المتقدة مثل المشاركة في الأعمال الجارية؛ في التاريخ الذي يُصنع أمام عيني المرء. من يسمح لأحلام من هذا الطراز أن تعتمل في داخله يفسد نفسه فيما يتعلق ببقية المجالات. شخص من هذه النوعية، سيظل ضيفًا في كل شيء، بغض النظر عما يفعله، حيث إن مجاله غير المشروط ليس هناك. شخص كهذا سيُثير الجدال حول الفن، وإذا صار رسامًا فستجده يرسم فكره، وإذا صار موسيقيًا فستجده آخذًا في الغناء. بالانتقال إلى مجال آخر سوف يخدع نفسه كما هي الحال مع الإنسان الذي يترك وطنه، حيث يحاول أن يؤكد لنفسه أن الأمور سيان، وأن وطنه في المكان الذي يكون مفيدًا فيه. سيحاول فعل ذلك، ولكن في داخله صوتًا مثابرًا. صوت يدعوه إلى الذهاب إلى مكان آخر، ويُذكِّره بأغانٍ أخرى وطبيعة مختلفة. تسكعت هذه الأفكار في نفس بيلتوف، على نحو ظاهر وخفي على السواء، وأخذ ينظر بحسد إلى أحد الألمان الذي يعيش على العزف على البيانو، وإلى بيتهوفين السعيد، وأخذ يدرس المصادر الأولية للموسيقى دراسة معاصرة؛ أي بحسب الكُتاب القدامى.

آه من الأمسيات البطرسبرجية الطويلة التي يستحيل فيها الرسم! كثيرًا ما كان بيلتوف يقضي هذه الأمسيات عند أرملة عاشقة للرسم. كانت الأرملة شابة وجميلة، تعيش في ترف جذاب، وعلى مستوى رفيع من الثقافة. في منزلها كانت المرة الأولى التي تفوه فيها فلاديمير بخجل بأول كلمة حب، وجرؤ على توقيع أول سند مالي بمبلغ ضخم، خسره في هذه الليلة السعيدة عندما لعب الورق ذاهلًا وثملًا، من دون أن يوجِّه أي انتباه إلى اللعب. وهل كان في حالة مختلفة قبل اللعب؟ جلستْ أمامه وقرأ في عينيها بوضوح الحب والاهتمام!

لن أحكي لكم الآن الحكاية الكاملة لبطلي، حيث إن أحداثها عادية تمامًا، لكنها انعكست بدرجة غير عادية في نفسه. سأقول باختصار إنه بعد تجربة الحب التي انقضت فيها حيوات كثيرة، وبعد بضعة فواتير انقضت فيها مبالغ ضخمة، رحل إلى الخارج ليبحث عن عزاء، ليبحث عن انطباعات جديدة، ليبحث عن مشاغل أخرى... إلخ، أما أمه التي صارت ضعيفة وهرمة، ليس من أثر العمر، فقد رحلت إلى بيلي بولي للتعامل مع الثغرات التي صنعتها سنداته، ودفع المبالغ السنوية التي خسرها ابنها في دقائق قليلة، ومراكمة مبالغ مالية جديدة حتى لا يشعر فولوديا بالحاجة إلى شيء وهو خارج البلاد. لم يكن كل ذلك سهلًا على بيلتوفا، فبالرغم من محبتها لابنها لكنها لم تتمتع بتلك المقدرات بوصفها سيدة من زاسينكا، وكانت مستعدة دائمًا للتسامح، وسمحت دائمًا لنفسها بالتعرض للخداع، ولم يكن ذلك يحدث بسبب إهمالها، ولا بسبب ضيق أفقها، ولكن بسبب رقتها المرهفة التي كانت تحظر

عليها أن تكتشف ما تراه فعلًا. توسل فلاحو بيلي بولي لله من أجل سيدتهم، ودفعوا ضريبة رائعة. كان بيلتوف يكتب كثيرًا إلى أمه، وربما بوسعكم أن تروا هنا أن ثمة حبًّا آخر ليس فخورًا وطموحًا إلى هذه الدرجة التي يتمثل فيها في شخصية واحدة بعينها، لكنه حب لا يفتر من أثر الأيام ولا الأمراض التي تجعل صاحبها في عمره المتقدم يفتح خطابًا بيدين مرتعشتين، وتنهمر الدموع المريرة من العينين الهرمتين على خيوط قماش باهظ الثمن. كانت خطابات الابن بالنسبة لبيلتوفا مصدرًا للحياة. لقد دعمتها هذه الخطابات وواستها، وكانت تتصفح كل خطاب منها مائة مرة. كانت خطاباته محزنة بالرغم من امتلائها بالحب، وبالرغم أيضًا من إخفاء الكثير عن قلب الأم الضعيف. كان من الواضح أن الملل يعذب الشاب، وأن دور المشاهد الذي يستبقي فيه المسافر نفسه قد صار مملًّا له. لقد تفحص أوروبا، ولم يتبقَّ له شيء ليفعله، والجميع بجواره كانوا مشغولين كما يكون الناس عادة مشغولين في بلادهم. لقد رأى نفسه ضيفًا يُدعى إلى الموائد ويغمرونه بالكياسة، لكنهم لا يُطلعونه على أسرارهم العائلية، ويحين الوقت في النهاية لينفرد بنفسه. ولكن عندما كان يتذكر لمرة واحدة مغامراته البطرسبرجية كانت الكآبة تكتنفه، ولا يعرف ما الذي جعله ينتقل من باريس إلى لندن. قبل وصول بيلتوف بعدة أشهر وصل خطاب منه إلى الأم من مدينة مونبلييه (مدينة فرنسية) أنبأها فيه أنه ذاهب إلى سويسرا، وأنه أُصيب قليلًا بالبرد في جبال البرانس[١٣٨]، ولذلك سوف يقضي خمسة أيام أخرى في

---

(١٣٨) سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، بين فرنسا وإسبانيا، وتمثل الحدود الطبيعية بينهما.

مونبلييه، وتعهد في خطابه أن يكتب بشأن عودته إلى روسيا عندما يغادر مونبلييه. قال: «أُصيب قليلًا بالبرد»، وكان هذا كافيًا لتشعر الأم بالهلع وتنتظر خطابًا منه في الطريق. لكن مر أسبوعان ولم تصلها خطابات. مر قرابة شهر ولم تصل أي خطابات. كانت المسكينة محرومة حتى من آخر عزاء في انفصالها عنه؛ ألا وهو كتابة خطاب له والثقة في أنه سيصله، ونظرًا لأنها لم تكن تعرف ما إن كان خطابها سيصله أم لا، أرسلت خطابين إلى باريس تطلب فيهما النجدة بضمان وصاية السفارة الروسية هناك. باستلقائها للنوم كانت تأمر دونيا كل يوم أن ترسل الحوذي مبكرًا إلى عاصمة المقاطعة، ليستعلم عن وصول خطابات لها، ولكن لم تكن هناك خطابات بالرغم من أنها كانت تعرف جيدًا أن البريد يصل مرة واحدة أسبوعيًا. كان مدير مكتب البريد بالمدينة شيخًا طيبًا، مخلصًا لبيلتوفا، وفي كل مرة كان يُعلمها أنه لم تصلها أي خطابات، وأنه ما إن يصل أي خطاب لها فسوف يوصله لها بنفسه أو يرسله مع المناوب. بأي حزن متبلد كانت الأم تستمع لهذه الإجابة بعد انتظارها القلق على مدار ساعات طويلة! بدأت فكرة السفر تراود ذهنها، وأرادت أن ترسل في طلب جارها كابتن المدفعية المتقاعد الذي كانت تعود إليه في كل المسائل القانونية المهمة؛ مثلًا كانت تستشيره في تقديم تفسير لائق عن سبب عدم وجود متجر إضافي وما إلى ذلك. أرادت الآن أن تستعلم منه عن المكان الذي يمكنها أن تستصدر منه جواز سفر؛ هل من الديوان الرسمي أم من محكمة المقاطعة؟ ازداد ملل مرور أيام الانتظار، حتى إن الخريف وصل إلى باحة المنزل، وتحولت أشجار الزيزفون إلى

اللون الأصفر منذ وقت طويل، وصارت الأقدام تسحق الأوراق الجافة، وصارت تمطر لأيام متواصلة، ويبدو المطر يهبط على مضض ولكن بلا انقطاع. ذات مساء طلبت الفتاة التي كانت تعيش لدى بيلتوفا أن تذهب لحضور صلاة عشية.

- حسنًا اذهبي، ولكن أي يوم يوافق الغد؟

- من غير المعقول أن تكوني قد نسيتِ أن غدًا يوافق ١٧ سبتمبر، وهو يوم قديستكِ الشهيدة صوفيا[١٣٩] وبناتها الحب والإيمان والأمل!

- اذهبي يا دونيا وصلي من أجل فولوديا أيضًا.

هكذا قالت بيلتوفا والدموع تترقرق في عينيها.

يظل الإنسان طفلًا حتى يبلغ مائة عام، ولكن لو عاش حتى بلغ ٥٠٠ عام لصار كل ما عاشه يمثل جانبًا واحدًا من وجوده الطفولي. سيكون الأمر مؤسفًا لو بدِّد هذا الجانب؛ فهو مليء بالشعر. ما هي أعياد الاسم[١٤٠]؟ لماذا يشعر المرء بالحزن أو الفرح على نحو أقوى في اليوم السابق لهذا العيد وليس الآجل؟ لا أعرف السبب، ولكن هكذا يحدث الأمر. لا يقتصر الأمر على أعياد الاسم، ولكن في كل عيد ميلاد ترتج النفس بقوة. يقول أحدهم: «يبدو أن اليوم هو الثالث من مارس»، خشية أن يفوِّت موعد بيع الضيعة في المزاد العلني. ويجيبه

---

(١٣٩) قديسة قبطية من مصر، لها تحولات من الوثنية إلى المسيحية، ورزقت بثلاث بنات أسمتهن بأسماء يونانية تعني: الحب - الإيمان - الأمل. نظرًا لأن البطلة تدعى صوفيا على اسم هذه القديسة، فمن المفترض أنها تحتفل بيوم تذكار هذه القديسة.

(١٤٠) العيد الذي يحتفل فيه المرء بتذكار القديس الذي سُمِّي على اسمه.

آخر: «الثالث من مارس. نعم الثالث من مارس»، وفكره مشغول بأمر قد حدث منذ ثماني سنوات؛ إنه يتذكر اللقاء الأول بعد الانفصال، كما يتذكر التفاصيل كافة، ويضيف بطريقة شعائرية نوعًا ما: «ثماني سنوات بالضبط!». إنه يخشى أن يدنس هذا اليوم، ويشعر أن هذا عيد حقًّا، ولا يخطر على باله أنه في ١٣ مارس بالضبط سوف يبلغ ٨ سنوات و٩ أيام، وأن كل يوم هو نوعًا ما عيد مولده. هكذا كان الأمر مع بيلتوفا. فكرة الفراق، والتفكير في عدم وجود خطابات، جعلاها أكثر حزنًا، وما جعل أفكارها أكثر كآبة هو التفكير في أن بيلتوف لن يأتي ليهنئها، وأنه قد ينسى الأمر. لقد استغرقت في حلم يقظة عميق، وخُيِّل لها فولوديا وقد بلغ ١٥ عامًا، وأنها ستجد في اليوم التالي الغرفة الخاصة بشرب الشاي مزينة بالزهور، وكيف لم يسمح لها فولوديا بالدخول إلى هذه الغرفة، وكيف خدعها. تخيلت كيف أنها خمنت الأمر، لكنها أخفت ذلك عن فولوديا، وكيف ساعدها السيد جوزيف بكد في تزيين المكان. تخيلت فولوديا أيضًا في مونوبلييه مريضًا بين يدي صاحب خان جشع، وهنا خشيت أن تترك مخيلتها تمضي إلى ما هو أكثر من ذلك، وأسرعت تواسي نفسها بفكرة أن السيد جوزيف قد يلتقي به هناك ويقيم معه. إنه شديد اللطف والطيبة، كما أنه يحب فولوديا، وسوف يمضي معه، وهو يلتزم بشدة بأوامر الطبيب، وسوف ينظر إليه عندما يغفو. ولكن لماذا يكون جوزيف في مونبلييه؟ لماذا؟ ربما استطاع فولوديا أن يكتب له كصديق، ولكن... لكنها شعرت بضيق لا يُحتمل مجددًا، ومرت بذهنها سلسلة من الصور المقبضة وقد تشابكت مع ذكريات مشرقة،

وظلت تعتمل في نفسها طوال الليل.

في اليوم التالي انشغلت بيلتوفا بمختلف الأعمال، ولهت نفسها بقدر الإمكان. منذ الصباح الباكر امتلأت الردهة بأرستقراطيي بيلي بولي، وتقدمهم العمدة، وقد ارتدى قفطانًا أزرق، وأبقى في طبقه الضخم قطعة هائلة الحجم من كعكة العيد التي أرسل عشرة أشخاص لطلبها من عاصمة المقاطعة. انبعثت من هذه الكعكة رائحة زيت القنب، وكانت مستعدة لإيقاف أي محاولة وقحة للشك في جودتها. بالقرب منها، كان ثمة عصير برتقال وبيض دجاج على حافة الطبق. بين الرؤوس الجميلة والعظيمة لرجالنا الملتحين تميز فرد واحد من لجنة الزيمستفو[١٤١] بفضل منظر ردائه؛ فلم يكن حليق الذقن وحسب، بل كان مقطوعًا أيضًا من عدة مواضع، حتى إن يده - ولا أعرف ما إذا كان ذلك يعود إلى كثرة الخطابات أم إلى أنه لم يمر قَطُّ بصباح قروي فاتن من دون أن يثمل في الحانة على حساب الإدارة - كانت قد اكتسبت عادة ارتجاف غريبة؛ الأمر الذي حال بينه وبين شم رائحة التبغ والحلاقة بإحكام. ارتدى سترة طويلة زرقاء وسروالًا مخمليًّا وحذاء طويل العنق، وكأنه يعيد إلى ذهنه صورة حيوان شهير في أستراليا؛ ألا وهو خلد الماء[١٤٢] حيث يتحد فيه شكل الوحش والطائر والبرمائيات

---

(١٤١) تعني الحكم الذاتي، وهي مجالس محلية أنشئت في القرى بناء على اعتماد بعض القوانين التي من شأنها تحسين الوضع الصعب الذي كان الفلاحون الروس يواجهونه بعد إصلاح عام ١٨٦١، وإلغاء نظام القنانة في روسيا.

(١٤٢) ثديِيٌّ نصف مائي بيُوض، يستوطن تسمانيا والسَّواحل الشرقيَّة من أستُراليا على مقربةٍ من الأنهار والبُحيرات.

بصورة مثيرة للاشمئزاز. بين وقت وآخر كان يتصاعد خوار عجل شاب يتغذى منذ ستة أسابيع على اللبن. كان هذا العجل هو الأضحية التي أعدها الفلاحون بالفعل ليطعموا السادة. لم تستطع بيلتوفا أن تتم الاحتفال كما يجب، وقد أدركت ذلك بنفسها، وكانت دائمًا ما تفقد السيطرة في مثل هذه الحالات. بعد الاحتفال حان موعد القداس، وأدوا الصلاة، وفي هذا الوقت وصل قائد المدفعية، لكنه لم يأتِ هذه المرة من أجل استشارة قانونية، بل أتى بلباسه العسكري. عندما عادوا من الكنيسة إلى المنزل كانت بيلتوفا خائفة للغاية من أن يحدث صدع ما. جلب أحد الجيران في مركبته مدفعًا صغيرًا، وأخذ يطلق منه القذائف كتعبير عن الفرحة. نبح كلب بيلتوفا، ولأنه حيوان غبي لم يستطع أن يفهم لماذا يطلق أحدهم القذائف من دون هدف، وقد عانى بشدة في ظل هذه القذائف من عدم قدرته على الركض خلف الأرانب البرية، أو طيور الطيهوج الأسود واقتناصها. بعودتهم إلى المنزل أمرت بيلتوفا بتقديم الحلوى، وفجأة تعالى رنين الأجراس، وقطعت عربة فاخرة الجسر بسرعة شديدة منحنية من فوق قمة المرتفع، ثم تلاشت، وبمرور دقيقتين ظهرت بالقرب. توجه الحوذي مباشرة إلى منزل السادة بالعربة وقد قادها بصورة ممتازة، وكبح جماح الخيل بمهارة عند المدخل. كان هو السيد مدير مكتب البريد، وخرج من العربة حيث لم يحتمل ألا يقول للحوذي:

– آه يا بوجداشكا! أنت كلب. كلب حقيقي. بشرفي يمكنني أن أؤكد ذلك.

شعر بوجداشكا بالطبع بالامتنان لهذه المجاملة من قِبل مدير مكتب البريد، وضيَّق عينه اليمنى وعدَّل وضع قبعته قائلًا:

- لا تتحمس أكثر من هذا سعادتكم وإلا قد يكون الأمر أسوأ بالنسبة لك.

دخل مدير مكتب البريد غرفة الاستقبال بصورة مهيبة غامضة، وشعور بالرضا ظاهر على كل ملامحه، ثم مضى ليُقبِّل يد بيلتوفا.

- لي الشرف أيتها الأم صوفيا ألكسيفنا لأهنئكِ بعيد شفيعكِ المهيب، وأتمنى لكِ صحة طيبة. مرحبًا يا سبيريدون فاسيليفيتش (وجَّه العبارة الأخيرة لضابط المدفعية).

أجاب ضابط المدفعية:

- فاسيلي لوجونيفيتش، أقدم احترامي لك.

واصل فاسيلي لوجونيفيتش:

- لقد تجرأت بمناسبة عيد شفيعكِ على أن أجلب هدية صغيرة لكِ. وأرجو أن تسامحيني على تواضع الهدية. إنها ليست باهظة الثمن؛ لم تكلفني أكثر من روبل ثمنًا لنفقات الميناء والتأمين، وخمسة عشر كوبيكًا، ولا يتجاوز وزنها ما يُكلِّف أكثر من ٨ جريفن[١٤٣]. تفضلي أيتها الأم: خطابان من فلاديمير بتروفيتش؛ واحد منهما يبدو أنه من مونترايه (مدينة فرنسية - المترجم)، والآخر من جنيف، مختومان بختم المحكمة. عذرًا أيتها الأم، أنا إنسان خاطئ: حُفِظ الخطاب الأول لمدة

(١٤٣) عملة روسية قديمة تساوي ١٠ كوبيك.

أسبوعين، والآخر لخمسة أيام حتى يومنا هذا. الحق أني فكرت في أمر واحد؛ قلت في نفسي أن أواسي صوفيا ألكسيفنا في عيد شفيعها بهما.

سلكت صوفيا ألكسيفنا مع مدير مكتب البريد بالطريقة التي أدى بها الممثل الشهير أوفرين حكاية ثيرامينيس؛ أي أنها لم تسمع الحديث كاملًا منذ أن أخرج الخطابين، وانتزعت الحزمة بيد مرتعشة، وأرادت أن تقرأ، ففارقت مجلسها وخرجت.

شعر مدير مكتب البريد بتمام الرضا من أن الحزن لم يقتل بيلتوفا في البداية، ثم شعر بالسعادة، حتى إنه فرك يديه بلطف، وهكذا تذوق طعم نجاح مفاجأته التي مفادها أنه لا يوجد في العالم قلب قاسٍ بهذه الدرجة التي تُمكِّنه أن يجد في نفسه القوى على لومه على هذه المزحة وعقابه عليها. في هذه المرة قال الجار:

- حسنًا يا فاسيلي لوجونيفيتش، لا أجد ما يمكن قوله على الصدمة التي قدمتها بالخطاب! لكن بينما تقرأ صوفيا الخطابين سأطلب أنا ضيافتي، ولا أعتقد أنها كانت لتمانع؛ فكل ما في الأمر أني سأنصرف مبكرًا جدًّا.

وطلبوا الضيافة.

كان أحد الخطابين قد كُتِب في الطريق، والآخر من جنيف، وقد انتهى بالسطور التالية: «هذا اللقاء يا أمي الحبيبة، هذا الحوار قد هزني بشدة، وكما كتبت في البداية، لقد قررت أن أعود وأبدأ العمل فيما يتعلق بالانتخابات. سوف أرحل غدًا من هنا، وسأقضي شهرًا على ضفاف نهر الراين، ومن هناك سأمضي مباشرة إلى تاوراجه من

دون توقف. لقد مللت بدرجة مريعة من ألمانيا. سألتقي فقط ببعض المعارف في موسكو وسان بطرسبرج، ومن هناك إلى عندكِ مباشرة في بيلي بولي يا أمي العزيزة».

- دونيا، دونيا، اجلبي التقويم سريعًا. آه يا إلهي! أين تبحثين عنه؟ يا للغباء! ها هو!

واندفعت بيلتوفا إلى التقويم وبدأت تحسب وتحوِّل التاريخ من الشكل القديم للتقويم إلى الجديد؛ من الأقدم إلى الأحدث، وطوال كل ذلك كانت مستغرقة في كيفية تجهيز الغرفة. لم تنسَ شيئًا عدا ضيوفها، ولكن لحسن الحظ لم ينسوا هم أنفسهم وطلبوا الطبق الثاني.

واصل رئيس الديوان الجنائي حديثه(١٤٤):

- شيء غريب، غريب فعلًا! يبدو أن حياة المقاطعة هنا تبدو وكأنها تعد بمسرات كثيرة، حتى إن شابًّا ثريًّا يجد أنه من الصعب أن يفوتها.

أجاب بيلتوف بابتسامة ونهض ليودعه:

- وما العمل!

- عش معنا إذن، وإذا لم تجد هنا البريق والثقافة اللازمين، فإنك ستجد حتمًا الناس الطيبين والبسطاء الذين سيستقبلونك في بيوتهم بين أسرهم الطيبة.

أضاف المستشار الجريء صاحب وسام القديسة آن:

---

(١٤٤) فلينتبه القارئ إلى أن الكاتب قد عاد هنا إلى مشهد حوار رئيس الديوان الجنائي وبيلتوف من دون أي فواصل.

- هذا مؤكد سعادتك. مدينتنا الصغيرة ليس لها مثيل، ومن حيث الضيافة لا يمكن مقارنة موسكو بها.

قال بيلتوف محييًا بانحناءة:

- أنا واثق من ذلك.



الجزء الثاني

-١-

تعرفون بالطبع التأثير القوي الذي تركه بيلتوف على سكان (ن. ن) المبجلين. اسمحوا لي أن أحدثكم عن التأثير الذي تركته المدينة على بيلتوف المبجل. لقد أقام في فندق «كريسبرج»، ومن المحتمل أنه لم يُسمَّ هكذا لتمييزه عن بقية الفنادق، حيث إنه كان الفندق الوحيد في المدينة، لكنه سُمِّي هكذا بالأحرى احترامًا للمدينة التي لم يحدث أن وُجِدت فعلًا. لقد كان هذا الفندق مصدر أمل ويأس جميع الموظفين المدنيين في (ن. ن)؛ مكان المواساة في الأحزان، والتسلية في الأفراح. على يمين المدخل يظهر دائمًا في المكان ذاته مالكه غير المكترث، جالسًا إلى مكتبه، وأمامه موظف النضد يرتدي قميصه الأبيض بلحيته المنتفخة وفرقة شعر يائسة فوق عينه اليسرى. في أول أيام الشهر كان أكثر من نصف الرواتب التي يتقاضاها الموظفون ومساعدوهم، بالإضافة إلى مساعدي مساعديهم تُحفظ في هذا المكتب. كان المالك يتحسس الحسابات بكل جدية واهتمام، رافعًا لوح المكتب الخشبي

العلوي اللعين، مزدردًا أجزاء من سينينكي[١٤٥]، مطمئنًّا على وجود عملات الروبل الفضية ومن خلفها الجريفن (١٠ كوبيك) والبياتكا (٥ كوبيك) والكوبيكات، ثم ينقر على المفتاح ويطمئن على أن المال بخير. في مرتين فقط يتظاهر بأنه ميت، عندما يظهر عند سياجه الرهيب ياكوف بوتابيتش، وهو رئيس الشرطة، ويأتي بالطبع ليسدد دينه... أحيانًا يعرج بعض المستشارين على الفندق للعب البلياردو وشرب البنش، فينزعون سدادة زجاجة فالأخرى؛ باختصار كانوا يعرجون عليه ليستمتعوا بمتع العُزَّاب وليستريحوا من زوجاتهم، حيث إنه من غير الممكن أن نجد مستشارًا أعزب، تمامًا كما لا يمكننا أن نجد رئيس دير متزوجًا. كانوا يأتون إذن ليظلوا بعد ذلك لمدة أسبوعين يحكون في كل مكان عن كيف عربدوا هناك. عند ظهور أصحاب المقام الرفيع كان الموظفون الصغار يخفون غلايينهم خلف ظهورهم، ولكن حتى يُفهم الأمر بصورة صحيحة، لم يكن هذا بهدف إخفاء الغليون، ولكن لإظهار القدر الملائم من الاحترام. كانوا ينحنون أمامهم بشدة، وتُبدي ملامحهم أقصى درجات الاضطراب، ثم ينصرفون إلى غرف أخرى من دون حتى أن ينهوا لعبة البلياردو؛ تلك اللعبة التي تَعجَّب الكورنيت المتقاعد درياجالوف في أوقات راحته من لعب الورق، بسبب كراتها الجريئة وضرباتها المذهلة.

كان مالك الفندق، وهو فلاح ثري من قرية تقع على ضواحي المدينة، قد عرف من هو بيلتوف وحجم ثرائه، ومن ثَم قرر أن يمنحه

(١٤٥) نوع من الحلوى الروسية، يتم إعدادها من الباذنجان.

واحدة من أفضل الغرف بالفندق؛ غرفة لا يعطيها إلا للشخصيات المرموقة والجنرالات وجباة الضرائب، ولذلك اصطحب بيلتوف في البداية إلى الغرف الأخرى. كانت هذه الغرف معتمة وقذرة حتى إن المالك عندما اصطحب بيلتوف إلى الغرفة التي قرر أن ينزله فيها قال: «لولا أن هذه الغرفة مفتوحة على غرفة أخرى لكنت قد منحتها لك بكل سرور». حينها ظل بيلتوف يحاول إقناعه بحماسة أن يترك له هذه الغرفة، وتأثر المالك بكلام بيلتوف المعسول، ووافق على الثمن من دون استياء. أدت كياسة المالك في معاملته لبيلتوف إلى زيادة فظاظته تجاه بقية الزوار. كانت الغرفة مفتوحة فعلًا على غرفة أخرى. أغلق المالك الباب، وقطع الممر الأمامي بين الردهة وصالة البلياردو، مجبِرًا من يريد المرور منه على المرور بالمطبخ. خضع معظم نزلاء الفندق بصمت إلى كل التجارب الأخرى التي اعتبر القدر أن من الضروري أن يكافئهم بها، ومع ذلك هناك أيضًا من صاحوا اعتراضًا على هذا السلوك المتحيز بفظاظة من قِبل المالك. انتوى أحد محصلي الضرائب، والذي خدم منذ عشرة أعوام مضت في الجيش، أن يحطم عصا البلياردو على ظهر المالك بسبب شعوره بالإهانة، لدرجة أنه أضاف الآتي إلى تعبيراته المنفعلة: «أنا أيضًا من النبلاء، ولكن عليه اللعنة، لم يكن من حقه أن يفعل ذلك حتى مع أي جنرال كان، أما هذا فكما ترون مجرد رضيع وصل من باريس. دعوني أتساءل: فيمَ هو أفضل مني؟ أنا أيضًا من النبلاء، كما أنني أكبر منه سنًّا ونلت وسامًا في عام ١٨١٢ [١٤٦]...».

(١٤٦) يقصد إبان غزو نابليون لروسيا.

أجابه الكورنيت درياجالوف الذي كانت لديه وجهة نظره الخاصة حيال بيلتوف: «حقًّا أنت عقل متوقد تمامًا». بغض النظر عما حدث، حقق المالك إرادته صامتًا مبتسمًا، بكل صلابة لا مبالية، وبذلك العناد الذي يتسم به التاجر الروسي. راقت الغرفة التي نزل فيها بيلتوف بعد أن رأى أربع غرف بشعة أرهبه بها المالك بمهارة بالمرور عليها، ولكن أدى الأمر إلى إهانة الكثيرين . في الواقع كانت الغرفة تبدو قذرة وغير مريحة، وبين الحين والآخر كانت تُعبَّأ برائحة الزيت المحترق، وباختلاط هذه الرائحة برائحة التبغ المستمرة كانت تظهر رائحة أخرى تثير الغثيان، حتى لأحد أفراد الإسكيمو ممن تعودوا على تناول سمكة فاسدة.

هدأ الصخب الذي أثاره وصوله في اليوم الأول. جلبوا محتويات العربة والساك (نوع من الخمر - المترجم) وصندوق الأغراض الخاصة، وظهر جريجوري يرمولايفيتش الخادم الخاص ببيلتوف في النهاية، جالبًا معه البقايا الأخيرة، ممثلة في أدوية السفر وحزمة من التبغ وزجاجة خمر بوردو غير مكتملة، وكذلك بقايا ديك رومي محشي. بعد أن وضع كل ما جلبه على الطاولة والمقاعد توجَّه إلى المقصف لشرب الفودكا، مؤكدًا للساقي أنه تعوَّد في باريس عند الانتهاء من كل عمل أن يشرب كأسًا كبيرة من الفودكا (وأنتم تعرفون بالطبع أن الأمر يبدأ في روسيا بهذه الصورة ثم يحدث ما يحدث). اجتمع حول الخادم الخاص حشد من الموظفين الذين أرادوا معرفة تفاصيل عن بيلتوف من مصدر مقرب، لكن لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن الخادم لم يستسلم لهم كثيرًا، بل وعاملهم ببعض الغطرسة. لقد عاش لبضعة

أعوام خارج البلاد وأدرك بفخر جدارته الشخصية. في هذه الأثناء كان بيلتوف بمفرده، جالسًا على الأريكة. اقترب من النافذة التي كان بوسعه أن يرى نصف المدينة منها. كان المنظر الرائع الذي تمثل أمام عينيه مألوفًا وإقليميًّا ورسميًّا؛ برج مراقبة مزين بصورة سيئة، وجندي شرطة ثابت في مكانه بالأعلى. أول ما لمحته عيناه كانت الكاتدرائية القديمة التي بانت بوضوح بسبب المباني الطويلة والصفراء المحيطة بالمكان والمشيَّدة على طراز خاص. ثم لاحت لعينه كنيستان أو ثلاث صغيرة تظهر في كل منها آثار عصرين معماريين أو ثلاثة. تزينت الجدران البيزنطية القديمة ببوابات يونانية أو بنوافذ قوطية أو بكلتيها، ثم رأى منزل الحاكم وأمامه جندي يرتدي الأزرق، ورأى أيضًا اثنين أو ثلاثة من المتسولين أصحاب اللحى، وأخيرًا رأى المنازل العادية المشابهة تمامًا لكل المنازل في مدننا، ذات العواميد التي تبدو وكأن السل قد أصابها، تكاد تلاصق الحائط ذاته، والمنازل ذات مشارف[١٤٧]، ولا يمكن أن يغزو الشتاء هذه المنازل بفضل النافذة الإيطالية الموجودة على كل جدار، كما تتضمن هذه البنايات جناحًا خارجيًّا سخاميًّا يقطن فيه الخدم، وتضم إسطبلًا تُحفظ فيه الجياد. اشترى هذه المنازل سادة مبجلون ذوو ألقاب شهيرة. كانت ردهات المعيشة تمتد قليلًا، بيضاء من الخارج، ومعتمة من الداخل، رطبة وباردة دائمًا، وكان بإمكان الجميع أن يجد فيها الأقمشة القطنية والضمادات، وكل شيء عدا ما

(١٤٧) ميزانين: الكلمة تعني باللاتينية طابق نصفي، وهي أرضية وسيطة في مبنى مفتوح جزئيًّا على طابق أرضي من درجتين، وهي لا تمتد على مساحة الطوابق بالكامل من المبنى.

يحتاج المرء إلى شرائه. تأثر بيلتوف قليلًا باللوحة التي ارتسمت أمام عينيه، ودخن سيجارًا وجلس قبالة النافذة. كان ذوبان الثلج قد بدأ في الساحة، ويشبه ذوبان الثلوج دائمًا الربيع، حيث تتساقط المياه من الأسطح على الشوارع، وتنجرف تيارات من الثلج الذائب. يشعر المرء أن الطبيعة تنبعث من تحت الجليد والثلج، لكن غير الخبير وحده هو من يشعر بذلك؛ ذاك من يأمل أن يرى الربيع في (ن. ن) في أوائل فبراير. من الواضح أن الشارع كان يعرف بالطبع أن الصقيع والعواصف الثلجية سيعودان، وأنه ما دامت لم تظهر بعد أي علامات على أوراق الشجر حتى ١٥ – ٢٧ مايو، فالربيع إذن لم يأتِ بعد. شعر بيلتوف بخمول داعس يلفه، وكانت هناك فلاحتان أو ثلاث جالسات عند حائط ساحة الفندق بأنسجة محبوكة وكمثرى، وقد استفدن من حقيقة أن أصابعهن لا تتجمد فأخذن يحُكن الجوارب، وانشغلن بالعقد، ومن ثَم كان من النادر أن ينظر بعضهن إلى بعض، وكن يلتقطن الإبرة بأسنانهن، ويتنهدن ويتثاءبن، ويرشمن علامة الصليب على أفواههن. كان هناك تاجر عجوز بالقرب منهن يقارب السبعين من العمر، ذو لحية شيباء وقبعة سوداء مرتفعة، وقد نعم بغفوة عذبة على مقعده المتنقل. في أحيان قليلة كان البائعون يهرعون من متجر لآخر، وبدأ بعضهم يغلق المتاجر. يبدو أن أحدًا لم يشترِ شيئًا، بل يبدو أن أحدًا لا يسير حتى في الشوارع. الحقيقة أن حارس الحي مر بالشارع، وقد ارتدى معطفًا طويلًا ذا ياقة من الفرو، بخطوات منتظمة سريعة، وبدا عليه الانشغال بورقة ملفوفة في غليونه. حيَّاه الباعة بنزع القبعات عن رؤوسهم باحترام، لكن الحارس لم يكن

في طريقه إليهم. ثم عبرت عربة صغيرة غريبة الشكل تشبه قرع العسل الذي انتزع منه ربعه. جرَّت هذه العربة التي تشبه قرع العسل أربعة جياد بالية، واستقلها جايدوك[١٤٨] رسول وحوذي أشيب مغضن الوجه، وارتدى كل منهما سيرمياجا[١٤٩]، وفي الخلف ثمة خادم يرتجف يرتدي معطفًا طويلًا مزينًا بشريط. ثمة شخص آخر كان موجودًا بهذه العربة التي تشبه قرع العسل، وهو أب طيب سمين، ومالك أرض ذو علامة واضحة على الأنف والوجنتين، وبالقرب منه جلست رفيقة حياته التي لا يمكن فصلها عنه، وهي لم تكن تشبه قرع العسل، بل ارتدت بدلًا من القبعة نسيجًا حريريًا رثًّا، وقبالتهما باقة لطيفة من النعم القروية اللطيفة؛ ربما الأمل المبهج للأمهات والآباء، وهو في الآن ذاته محل عناية واهتمام القلوب الرقيقة. وصل إذن هذا البستان المتحرك، ثم ساد الصمت مجددًا. وفجأة ترددت أصداء أغنية روسية عابثة من الزقاق، وفي غضون دقيقة خرج إلى الشارع فجأة ثلاثة عمال يرتدون قمصانًا حمراء قصيرة، وقبعات مزخرفة، بأجساد رياضية، تلوح تلك الجسارة التي نعرفها جميعًا على وجوههم. كان أحدهم يحمل بالالايكا، ولم يكن يحملها لعزف ألحان معينة بقدر ما كانت لإصدار أي نغمات بشكل عام. كانت قدما هذا العامل لا تكادان تحملانه، وكان واضحًا من حركة كتفيه كم كان يود أن يقرفص. ما المشكلة إذن في أن يفعل ذلك؟ هل الأمر يعود إلى الأرض، أم بسبب شيء تحت قوس غرفة الجلوس؟

---

(١٤٨) خادم في منزل ثري، طويل عادة، يرتدي معطفًا مجريًا أو شركسيًا.

(١٤٩) قماش خشن غير مصبوغ.

ظهر رجل يمسك بعصا بين يديه، وتوقفت الأغنية التي أيقظت لوهلة الغفوة المملة وقطعتها لفترة، ولم يتحرك من العامل سوى إصبعه على البالالايكا. انطلق حارس الصمت المبجل الواقف تحت القوس كعنكبوت يعود إلى ركنه المظلم، وقد بدأ يلتهم رأس ذبابة. هنا ازدادت سيادة الصمت، وبدأت الظلمة تحل على المكان. نظر بيلتوف من حوله وشعر بالهلع؛ كان يختنق بتأثير الموقد الحديدي، وكان في حاجة إلى هواء ليتنفس، وربما كان اختناقه بسبب رائحة الزيت المحترق الممتزجة بالتبغ القادمة من الطابق السفلي. التقط قبعته، وارتدى معطفه، وأغلق الباب من خلفه وخرج إلى الشارع. لم تكن المدينة عظيمة الحجم، ومن ثَم لم يصعب عليه التجول فيها. الفراغ نفسه في كل مكان. بالطبع تصادف أن يلتقي ببعضهم هنا وهناك؛ رأى مثلًا عاملة منهكة تحمل نيرًا على كتفها، حافية القدمين ومرهقة، كانت تصعد جبل الجليد، تلهث وتتوقف قليلًا. كان الكاهن السمين ذو المظهر الدمث جالسًا أمام البوابة ينظر إليها. عبر أيضًا الكتبة ذوو الأجساد النحيلة المستوية، وربما عبر أيضًا مستشار سمين... جميعهم كانوا يرتدون ثيابًا رديئة مشحمة، ولم يكن ذلك بسبب الفقر، بل بسبب القذارة. كان المستشار الفخري يتحدث بجلالة، كما لو أنه سيناتور روماني. ظهر أيضًا الكاتب آتيًا بسرعة على زلاجة رئيس الشرطة، كما لو أنه مستشار فخري، وانحنى بأقصى درجات الاحترام أمام المستشارين، مشيرًا بقلق إلى الورقة الموجودة بين العراوي، وكان ذلك يعني أنه ذاهب إلى مديره. أخيرًا عبر تاجران سمينان، وقد حمل الطاهي من خلفهم مكنسة

وعقدة صغيرة، وقد أثبتت الوجنتان الحمراوان أن المكنسة لم تُجلَب عبثًا. لم يلتقِ بيلتوف بأي شخص آخر.

فكر بيلتوف: «ماذا يعني هذا الصمت؛ تفكيرًا عميقًا أم خواء فكريًا تامًا؟ أيعني حزنًا أم مجرد كسل؟ لن تفهم ذلك. لماذا يثقلني هذا الصمت ويبدو الأمر كما لو أنه يربكني؟ لماذا يضغطني إلى هذا الحد؟ أنا أحب الصمت. صمت البحر، والقرية، وحتى صمت الحقل المستوي البعيد يملأني بشعور خاص بالورع ونكران ذات متواضع. أما هنا فالأمر ليس كذلك. هناك الاتساع والصمت، أما هنا فكل شيء يثقلني؛ كل شيء خانق وضحل، والبنايات البائسة في كل مكان، كأنها حطام ملطخ وأبيض، ولكن أين السكان؟ هل حدث هجوم وأسروا سكان هذه المدينة بالأمس، أم أنه الطاعون أو شيء من هذا القبيل، أم أنه لم يحدث شيء والسكان جميعًا في بيوتهم يستريحون؟ ولكن متى يكدحون إذن؟». وجد بيلتوف نفسه ينتقل تلقائيًا إلى شوارع مدن أخرى تضج وتغلي بالناس؛ مدن ليست مفرطة في أبويتها، بل أكثر إخلاصًا لضجيج العالم. بدأ يشعر بالارتباك الذي يقترن عادة باتخاذ خطوة زائفة في الحياة، خاصة عندما نبدأ في إدراك ذلك، ونعود إلى منازلنا حزانى. عندما اقترب من الفندق تناهى إليه صوت جرس سميك من الدير الموجود في ضواحي المدينة، وذكَّره هذا الرنين بشيء من الماضي البعيد. كان سيمضي إلى حاله، لكنه ابتسم فجأة، وهز رأسه، وعاد إلى منزله بخطوات مسرعة. ضحية هذا القرن المسكينة، المليئة بالشكوك، لن تجد الراحة هنا في (ن. ن).

بمرور بضعة أيام قضاها بيلتوف في الاستغراق العميق في القراءة ودراسة قوانين انتخابات النبلاء، ارتدى ثيابه بقدرٍ من التدقيق وذهب ليتم زياراته الضرورية. بمرور ثلاث ساعات عاد بصداع قوي، وقد بدت عليه بوضوح أمارات الانزعاج والإنهاك، وطلب ماء النعناع، وبلَّل رأسه بماء الكولونيا. أعاد ماء النعناع والكولونيا النظام إلى تفكيره، وهو وحيد، مستلقٍ على الأريكة، وقد تجعد وجهه، وكاد يضحك. استعاد إلى ذهنه كل ما رآه عند رئيس المقاطعة، حيث قضى هناك بضع دقائق لطيفة مع الحارس، وتاجرين من الدرجة الأولى، وخادمين رحبا بالمارة وودعاهم جميعًا، بتحيات مبتكرة قائلين: «نهنئكم بالعيد السابق» ومن ثَم مدوا أيديهم كالإنجليز الفخورين؛ مدوا تلك اليد التي حظيت بسعادة أن تساعد الجنرال كل يوم في ركوب عربته الذاهبة صوب غرفة معيشة رئيس المقاطعة، حيث أكد ممثل طبقة النبلاء الموقر لمدينة (ن. ن) اللامعة أنه من المستحيل أن يتعلم المرء النظام المدني في أي مكان مثلما يتعلمه في الخدمة العسكرية، لأنها تعطي الإنسان أهم شيء، وما يتبقى بعد ذلك ليس له أي قيمة، ثم اعترف لبيلتوف بأنه وطني حقيقي ويشيِّد في قريته كنيسة حجرية، ولا يمكنه تحمُّل أولئك النبلاء الذين يلعبون الورق، ويحتفظون بامرأة فرنسية، ويذهبون إلى باريس بدلًا من أن يخدموا في سلاح الفرسان، وينشغلون بإدارة ضيعاتهم. لم يكن بإمكان كل هذا سوى أن يبدو لبيلتوف نوعًا من التهكم. ثمة مجموعة من الأشخاص الذين رآهم بيلتوف لم يخرجوا من ذهنه. ظل يتذكر المدعي العام للمقاطعة الذي نجح في ثلاث دقائق وحسب، في أن يقول له ٦

مرات: «أنت نفسك بما لديك من مستوى ثقافي يمكنك أن تفهم أن السيد رئيس المقاطعة بالنسبة لي شخص غريب. إنني أكتب مباشرة لوزارة العدل ووزير العدل. إنه الجنرال والنائب العام. رئيس المقاطعة جيد، وأنا أفعل لسيادته كل ما يمكنني فعله. كنت أقرأ وأقرأ وأقرأ له، وبالطبع أَكُن له احترامًا كبيرًا كما يتوجب عليَّ أن أعامل صاحب رتبة عالية، لكني لا أستطيع أن أفعل ما هو أكثر من ذلك. يستحيل إجباري على شيء. لست مستشارًا إقليميًّا». وفي كل مرة كان يستنشق من علبة السعوط الفضية، والتي تشبه بصورة مدهشة العلبة الفرنسية، لكنها تتميز عنها برائحتها الكريهة. تذكر أيضًا ممثل الديوان المدني؛ نحيلًا وطويل القامة وبخيلًا ومتسخًا، وقد أثبت مدى لا مبالاته بقذارته. تذكر الجنرال خرياشوف المحاط باثنين صُرفا من مهنتهما الشرطية، ومُلاك أراضٍ فقراء، وكلاب الشرطة، والموظفين، والبوابين، وثلاثة من أقربائه، واثنتين من شقيقاته. تذكَّر الجنرال يصيح بالطريقة ذاتها التي صاح بها في غرفته، وأطلق صفيرًا من الردهة ليستدعي ميتكا، وبأعظم قدر من حب الإنسانية تدبر أمره مع كلب الشرطي. تذكَّر أيضًا صديقنا رئيس الديوان الجنائي أنطون أنطونوفيتش وقد ارتدى مبذله بلون ظهر الضفدعة، بصحبة مستشاره صاحب وسام القديسة آنا. عندما انحسرت هذه الشخصيات تدريجيًّا عن ذهن بيلتوف، واندمجت جميعًا في وجه واحد رائع لموظف واحد هائل وعابس ومراوغ لكنه يدعمه، رأى أنه لا يستطيع التعامل مع هذا الجلياط[١٥٠]، وأن الأمر لا يقتصر على أنه

(١٥٠) جلياط في التوراة هو جالوت في القرآن.

ليس بوسعه أن يربطه من قدميه بحبال عادية، ولكن ثمة نصبًا جرانيتيًا موجودًا تحت تمثال بطرس الأول(١٥١) أيضًا.

الغريب في الأمر هو أن بيلتوف منذ أن رحل إلى بلاد أجنبية، عاش كثيرًا على مستوى الفكر والعواطف، واختبر تهيُّج الذهن والمشاعر. لا تمضي الحياة عبثًا لأولئك الذين تستيقظ في داخلهم فكرة ما قوية. لا شيء جديد؛ يمضي اليوم كما مضى الأمس، وكل شيء معتاد تمامًا، ثم تلتفت فجأة وترى بذهول أنك قطعت مسافة رهيبة، وأنك قد عايشت هاوية مرعبة. هذا ما حدث مع بيلتوف. لقد عايش هذه الهاوية لكنه لم يتوقف. اصطدم بيلتوف للمرة الثانية بالواقع تحت ظل هذه الظروف التي كانت إبان عمله بالديوان، وخاف منها مجددًا. كان يفتقر إلى هذا الحس العملي الذي يُعوِّد صاحبه على تفكيك الكتابة المتماسكة للأحداث الحيوية. كان شديد الانفصال عن العالم والوسط المحيط به. كانت أسباب هذا الانفصال مفهومة لبيلتوف. بوجه عام خلق جوزيف منه إنسانًا مثل الذي خلقه روسو في «إميل»، وواصلت الجامعة مسار هذا التطور العام فيه، وكذلك فعلت الرفقة التي أحاطت به، المتكونة من خمسة أو ستة شباب، وبقدر ما كانت الأحلام والآمال كاملة، كانت الحياة خارج جدران قاعة المحاضرات مجهولة؛ الأمر الذي زاد من انخراط بيلتوف أكثر فأكثر في عالم أفكار غير ملائمة له، وخاصة في أوساط غريبة عنه اضطر إلى العيش في وسطها. في النهاية أُغلقت

(١٥١) من أشهر حكام روسيا واتبع سياسة تحديث غربية ونفذها بالعنف. له دور في روسيا يشبه دور محمد علي في مصر. المؤلف يشير هنا إلى أن جميع هذه الشخصيات تنحدر من الدور الذي مارسه بطرس الأكبر على تشكيل المجتمع الروسي بهذه الطريقة.

أبواب المدرسة، وشحبت تلك الرفقة الودية التي بدت أبدية. شحبت وبقيت في الذكريات وحدها، أو كانت تنبعث في أثناء لقاءات عرضية لا طائل منها في أثناء شرب النبيذ، ومن ثَم انفتحت أبواب أخرى أصدرت بعض الصرير. عبر بيلتوف هذه الأبواب، ووجد نفسه في بلد مجهول له تمامًا وغريب عنه إلى حد أنه لم يستطع التكيف معه، ولم يتعاطف مع أي جانب من الحياة الواقعية الفائرة من حوله. لم تكن لديه القدرة على أن يصير مساعدًا جيدًا أو ضابطًا ممتازًا أو موظفًا مثابرًا، ومن ثَم لم يتبقَّ أمامه سوى أن يشغل مكانًا وسط المتبطلين ولاعبي الورق والإخوة المعربدين بشكل عام. الحق يُقال، عليَّ أن أعترف بأن صاحبنا كان متعاطفًا مع الفئات الأخيرة أكثر من الأولى، وهنا كان يستحيل عليه الانفجار. لقد كان متطورًا جدًّا، وانحلال السادة هنا يبدو شديد القذارة والفجاجة بالنسبة له. لقد ترك دراسة الطب وفارق الرسم وأسرف في شرب الخمر ولعب الورق وسافر إلى بلاد أجنبية. بالطبع لم يجد عملًا ينشغل به، ومن ثَم عمل أعمالًا عشوائية؛ عمل كل شيء في هذا العالم، وفاجأ المتخصصين الألمان بتنوع العقل الروسي، وأدهش الفرنسيين بعمق تفكيره، وفي الوقت ذاته الذي فعل فيه الألمان والفرنسيون الكثير لم يفعل هو شيئًا، وبدَّد وقته، مطلِقًا طلقات طائشة من مسدسه، جالسًا حتى وقت متأخر من الليل في المطاعم، مُسلِّمًا جسده ونفسه ومحفظته لإحدى العاهرات الفرنسيات. لم يكن من الممكن لهذه الحياة ألا تؤدي في النهاية إلى احتياج مرضي لأي عمل. بالرغم من هذا التبطل الظاهر عايش بيلتوف الكثير فكريًّا وشعوريًّا،

وحمى شبابه من غياب كل فكر عملي يتعلق بحياته. هذا هو السبب الذي جعل بيلتوف المدفوع بشوق شديد إلى العمل يقرر أولًا: قبول المشاركة بروعة وجدارة في الانتخابات، ثانيًا: لا يتعجب فقط بعد رؤيته للناس الذين توجب عليه أن يتعرف إليهم منذ يوم ولادته، أو الذين توجب عليه أن يواجههم وتربطه بهم علاقات وثيقة، ولكنه ذُهِل بشدة من لغتهم وأخلاقهم وطريقة تفكيرهم، حتى إنه صار مستعدًّا، من دون بذل أي جهد ومن دون أي صعوبة، أن يرفض العرض الذي ظل مشغولًا به لعدة أشهر. سعيد هو هذا الإنسان الذي يواصل العمل الذي بدأه وتسلمه تباعًا. يجعله ذلك يتعود عليه، ولا يبدد نصف حياته في الاختيار، بل يكرس ويركز كل قواه حتى لا يتلاشى هذا العمل، وينتجه. أكثر ما نفعله هو البدء من جديد، ولم نرث عن أسلافنا سوى ملكيات ثابتة ومنتقلة، نحافظ عليها بصورة سيئة، ولذلك نجد أنفسنا في غالب الوقت لا نريد أن نفعل شيئًا، وإذا أردنا أن نفعل شيئًا نمضي إلى السهوب غير المحدودة، أو نمضي إلى أي مكان، حيث تأخذنا أقدامنا؛ المهم ألا نصل إلى أي مكان. هذا هو تبطلنا متعدد الجوانب. هذا هو كسلنا النشط! كان بيلتوف ينتمي تمامًا إلى هذه النوعية من الناس؛ كان يفتقر إلى الرشد، بالرغم من نضج أفكاره. باختصار يبدو الآن بعد أن بلغ الثلاثين كما لو أنه صبي في السادسة عشرة، وقد استعد ليبدأ حياته من دون أن يلاحظ أن الباب القريب الذي ظل ينفتح أكثر فأكثر ليس هو الباب الذي يدخل عبره المصارعون، بل الباب الذي يمر منه من يحملون جثامين هؤلاء المصارعين. ستقولون: «بيلتوف بالطبع هو

المذنب في كل ذلك». أوافقكم الرأي، ولكن آخرين يعتقدون أن ثمة ذنبًا خلف الناس أفضل من أي بر، وهكذا ينحرف كل شيء في العالم.

لم يمر شهر على استقرار بيلتوف في (ن. ن) حتى استطاع أن يكتسب كراهية دائرة السادة المُلاك كافة؛ الأمر الذي لم يمنع الموظفين هم أيضًا من كراهيته. من وسط كارهينه كان هناك من لم يرونه رؤية العين، وكان هناك آخرون رأوه ولكن لا تربطهم به أي علاقة. كان الأمر من جانبهم كراهية صافية غير مغرضة، وصحيح أن هذه المشاعر غير مغرضة في حد ذاتها لكن لها أيضًا سببها. ليس من الصعب علينا أن نخمن سبب كراهيتهم لبيلتوف. كان للملاك والموظفين دوائرهم المنغلقة بدرجة أو بأخرى، لكن هذه الدوائر متقاربة ومترابطة. كانت لديهم مصالحهم الخاصة ومجادلاتهم وأحزابهم ورأيهم العام وعاداتهم العامة التي تشمل جميع مُلاك الأراضي من كل المقاطعات، والموظفين في أنحاء الإمبراطورية كافة. بوصول أحد المستشارين من مدينة (ر. ر) إلى (ن. ن) صار في غضون أسبوع عضوًا وزميلًا نشطًا ومبجلًا. لو كان صديقنا المحترم بافل إيفانوفيتش تشيشيكوف هو الذي وصل لأعد له رئيس الشرطة حفلة شرب على شرفه، ولرقص الآخرون حوله، ولأطلقوا عليه «ماموتشكا»[١٥٢]، لأنهم كانوا سيفهمون بالطبع قرابته ببافل إيفانوفيتش. ولكن بيلتوف، بيلتوف شخص استقال من عمله ولم تستمر خدمته أكثر من ١٤ عامًا وستة أشهر كما لاحظ مساعد مدير الطاولة، كما أنه كان يحب كل ما لا يستطيع السادة أن يحتملوه،

---

(١٥٢) نوع من التدليل.

ويقرأ كتبًا مضرة طوال هذا الوقت، بينما هم منشغلون بأمور مفيدة مثل لعب الورق، كما أنه طاف أوروبا ومنازل غريبة عن منزله ومنازل خارج وطنه، وهو أيضًا أرستقراطي من حيث الأخلاق، وأحد أبناء القرن التاسع عشر من حيث قناعاته الفكرية؛ فكيف يمكن للمجتمع القروي أن يقبل مثل هذا الرجل؟! لم يستطع الدخول إلى دائرتهم ولا استطاعوا الدخول إلى دائرته. لقد كرهوه بعد أن فهموا شعوريًّا أن بيلتوف معارض، وأنه يمثل نوعًا من الفضح لنمط حياتهم، ونوعًا من المعارضة لنظام حياتهم برمته. بالإضافة إلى كل ذلك كان هناك أيضًا عدد كبير من الظروف المهمة. لقد أجرى عددًا قليلًا من الزيارات، وقد أجراها في وقت متأخر. كان يمضي إلى كل مكان في أوقات الصباح مرتديًا سترته، وكان نادرًا ما يخاطب رئيس المقاطعة بـ«سعادتكم»، بينما لم يقلها قَطُّ للقائد المتقاعد من سلاح الفرسان، بالرغم من أنه كان لفترة يستحق أن يُخاطب بـ«سعادتكم». كان أيضًا يعامل خادمه الشخصي بأدب شديد، إلى درجة أنْ شعر ضيوفه بالاستياء من ذلك، وكان يُحدِّث السيدات بالطريقة التي يتحدث بها مع العامة، وبصورة عامة كان يتحدث بصراحة شديدة. بالإضافة إلى ذلك فقد الشريحة البيروقراطية الدنيا منذ اليوم الأول لوصوله، بإلغاء هذا الممر المباشر المفضي إلى صالة البلياردو بسببه. غني عن القول أن كراهيتهم لبيلتوف اكتست بإطار دمث، ليظل تحت أعينهم، ويحيطون ضحيتهم بهذا الاهتمام البليد والفج الذي يمكن أن يخطئ المرء ويظنه حبًّا بسيطًا. حاول كل منهم أن يستقبل الوافد في منزله ليتفاخر بمعرفته به، ويكون

له الحق في أن يقول عشر مرات في أثناء الحديث: «... فعندما كان بيلتوف عندي، قمنا معًا بـ...»، وينتهي الأمر كالعادة بوشاية بريئة.

اتخذ أهل (ن. ن) الطيبون كل الإجراءات الممكنة حتى يفشل بيلتوف في الانتخابات، أو لتشريفه باختياره في منصب يصعب قبوله طواعية. في البداية لم يلحظ أي كراهية صوبه، ولا هذه المكائد البرلمانية، ثم صار يخمن الأمر، وقرَّر أن يمضي إلى النهاية بإيثار. ولكن لا تخافوا! لأسباب معروفة لي جيدًا، سأخفيها كحيلة روائية، سأُجنِّب القراء التوغل في مزيد من التفاصيل والأوصاف الخاصة بالانتخابات في (ن. ن)، حيث إنني أشعر هذه المرة بانجذاب صوب أحداث أخرى خاصة وليست رسمية.



-٢-

لا بد أنكم نسيتم بالطبع منذ فترة طويلة هذين الشابين اللذين فقدناهما وسط مسار الأحداث الطويل؛ أقصد لوبونكا وكروتسيفيرسكي المتواضع واللطيف. في أثناء ذلك حدث الكثير والكثير في حياتهما. لقد تركناهما متزوجين تقريبًا، وسنلتقي بهما الآن متزوجين فعلًا، وعلاوة على ذلك يمسكان بأيديهما الصبي الصغير باشا.

ليس هناك شيء يمكننا أن نحكيه عن هذه الأعوام الأربعة. لقد كانت أعوامًا سعيدة ومشرقة، وقد مرت بهدوء، واكتنفتها سعادة الحب، خاصة الحب الكامل والمتوج، والخالي من الانتظار القلق. إنه سر، سر ينتمي إلى اثنين. هنا لا مكان لثالث، ولا داعي لوجود مراقب. في هذا التكريس الاستثنائي بين فردين تكمن فتنة الحب المتبادل وعدم إمكانية وصفه. صحيح أن بوسعنا أن نحكي أحداث حياتهما الخارجية، لكن هذا أمر لا يستحق العناء، فلن نجد سوى الاهتمامات اليومية ونقص المال ومجادلات مع الطاهي وشراء الأثاث. لقد علق بهم كل ذلك الغبار الخارجي الذي يعلق بالجميع، لكنه كان يُمحى من الذاكرة سريعًا من دون أن يترك أثرًا ملحوظًا. بفضل كروبوف شغل كروتسيفيرسكي

وظيفة المعلم القديم في الجيمنازيا، وأعطى دروسًا، والتقى في طريقه بالطبع بأولئك الآباء والأمهات الذين لا يستطيعون دفع أجره كاملًا إلا بشق الأنفس، ومن ثَم استطاع العيش في (ن. ن) عيشة متواضعة، وهو لم يُرِد أن يعيش بطريقة أخرى. أما ألكسي أبراموفيتش، وبالرغم من كل محاولات كروبوف لإقناعه، لم يُقدِّم مهرًا يتجاوز العشرة آلاف، لكنه من ناحية أخرى تولى إمداد الشابين بالمتطلبات اللازمة، وقد حل هذه المسألة الصعبة بنجاح إلى حد كبير. لقد جلب لهما كل ما يحتاجان إليه من منزله وحجرة مؤنه؛ وهي أغراض لم تكن لازمة له، وربما افترض أن هذه الأغراض تحديدًا هي الضرورية للشابين. بهذه الطريقة تم إحضار المركبة القديمة بصعوبة إلى فناء كروتسيفيرسكي؛ تلك المركبة التي فكر فيها ألكسي أبراموفيتش في الوقت ذاته الذي كانت تفكر فيه جلافيرا لفوفنا في الابنة البائسة نتاج الحب المحرم، وبدت المركبة قديمة وصدئة ومتداعية، ذات جانب محطم بعض الشيء. لم تكن لدى كروتسيفيرسكي سقيفة، وكانت العربة قد صارت منذ زمن طويل بمثابة مأوى للدجاج الوديع. أرسل ألكسي أبراموفيتش جوادًا له، لكنه مات فجأة في الطريق؛ الأمر الذي لم يحدث معه قَطُّ على مدار عشرين عامًا من خدمته التي بلا لوم في إسطبل الجنرال. لا نعرف ما إذا كان أجل الجواد قد حان أم أنه استاء من الفلاح الذي بعد أن توارى عن أنظار منزل سيده ربطه إلى عريش العربة وجعل جواده مربوطًا بالعربة[١٥٣]. كل ما نعرفه أنه مات. صُعِق الفلاح حتى إنه ظل لستة أشهر هاربًا.

(١٥٣) المقصود أن الجواد الذي يُربط إلى عريش العربة هو الذي يبذل جهدًا أكبر.

لكن واحدة من أجمل الهدايا كانت تلك الهدية التي أُرسلت صباح يوم رحيل الشابين. أمر ألكسي أبراموفيتش باستدعاء نيكولاشكا وبالاشكا، وهما شاب مسلول لم يبلغ الخامسة والعشرين، وخادمة شابة ذات ندبات كثيرة. عندما دخلا اصطنع ألكسي أبراموفيتش مظهرًا مهمًا بل ومخيفًا. قال الجنرال: «اركعا وقبِّلا يد لوبوف ألكسندروفنا وديمتري ياكوفليفيتش». لم يكن الأمر الأخير سهل التنفيذ، فقد وارى الزوجان الشابان المرتبكان أيديهما، واحمر وجهاهما، ومن ثَم لم يستطع الشاب والخادمة تقبيل أيديهما، ولكن الجنرال أكمل: «هذان هما السيدان الجديدان لكما. (وقد نطق هذه الكلمة بصوت صادح يشي بأنه يقول شيئًا مهمًا)، إذا خدمتماهما خدمة حسنة فستكونان على ما يرام، (ولا بد أنكم تتذكرون بالطبع أن هذا محض تكرار)، أما أنتما فكونا رحيمين بهما وأشفقا عليهما إذا أحسنا التصرف، وإذا لم يحسنا التصرف أرسلاهما إليَّ؛ فلديَّ مدرسة خاصة لتنعيم كل ما هو خشن! التدليل أيضًا غير ضروري. هذا خبزي وملحي للطريق؛ فأنا أعرف أنكما لم تعتادا بعد على الحياة مع أناس أحرار، والحُر عندنا متشرد يعرف أنه لا يحتاج إلى ما هو أكثر من جواز سفر ليذهب ويبحث عن مكان آخر. اركعا إذن وانصرفا!». وأنهى الجنرال حديثه الفصيح. سقط نيكولاشكا وبالاشكا مجددًا على ركبتيهما ثم خرجا. هنا انتهت قصة التحاقهما بخدمة منزل جديد. في اليوم ذاته انتقل بطلانا الشابان إلى المدينة بصحبة نيكولاشكا المستغرق في سعاله دائمًا وبالاشكا التي تبدو كنقش بارز.

انتظمت شؤون حياة الزوجين كروتسيفيرسكي بصورة رائعة. لم تكن لديهما متطلبات خارجية كثيرة، فقد كانا يشعران بالرضا، ومن ثَم تسلل إليهما شعور بالتعاطف المتبادل حتى صار من الصعب عدم الخلط بينهما وبين الأجانب. لم يُشبها على الإطلاق أيًا من المحيطين بهما. أمر رائع أن يكون هناك أناس طيبون يعتبروننا بشكل عام، ويعتبرون المحافظين، خاصة من يتسم منهم بنزعة أبوية، بمثابة أسرة لهم، بينما لا يمكننا أن نجذب حياتنا الأسرية هذه إلى عتبة التعليم. قد يكون الأكثر روعة من ذلك هو أننا عندما نشعر بالفتور تجاه حياتنا الأسرية لا نستطيع أن نرتبط بأي حياة أخرى. ليست لدينا شخصية، ولا مصالح عامة تتطور، بل لدينا مربط بالأسرة وحسب[١٥٤]. لدينا نوع من الشكليات الرسمية في الحياة الأسرية، وفيها وحدها تبدو الأمور كما لو أنها مشهد مسرحي، فإذا لم يوبخ الزوج زوجته ولم يظلم الأبوان أبناءهما لكان من المستحيل علينا تخمين أي سمة عامة تجمع هؤلاء الناس معًا، والسبب الذي يجعل كل زوجين يكدران بعضهما بعضًا بالعيش معًا. من يريد منا أن يهنأ بحياته الأسرية فعليه أن يبحث عنها في غرفة المعيشة، فهي غير موجودة في غرفة النوم. لسنا ألمانًا لنعيش سعداء بورع في جميع غرف المنزل لثلاثين عامًا متعاقبة. تظهر بعض الاستثناءات، وهذا الثنائي هو أحد هذه الاستثناءات. لقد نظما أمورهما ببساطة وتواضع، ولم يعرفا كيف يعيش الآخرون، وعاشا بتعقل إلى أقصى درجة ممكنة. لم ينجرفا خلف الآخرين، ولم يهملا

(١٥٤) الكلمة تعني مربط الجواد أو البقرة.

أبسط وأضعف الأمور التي قد تجعل الآخرين يظنونهما أثرياء، ولم يرهقا أنفسهما بمعرفة عشرين أو ثلاثين شخصًا هما ليسا في حاجة إلى معرفتهم، باختصار: تخلَّص منزل هذا المدرس المتواضع بالجيمنازيا من هذه الأصفاد المصطنعة، بالإضافة إلى الاضطهادات المتبادلة التي يدعونها معيشية ويسخر منها الجميع ولا يستطيع أحد في الآن ذاته أن يسمو عليها، ومن ثَم تصالح سيميون إيفانوفيتش كروبوف ذاته مع هذا النموذج للحياة الأسرية، ناظرًا إلى أطفاله الأعزاء.

بعد مرور بضعة أيام على تسكع بيلتوف الشاعر بعدم الرضا، والذي يتعذب بفعل بعض الهواجس، وافتقاره إلى الحياة الحقيقية في المدينة، ويداه في جيوبه، استطاع أن يرى في أحد المنازل التي مر بجانبها وهو ممتلئ بالسخط والمرارة واحدًا من تلك المشاهد الأسرية الرائعة التي تثبت بكل سماتها إمكانية تحقيق السعادة على هذه الأرض. تضمن هذا المشهد ما يشبه أمسية صيفية في الحديقة، حينما لا تكون هناك ريح وتلوح البركة كمرآة معدنية ذهبية بفعل الشمس، وقرية صغيرة تلوح من بعيد بين الأشجار، والندى يبلل الأوراق، والقطيع يعود إلى منزله بصحبة مزيد من الصيحات المنسجمة، وتتعالى أصوات وطء أقدام القطيع وخوار البقر. إنها تلك اللحظات التي تجدون فيها أنفسكم مستعدين للقسم بأنكم لم تتمنوا ما هو أفضل من ذلك طوال حياتكم. كم يحلو أن تمر هذه الأمسية في غضون ساعة حتى تتغير الأمور ليلًا، ومن ثَم لا تخسر سمعتك الحسنة، وتجد نفسك مجبرًا على الشفقة على نفسك قبل أن تمل. جلس سيميون إيفانوفيتش كروبوف على الأريكة

في غرفة صغيرة نظيفة بصحبة ضيفه المبجل والوحيد. ابتسمت المرأة الشابة بينما كانت تحشو له غليونه، وكان زوجها جالسًا على المقعد يحدق تارة بطمأنينة صافية وحب في زوجته، وتارة أخرى في العجوز. بمرور دقيقة دخل إلى الغرفة طفل في الثالثة من عمره يتبختر على قدم فالأخرى، وسلك طريقًا مباشرًا؛ أي أنه لم يلف حول الطاولة، بل انكمش وعبر بين أقدامها صوب كروبوف الذي أحبه كثيرًا، بسبب ساعته ذات العقارب والختمين بلون العقيق الأحمر المتدليين من صدريته.

قال سيميون إيفانوفيتش جاذبًا إياه من أسفل الطاولة، وقد أجلسه على ركبتيه:

- مرحبًا يا ياشا.

أمسك ياشا الختم وأبرز ساعته.

- إنه يعوقك عن شرب الشاي والتدخين. ناولني إياه.

هكذا قالت الأم وهي مقتنعة تمامًا أن ياشا لا يمكنه أبدًا أن يزعج أحدًا في أي وقت.

- اتركيه رجاء. سأتركه يمضي عندما يمل.

وأخرج سيميون إيفانوفيتش الساعة وجعلها تدق. استمع ياشا بدهشة إلى هذا الدق، ثم قرَّب الساعة إلى أذن سيميون إيفانوفيتش، ثم إلى أذن أمه، وقد نظر إلى أمارات الدهشة التي لا شك فيها ترتسم على وجوههم ثم قرَّبها من فمه.

قال كروبوف:

- الأطفال أغلى نعمة في العالم، خاصة أن صاحبكم العجوز يسعد بمداعبة رؤوسهم المجعدة، وبالنظر إلى هاتين العينين المشرقتين، وهذا العشب الشاب. لكني سأحدثكما بصراحة: أنا لا آسف على عدم وجود أطفال لديَّ. ولماذا؟ لأن الله وهبني حفيدًا. عندما أتقدم في السن سوف أذهب إليه عند مربيته.

- المربية هناك!

هكذا قال ياشا مشيرًا إلى الباب وقد ارتسم السرور على وجهه.

- خذوني إليها.

كان ياشا على وشك الاعتراض على ذلك بصيحة رهيبة، لكن الأم كانت قد توقعت ذلك، فحوَّلت انتباهه إلى الزر الذهبي الموجود على سترة كروبوف.

واصل العجوز:

- أنا أحب الأطفال. نعم، أحب الأطفال بوجه عام. عندما كنت أصغر كنت أحب الوجوه الجميلة، والحقيقة أني عشقت ٥ مرات، لكن الحياة الأسرية بالنسبة لي أمر منفر. لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بمفرده في كنف الحرية والهدوء. أما في الحياة الأسرية فيبدو الأمر كما لو أنه من المتعمد أن يعيش الجميع تحت سقف واحد، ليبعث بعضهم الملل في نفوس بعض. يرتبك كل شيء رغمًا عنهم ولا يعيشون معًا. إنها نوع من الصداقة الأبدية السرمدية والوثيقة والقسرية.

عارضه كروتسيفيرسكي قائلًا:

– ما هذا الذي تقوله يا سيميون إيفانوفيتش؟ لا يزال جانب كامل من الحياة؛ الجانب الأفضل والمليء بالسعادة والنعيم، غير معروف لك. ما الذي يمكن أن يجده المرء في هذه الحرية التي تتكئ على غياب كل المشاعر وتنحصر في الأنانية؟

– كم مرة قلت لك يا ديمتري ياكوفليفيتش إنك لا تخيفني بكلمة «أنانية»؟ يا للكبرياء! تقول «غياب كل المشاعر» كما لو أنه ليست هناك أي مشاعر في العالم سوى عبادة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها، والرغبة الغيورة في أن يبتلع كل منهما الآخر حتى لا يتبقى منه شيء، ونحيب المرء على أحزان شريكه وابتهاجه بفرحه! لا يا أخي، أعرف عن حبك الإيثاري، ولا أريد أن أتباهى، لكن على ذكر الأمر: أذهب إلى مريض قلبه ضعيف وأجد حالته سيئة. أقترب من فراشه وأقيس النبض: تك، تك، تك. النبض أفضل، وينظر المريض بعينين واهنتين ويضغط على يدي. أليس هذا شعورًا أيضًا يا أخي؟ وتقول: أنانية؟! إذا استثنينا المجانين، من منا غير أناني؟ الأمر كله أن البعض يتسم بالبساطة، والآخرون كما يقول المثل: «اقلب القدرة على فُمها تطلع البنت لأمها». في هذا الصدد ليست هناك أنانية أكثر محدودية من الأنانية الأسرية.

قالت كروتسيفيرسكايا:

– لا أعرف يا سيميون إيفانوفيتش ما الذي تجده في الحياة الأسرية مثيرًا للذعر إلى هذه الدرجة. أنا متزوج منذ أربعة أعوام تقريبًا، وأعيش بحرية، ولا أرى أي تضحيات أو أعباء من جانبي أو من جانبه.

- يبدو الأمر كمن نجح في سرقة بنك فأثنى على هذه الفعلة. المعجزات قليلة جدًّا في عالمنا. أنتما استثناء في سعادتكما الزوجية، وهذا لا يثبت شيئًا. منذ عامين حدث للحائك بونكراتوف -أنتما تعرفانه- أن كان سائرًا في شارع موسكوفسكايا ورأى طفلًا قد أُلقي به من الطابق الثاني على الجسر. ألا يُؤلمكما ذلك؟ الأمر طفيف، أليس كذلك؟ بالطبع أُصيب ببعض البقع والخدوش، ولا شيء غير ذلك. فلنتخلص من هذا الطفل، إنه ذابل!

سألت كروتسيفيرسكايا، واضعة يدها بود على كتف سيميون إيفانوفيتش:

- أليس هذا فألًا سيئًا لنا؟ لم أعد أخشى نبوءاتك منذ أن تنبأت لزوجي بعواقب مريعة لزواجه مني.

أشار بإصبعه قائلًا:

- كم أنتِ كيدية! ألا تخجلين؟ هل حكى لكِ عن كل هذه الثرثرة؟ يا له من رجل! لكن حمدًا لله أن اتضح كذب كلماتي. أرجو منكِ أن تنسي ذلك. ما فات قد مات.

- ماذا تقول يا سيميون إيفانوفيتش! حديثه يشتمل على المجاملات أيضًا.

- سأقول لكِ مجاملة أفضل وأهم: بالنظر إلى حياتكما أجدني فعلًا أتصالح مع الحياة الأسرية، ولكن لا تنسي أن الحياة قد امتدت بي ستين عامًا، وللمرة الأولى أرى في منزلكما، لا في رواية ولا في قصيدة، بل

في الواقع/ وجودًا حقيقيًّا للسعادة الأسرية. لا يجد المرء أمثلة كثيرة على تلك السعادة الأسرية.

أجابت كروتسيفيرسكايا:

- أتعرف لماذا؟ ربما مر بك أزواج كثيرون ولم تلحظهم. الحب الحقيقي لا يهتم إطلاقًا بتأكيد نفسه. وهل بحثت عنه؟ وكيف يمكن أن تبحث عنه؟ في النهاية إنها مجرد صدفة أنك لم تلتقِ إلا بعدد قليل من أناس يحيون حياة أسرية بسعادة. (وأضافت بنبرة الحقد الساخر، بل والفظاظة التي نجدها دائمًا لدى السعداء) وربما يتضح لك يا سيميون إيفانوفيتش أنك إذا اعترفت بأنك كنت مخطئًا، فإن هذا من شأنه أن يدين حياتك برمتها، وستدرك حينها استحالة إصلاح ذلك.

عارض العجوز بحرارة:

- لا لا. لا تقلقي من ذلك. لن أندم أبدًا على الماضي لأسباب عديدة؛ أولًا: من الحماقة أن يحزن المرء على شيء لا يمكنه التراجع عنه. ثانيًا: أنا عجوز أعزب، أعيش ما تبقى من عمري في هدوء، بينما أنتِ تبدئين حياتكِ بشكل رائع.

قال كروتسيفيرسكي:

- لا أعرف الهدف من وراء هذه الملاحظة الأخيرة، لكنها تركت أثرًا كبيرًا في قلبي وأفضت بي إلى واحدة من تلك الأفكار المزعجة التي لا يمكنني التملص منها؛ تلك الأفكار التي يكفي حضورها في نفس المرء لتسمم لحظة فرح متقدة فيه. أحيانًا ترعبني سعادتي؛

فبالرغم من امتلاكي ثروة ضخمة أخشى المستقبل؛ فكيف يكون الأمر إذن مع...؟

– المعنى واضح مهما اقتطعت من الحديث. هههههه. آه من هؤلاء الحالمين! ومن قاس سعادتك، ومن سيقتطع منها؟ إنها نظرة صبيانية! الصدفة وأنت من دبرتما هذه السعادة، ولذلك فهي لك، وستكون فكرة عقابك على هذه السعادة محض حماقة. لا شك في أن صدفة غير عقلانية وقسرية يمكنها أن تدمر سعادتك. أنت لا تعرف أبدًا ماذا يمكن أن يحدث. ربما تفسد عوارض هذا السقف وربما تتهاوى. حسنًا، لنخرج من هنا، ولكن كيف نخرج؟ ستجد في الفناء كلبًا مسعورًا وربما يدهسك جواد في الشارع. وإذا سمحت لنفسك بالخوف من إمكانية حدوث شر يجدر بك إذن أن تشرب سمًّا وترتاح الراحة الأبدية.

– كنت أتعجب دائمًا يا سيميون إيفانوفيتش من الخفة التي تستقبل بها الحياة. هذه سعادة، سعادة كبيرة، لكنها لم تُمنح للمرء كاملًا بعد. تقول «صدفة» وتهدئ نفسك، لكن هذا لا يجدي معي. لا يصير الأمر أسهل لي عندما يكون مجهولًا، لكن يصيبني الشك حيال هذا الرابط بين أحداث حياتي وهذه الصدفة. لا شيء يمضي عبثًا في الحياة، بل لكل شيء معناه. ليس عبثًا أن وجدتني في عليتي. ألم يكن هناك الكثير من المدرسين في موسكو؟ لماذا أنا تحديدًا؟ ألم يكن ذلك بسبب وجود وسيلة في داخلي يمكن أن تُحرِّر هذا الكيان السامي والطاهر؛ الأمر الذي كنت أخشى التفكير فيه وفجأة تحقق وصارت سعادتي بلا حدود؟ أين هي العدالة إذن إذا كانت الأمور تمضي هكذا طوال الحياة؟

إنني أسلم لسعادتي كما أسلم لبليتي، لكن لا يمكنني ألا أخاف من المستقبل.

- ليس بوسعنا فعل شيء غير ذلك. من ناحيتي سأقول لك إنني لم أفهم طوال حياتي - ولن أفهم - هذه التصورات المَرَضية التي يجد أصحابها متعة في تعذيب أنفسهم بالأحلام، ويبتكرون بلايا ويحزنون أنفسهم مقدمًا. هذه الشخصية هي نوع من أنواع البلايا. إذا أصابتك مصيبة وحلت على رأسك فستنتحب حتمًا ويسيل أنفك، ولكن أن تفكر في أثناء تذوقك لنبيذ رائع أن المصير سيفضي بك غدًا إلى تذوق الكفاس[١٥٥] فهذا نوع من الجنون. عدم القدرة على العيش في الحاضر، وتثمين المستقبل والاستسلام له، هو أحد أشد الأوبئة تطورًا في عصرنا. نحن لا نزال نشبه هؤلاء اليهود الذين لا يشربون الخمر ولا يأكلون، ويدخرون الكوبيك الأبيض من أجل اليوم الأسود، وتظل هذه الصناديق المليئة بالمال بعيدة عن متناول اليد ما دام اليوم الأسود لم يأتِ بعد. أيُّ حياةٍ هذه؟

قالت كروتسيفيرسكايا بحرارة:

- أتفق معك تمامًا يا سيميون إيفانوفيتش. أتحدث عن ذلك كثيرًا مع ديمتري. إذا كنت بخير الآن، فلماذا أزعج نفسي بالمستقبل؟ إن هذا المستقبل ليس له وجود بالنسبة لي. يحدث كثيرًا أن يتفق معي، ولكن ثمة حزن سري مغروس بعمق في داخله، حتى إنه غير قادر على مغالبته. (وأضافت مبتسمة لزوجها ابتسامة مشرقة ومتعاطفة) ولكن

---

(١٥٥) يقصد أن الأحوال سوف تنقلب بالمرء؛ فالكفاس مشروب شعبي أقل مستوى من النبيذ.

لماذا بالرغم من ذلك أحب هذا الحزن الكامن في داخله والمتجذر بهذا العمق؟ أعتقد أن لهذا تحديدًا لا نفهم، أو على الأقل، لا نتعاطف مع هذا الحزن وتكون حالتنا المزاجية أكثر سطحية وملاءمة، ومن ثَم ننشغل بالظاهر وننجذب له في أكثر الأحيان.

- بدأ الحديث عن الصحة والهدوء إلى درجة أنني أردت أن أُقبِّل يَدك وأقول لزوجكِ: «هذا فهم إنساني للحياة»، وإذا بالأمر ينتهي بالحديث عن رؤاه والتفكير العميق. حسنٌ هو التفكير العميق، لكنه يكون مصدرًا للعذاب عندما يتوجب على المرء أن يستمتع، كما يكون مصدرًا للعذاب عندما يدفع صاحبه إلى الحزن على أمور قد لا تحدث أبدًا.

- لماذا تتخذ موقفًا شاذًّا هكذا؟ ثمة جماعات لطيفة تعتقد أنه لا وجود لسعادة كاملة على الأرض، وأفرادها مستعدون للتخلي عن كل ما لديهم بنكران ذات، لكنهم لا يستطيعون أن يُعبِّروا عن الصوت الحزين الكامن في قلوبهم؛ الصوت الجاهز في أي ثانية لأن يخرج منهم. على المرء أن يكون أكثر فظاظة لينال قدرًا أكبر من السعادة. كثيرًا ما يخطر ذلك على بالي. انظروا مثلًا كيف نجد الطيور والحيوانات سعيدة سعادة لا هَمَّ فيها، بسبب أنها تفهم أقل مما نفهم.

أضاف كروبوف العنيد:

- إلا أنه ليس من الجيد للكائن أن يتسم بطبيعة سامية تجعله يحيا في المستوى ذاته الذي تحيا فيه بقية الكائنات على الأرض. أعترف بوجود هذا السمو في حالة الاضطراب العصبي والانهيار العصبي،

ولكن صُب ماء باردًا، وقُم بمزيد من الحركة، وستجد نصف النجوم التي كانت تتراءى لك قد تلاشت. يا ديمتري ياكوفليفيتش أنت تعاني منذ ولادتك من ضعف قواك الجسدية، ويحدث كثيرًا في حالة الضعف الجسدي أن تتطور السمات العقلية بدرجة مدهشة، ولكن غالبًا ما يحدث ذلك في حالات الذهول والأوهام والتصوف. لهذا قال القدماء: «العقل السليم في الجسم السليم». انظر إلى الألمان الشاحبين الشُّقر. لماذا هم حالمون هكذا؟ ولماذا يحدث كثيرًا أن يميلوا رؤوسهم ويبكوا؟ تجدهم مستعدين للتحدث على مدار قرون طويلة عن ملك الجان والمناخ والخلافات الصوفية، لكنهم لا يفعلون شيئًا.

- ليس عبثًا قولهم إن المشاغل الطبية تغرس في صاحبها نظرة مادية جافة نوعًا ما تجاه الحياة. أنت تعرف الجانب المادي في الإنسان معرفة ضئيلة تجعلك تنسى الجانب الآخر الذي لا يمكن لمشرطك أن يدركه، وفي الوقت ذاته هو الوحيد الذي يمنح المادة الفظة معنى.

قال سيميون إيفانوفيتش الذي بدأ يغضب بوضوح:

- آه من هؤلاء المثاليين! تجدهم دائمًا ملتصقين بالهراء. ومن الذي قال إن علم الطب يتلخص كاملًا في التشريح؟! يخترعون هذا بأنفسهم ويُسلون أنفسهم به. يقولون: يا لفظاظة المادة! إنني لا أعرف لا مادة فظة ولا مادة رقيقة، بل أعرف مادة حية! حكماء أنتم أيها العلماء المعاصرون، لكنكم تسبحون في مياه ضحلة! لن ينتهي جدالنا القديم هذا أبدًا، لذا يجدر بنا التوقف. انظروا كيف هدَّأنا ياشا بهرائنا هذا! إنه ينام بهدوء. نَم أيها الصغير! لم يعلمك بابا بعدُ أن تحتقر الأرض والمادة،

ولم يؤكد لك بعدُ أن هاتين الساقين وهاتين اليدين الرقيقتين، هي قطع من القاذورات قد التصقت بك. من فضلك يا لوبوف ألكسندروفنا لا تُنمِّ فيه مثل هذا الهراء. إذا واصلتِ تدليله بمثل هذه الصورة فليكن الرب معه إذن! على الأقل لا تفسدي طفلًا بريئًا بهذا الهذيان منذ صغره، وإلا كيف تتوقعين أن يصير؟ حالمون! سوف يظل حتى الشيخوخة يبحث عن طائر النار[١٥٦]، بينما تنساب الحياة الحقيقية كالرمال بين الأصابع. هل هذا حسن؟ فلتنعمي به إذن!

أعطى العجوز باشا لأمه وتناول قبعته، وزرر أزرار معطفه ببطء قائلًا:

– آه نسيت أن أحكي لكما: منذ بضعة أيام تعرفت على شخص مثير للاهتمام للغاية.

سألت كروتسيفيرسكايا:

– أتقصد بيلتوف؟ لقد أثار وصوله ضجيجًا مستمرًّا حتى الآن، وقد عرفت عنه من زوجة المدير.

– بالضبط. إنهم يثيرون ضجيجًا لأنه ثري، والأمر كله يتلخص في أنه إنسان رائع حقًّا. إنه يعرف كل شيء في هذا العالم، ولقد رأى كل شيء. كم هو ذكي! صحيح أنه مدلل قليلًا، لكن كما تعرفان هو الابن الوحيد لأمه، ولم تُربِّه بطريقتنا، ومن ثَم عاش بطريقة سيئة، وهو الآن يكاد يموت مللًا، مستغرقًا في التفكير دائمًا، ويمكنكما أن تتصورا

(١٥٦) طائر في الحكايات الشعبية الروسية يتقد ريشه كالنار.

بأنفسكما كيف يمكن أن يكون حال المرء بعد زيارته لباريس.

قال ديمتري ياكوفليفيتش:

– بيلتوف! أعرف هذا الاسم. ألم يكن في جامعة موسكو عندما كنت أنا أيضًا فيها؟ أنهى بيلتوف دراسته في الوقت الذي التحقت فيه بالجامعة. كانوا يتحدثون عنه حينها ويقولون إنه ذكي ذكاءً خارقًا، وإن أحد الجنيفيين هو الذي ربَّاه.

– هو بعينه، هو بعينه.

– أتذكره. كنا على معرفة بسيطة ببعضنا بعض.

– أنا واثق في أنه سيكون سعيدًا جدًّا بلقائك. اللقاء بإنسان مثقف في مثل هذه البقعة النائية هو كنز حقيقي لأي شخص. إنه في حاجة إلى الحديث والتفاعل. إنه مريض من فرط الوحدة.

– إذا لم يكن لديك اعتراض على ذلك فسوف أذهب إليه.

– الذهاب إليه عمل جيد، ولكن انتظر. أنا عجوز لكني مندفع. إنه شديد الثراء؛ فلا يجب أن تزوره أنت أولًا. سأقول له غدًا أن يأتي معي إليك هنا إذا أراد. وداعًا عزيزي المجادِل، وداعًا!

قالت لوبوف ألكسندروفنا:

– فلتأتِ غدًا إذن بصاحبك بيلتوف. قيل لنا عنه الكثير لذلك أريد أن أراه.

– وهو يستحق فعلًا كل هذا الحديث، فعلًا يستحق.

هكذا قال العجوز وهو يخرج إلى ردهة الانتظار.

في كل مرة كان كروبوف يجادل فيها كروتسيفيرسكي كان يغضب ويقول إنه ينفصل عنه أكثر فأكثر؛ الأمر الذي لم يحول دون أن تزداد علاقتهما قوة أكثر فأكثر في كل يوم. كانت أسرة كروتسيفيرسكي بالنسبة لكروبوف بمثابة أسرته. كان يذهب إليهم ليُحيي قلبه الذي لا يزال دافئًا، وكان يرتاح بالنظر إلى سعادتهم. بالنسبة لأسرة كروتسيفيرسكي كان كروبوف بمثابة الفرد الأكبر في العائلة؛ الأب والعم، لكنه ذلك العم الذي له سلطة أن يوبخ ويعنف أحيانًا بفعل الحب لا حق الدم؛ الأمر الذي كان يجعل الزوجين يسامحانه من أعماق نفسيهما، بل وكانا أحيانًا يشعران بالحزن إذا لم ترَه أعينهما ليومين متتاليين.

في اليوم التالي؛ في السابعة بعد الغداء، أحضر سيميون إيفانوفيتش بيلتوف معه إلى منزل الزوجين كروتسيفيرسكي في مزلجته المغطاة بغطاء أصفر، يجرها جوادان يغطيهما حرير كستنائي. لا شك أن بيلتوف كان سعيدًا للغاية بالتعرف إلى إنسان محترم، ولم يخطر على باله قَطُّ أنه سيبادر بالزيارة الأولى. ارتبكت الزوجة قليلًا. عندما دخلت غرفتها بعد ذلك ظلت تسترجع مديح سيميون إيفانوفيتش والإشاعات المتداولة عن حياته في الخارج، بل وحتى عن ثروته؛ الأمر الذي أضفى بعض التكلف على اللقاء، لكن كل هذا قد انقضى. اتسم استقبال بيلتوف وأحاديثه ببعض الصراحة والبساطة. إلى جانب ذلك كان هناك الكثير من اللباقة التي نجدها دائمًا في الأشخاص السامِين ذوي النفوس المتطورة والرقيقة، ومن ثَم لم تمر نصف ساعة حتى صارت نبرة الحديث أخوية. حتى كروتسيفيرسكايا التي لم تكن تألف الغرباء،

وجدت نفسها قد انخرطت في الحوار عفويًّا. تذكر بيلتوف بصحبة ديمتري ياكوفليفيتش سنوات الجامعة والكمية الهائلة من النكات والأحلام والآمال التي كانت حينها. منذ زمن طويل وهو لم يشعر بهذا السحر، وشكر كروبوف بود على تعريفه بالزوجين عندما أوصله الأخير إلى مدخل فندق «كيريسبرج».

سأل بعدها سيميون إيفانوفيتش الزوجين كروتسيفيرسكي:

- ما رأيكما إذن في صديقنا الجديد؟

أجاب كروتسيفيرسكي:

- لا يجب عليك أن تسأل مثل هذا السؤال.

قالت لوبوف ألكسندروفنا:

- إنه يروق لي جدًّا.

شعر سيميون إيفانوفيتش فجأة بالرضا الشديد لتحقيقه السرور للجميع، حتى إنه ظل يهدد بإصبعه مازحًا.

احمر وجه لوبوف ألكسندروفنا.

إنها لوحات عائلية آسرة، وبعد انتهائي من واحدة منها الآن لا أستطيع منع نفسي من البدء في لوحة أخرى. أؤكد لكم أن الرابط الوثيق بين هذه اللوحات سيتضح لاحقًا.



-٣-

كانت لرئيس مقاطعة دوباسوف ابنة، ولم يكن هذا ليمثل شرًّا كبيرًا لا لكارب كوندراتيتش المبجل، ولا للرقيقة فارفارا كاربوفنا. لكن بالإضافة إلى هذه الابنة، كانت هناك زوجة، وكانت لدى فافا – كما كان أهل البيت يسمونها – بالإضافة إلى الأب، أم رقيقة؛ ألا وهي ماريا ستيبانوفنا، وقد غيَّر ذلك من الوضع بصورة واضحة[١٥٧]. كان كارب كوندراتيتش نموذجًا للوداعة في الشؤون الأسرية، وكان من الغريب رؤية كيف كان يتغير بانتقاله من الإسطبل إلى غرفة الطعام، ومن مخزن الحبوب إلى غرفة النوم أو المعيشة. لو لم تكن لدينا الوثائق الكافية التي وصلتنا من رحالة معروفين شاهدين على أن بوسع هذا الإنجليزي أن يكون مزارعًا وأبًا رائعًا، لراودنا الشك في إمكانية توفر هذين الجانبين في شخصيته. بالرغم من ذلك، إذا فكرنا بصورة أعمق، يمكننا أن نلاحظ أن الأمر لا بد أن يكون على هذه الصورة. خارج المنزل؛ أي في الإسطبل ومخزن الحبوب، كان كارب كوندراتيتش

(١٥٧) حتى لا يتوه القارئ في فوضى الأسماء الأساسية وأسماء التدليل: الأب: كارب كوندراتيتش – الأم: ماريا ستيبانوفنا – الابنة: فارفارا كاربوفنا (فافا).

يخوض حربًا، وكان فيها زعيمًا، وقد كبَّد أعداءه أكبر عدد ممكن من الخسائر. بالطبع كان هناك بعض العصاة المحرضين مُمثلين في الكسل وعدم اكتمال إخلاصه لمصالحه وعدم تمام تكريسه لنفسه لصالح جياده الأربعة، وجرائم أخرى من هذا النوع. على النقيض من ذلك كان كارب كوندراتيتش يلقي في الفناء العناقات اللطيفة لزوجته المخلصة وجبين ابنته الطيب الجاهز للتقبيل. كان يخلع صدفته الخارجية الثقيلة المتمثلة في مشاغل مالك الأرض، ويصير إنسانًا طيبًا؛ يصير كارب كوندراتيتش الطيب. لم تكن زوجته في الوضع ذاته قَطُّ. في العشرين من عمرها خاضت حرب عصابات صغيرة عند جدران المنزل، وفي أوقات نادرة كانت تشن هجمات صغيرة من أجل بيض الدجاجات الصليبية، كما انشغلت بالمناوشات الدائرة مع الخادمات والطاهي، وأبقت المسؤول عن حجرة المؤن في حالة غضب دائم. لكن للأمانة، يجب أن أشهد لها أيضًا أن نفسها لم تستطع أن تكتفي قَطُّ بهذه الأعمال العدائية الصغيرة، وكانت فافا البالغة من العمر سبعة عشر عامًا تضغط على قلبها - والدمع يسيل من عينيها - عندما أحضرها ابن عمها من موسكو، حيث أنهت تعليمها في معهد أو مدرسة داخلية. إنها ليست زوجة طباخ ولا خادمة، بل ابنة عزيزة، ودم واحد يجري في عروقهم جميعًا، والواجب مقدس. في البداية كانوا يتركون فافا تستريح وتهرب إلى الحديقة، خاصة في الليالي القمرية، فبالنسبة لفتاة نشأت داخل أربعة جدران كان كل شيء يبدو جديدًا وساحرًا وآسرًا. كانت تنظر إلى القمر وتتذكر إحدى صديقاتها الأسيرات إلى قلبها،

وكانت حينها تعتقد اعتقادًا راسخًا أن صديقتها ستتذكرها في هذه اللحظة أيضًا، وكانت تحفر مونوجرامات[١٥٨] على الأشجار. كان هذا هو الوقت الذي يبدو فيه الأشخاص الباردون مثيرين للسخرية، بينما ترتسم ابتسامة على وجوهنا، ولكنها ليست ابتسامة ازدراء، بل تلك الابتسامة التي ترتسم على وجوهنا حينما ننظر إلى الأطفال بينما يلعبون. اللعب مستحيل بالنسبة لنا، فلنتركهم يلعبون إذن. التوتر والانفعال اللذان نجد عليهما الفتيات عادة فور أن يتركن المدارس الداخلية غير عادل، غير عادل إطلاقًا. في كل الأحلام وكل التضحيات التي تتم في هذه الفترة العمرية، وفي القابلية للحب وغياب الأنانية وفي التفاني وإنكار الذات، ثمة إخلاص مقدس، ومن ثَم نجد الحياة قد وصلت إلى نقطة تحول ولم تُرفع ستارة المستقبل بعد؛ الستارة التي تخفي خلفها أسرارًا مريعة؛ أسرارًا آسرة. في هذه الفترة يعاني القلب معاناة شديدة لأسباب مجهولة، ويتطور الجسد في الوقت ذاته ويضطرب الجهاز العصبي، وتصير الدموع جاهزة للانهمار بلا توقف. تمر خمسة فستة أعوام ويتغير كل شيء. تتزوج، ولا يعود هناك مجال لقول شيء. وإذا كانت لا تزال هناك شرارة متبقية من الطبيعة الصحية، لا تعود الفتاة تنتظر أن يسحب أحدهم حجابًا سريًا، بل تسحبه بنفسها وتنظر إلى الحياة بطريقة مختلفة. مضحكة هي النظرة إلى العالم بعيني خريجة مدرسة داخلية في الخامسة والعشرين من العمر، أما بالنسبة لها فهي نظرة محزنة.

---

(١٥٨) المونوجرام: الأحرف الأولى من اسم شخص مرقومة على نحوٍ متشابك.

لم تكن فارفارا كاربوفنا بارعة الجمال، ولكنها تمتعت ببديل ثري للجمال؛ شيء قد يدو (بالفرنسية في الأصل) كخمر ذي نكهة مميزة، لا يدركه سوى من يختبره. إنه شيء لم يتطور بعد؛ شيء نبوئي، تكهُّني، متحد بالشباب، يصبغ كل شيء بالأحمر ويمنحه سحرًا خاصًّا رقيقًا لطيفًا. بالنظر إلى وجهها النحيل والمكفهر، واضطراب الشباب في جسدها، وعينيها المتأملتين ذواتَي الأهداب الطويلة، يتبادر إلى الذهن تلقائيًّا تساؤل عن الكيفية التي ستتغير بها جميع هذه السمات، والأمر ذاته مع الفكر والشعور وهاتين العينين، ويجد المرء كل شيء قد نال تعريفًا ومغزى ونهاية، ويتصور المرء كم سيكون الأمر جميلًا حينما يميل هذا الرأس على هذه الكتف! إلا أن ماريا ستيبانوفنا كانت غير راضية عن مظهر ابنتها، وأسمتها «القبيحة»، وأمرتها أن تستحم كل صباح ومساء في مياه الخيار التي كانت تضيف إليها مسحوقًا ما حتى تتلاشى «سفعة الشمس»، وهكذا كانت تسمي بشرتها الداكنة. أجبرها سلوك فافا في حضور الضيوف على أن توليها انتباهًا جديًّا. كانت فافا خجولة، وكانت تخرج إلى الحديقة ومعها كتاب، ولم تكن تتغنج أو تلقي تلك النظرات الخاصة. كان الكتاب يُنتزع منها باعتباره السبب المباشر لهذا السلوك، ثم يأتي دور تعليمات الوالدين اللا نهائية. بدا لماريا ستيبانوفنا أن فافا لا تخضع لها بسرور كامل، وأن حاجبيها أيضًا ينعقدان، بل وإنها تجرؤ أحيانًا على الرد عليها. في ظل كل ما سبق أظن أنكم أنفسكم كنتم ستوافقون على ضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة. أخفت ماريا ستيبانوفنا في هذه الفترة حبها الدافئ لابنتها، وبدأت تضطهدها وتحتك

بها في كل خطوة تخطوها. لم تعد تسمح لها بالتجول، وحينما كانت تسمح لها بذلك تتعمد أن يكون في الوقت الذي تفضل فيه فافا البقاء في المنزل. كانت تجبرها على تناول الطعام، وتلومها في كل يوم على أنها تسمن. أثَّرت هذه الاضطهادات على طبيعة فافا، فصارت أكثر ضراوة، وازدادت نحولًا. أحيانًا كان يخطر على ذهن كارب كوندراتيتش أن زوجته تضايق الفتاة المسكينة بلا جدوى، بل إنه جرَّب أن يُلمِّح لها عن الأمر، ولكن ما إن وصل الحديث إلى نقطة أكثر تحددًا حتى شعر بالهلع إلى درجة أنه لم تعد لديه القوى اللازمة لمغالبته، وتوجه فورًا إلى مخزن الحبوب حيث جازى نفسه على هذا الخوف اللحظي بخوف آخر طويل جلبته له إقطاعياته. بعد أن أُطلِقت يد ماريا ستيبانوفنا، صارت تشتري بأكبر قدر من الحمية أنسجة كتانية ومفارش ومناشف من أجل جهاز العروس المستقبلي، مجبرة سبع خادمات على إنهاك أعينهن في العمل على بكرات الخيط، وثلاث خادمات على تطريز أغراض غير لازمة لفافا، وفي الآن نفسه ظلت تطارد وتضايق فافا بمثابرة غير محتملة وكأنها عدوها الشخصي.

عندما وصلوا إلى (ن. ن) لحضور الانتخابات، حشر كارب كوندراتيتش نفسه بصعوبة في زي النبلاء الرسمي، فعلى مدار ثلاثة أعوام جاء الكثير جدًّا من القادة، وعلى النقيض بالنسبة للزي الرسمي، فقد بدا كأنه انكمش. لقد ذهب إلى رئيس المقاطعة وممثل المقاطعة الذي كان يطلق عليه بذكاء ليميزه عن الحاكم «سيادته الخاص بنا». أما ماريا ستيبانوفنا فقد تولت شؤون كل ما يتعلق بتزيين غرفة المعيشة،

وتفريغ مختلف أنواع النفايات التي جلبتها من مختلف أنحاء القرية بواسطة أربع عربات. وقد عاونها ثلاثة خدام في تمام قوتهم وعافيتهم، يرتدون سترات قصيرة من نوع رمادي من الجلد، مختلف تمامًا عن اللباد أو الجوخ. سار العمل قدمًا، وفجأة توقفت السيدة، كما لو أن فكرة كانت غافلة عنها قد صعقتها، وصاحت بصوتها الطنان:

- فافا، فافا، أين تختبئين، ها؟

دخلت الفتاة المسكينة الغرفة، شاعرة أن الأمر لا يُنذر بخير.

- أنا هنا يا ماما.

- ما لكِ تبدين هكذا؟ أمريضة أنتِ أم ماذا؟ في الحقيقة النظر إليكِ من بعيد يجعل الناظر يظن كأن حياتكِ في منزل والديكِ سيئة. آه من هذه المدارس الداخلية! أهذا وجه تقابلين به أمكِ؟ (وهنا حاكت ماريا ستيبانوفنا وجه ابنتها الواهن). أنا أيضًا كنت ابنة ذات يوم، وعندما كانت ماما تناديني كنت أهرع إليها بوجه بشوش. (وهنا حاكت هذا الوجه البشوش ورسمت ابتسامة)، أما أنتِ فمتجهمة طوال الوقت. حمقاء واهنة! ما الذي يمكنه أن يبهجكِ؟ الفلاح لا يتعلم أبدًا! حسنًا يا عزيزتي، كفى مزاحًا. سأخبركِ في المرة القادمة بنظام واضح ما الذي يحزنني تحديدًا في سلوككِ. لقد التزمت الصمت هناك في القرية، لكني لن أستطيع فعل ذلك هنا. لم أرغب في المضي بعيدًا إلى درجة أن يقولوا عن ابنتي إنها حمقاء همجية. لن أسمح لكِ هنا بالتواري في أحد الأركان. كيف يمكنكِ ألا تشعري بالاهتمام بأحد الفرسان؟ عندما كنت في الخامسة عشرة لم أكن أستطيع مفارقتهم. حان الوقت الآن

للدخول في علاقة، أتسمعينني؟ آه أيها الوغد! قلت لك إنك ستكسره هكذا. تعالَ هنا! تعالَ أيها الأحمق وأرني كيف كسرته تمامًا إلى جزأين! حسنًا، سأريك! سننتظر فقط وصول سيدك، وسأشدك بنفسي من شعرك، ولكن لا. أشعر بالاشمئزاز من لمس شعرك، فقد لطخته بالزيت. إنه اللص ميتكا يستخدم زيت أسياده في المطبخ. انتظريني، سأحضره. نعم يا فارفارا كاربوفنا. دعيني أزوِّجك في هذه الانتخابات. سوف أجد لكِ عرسانًا. لن أُدلِّلكِ أكثر من ذلك. ماذا تظنين؟ أتظنين أنكِ جميلة الجميلات وأنهم سوف يسعون خلفكِ؟ إنكِ لا تتمتعين بوجه جميل ولا بجسد جميل ولا تريدين حتى أن تخطي خطوة، ولا تعرفين كيف ترتدين ثيابًا جميلة، ولا تستطيعين أن تقولي كلمة واحدة؛ وتقولين إنكِ تعلمتِ في موسكو! لا يا عزيزتي، فلنُنحِّ الكتب جانبًا. كفاكِ ما قرأتِه، كفاكِ تمامًا! أمكِ ستتولى كل شيء. سأبعدكِ عن الأنظار إذا لم تسلكي بطريقة لائقة.

وقفت فافا كالمحكوم عليه بالموت، وبدت لها كلمات أمها الأخيرة بمثابة عزاء لها.

– كيف لم تجدي عريسًا إلى الآن؟ ماذا؟ ماذا؟ أستبدئين في البكاء الآن حتى تحمر عيناكِ؟! أهكذا تجازين رعاية أمكِ لكِ؟

اقتربت منها بشدة، وكانت خصلات شعر فافا ناعمة وجافة. لم يكن من المعروف كيف كان لهذه القصة أن تنتهي لو لم يسقط الدبدوب الصغير من السترة القصيرة في الوقت الذي سقط فيه طبق الحلوى. انصب كل غضب ماريا ستيبانوفنا على هذا الأمر الأخير.

صاحت بصوت أجش:

– من كسر الطبق؟

أجابها صوت خادم صبور:

– انكسر من تلقاء نفسه.

– كيف من تلقاء نفسه؟ كيف؟ أتجرؤ على أن تقول لي: من تلقاء نفسه؟

وأكملت حديثها بيديها، وربما وجدت أن الإشارة تُعبِّر بدرجة أقوى من الكلمة عن حالتها المضطربة.

لم تستطع الفتاة المعذَّبة أن تحتمل أكثر من ذلك. انفجرت فجأة في البكاء وسقطت على الأريكة في نوبة هستيرية مريعة. خافت الأم وصاحت: «النجدة، أيتها الخادمة، ماء، القطرات. استدعوا الطبيب، استدعوا الطبيب». كان انهيارًا عصبيًّا شديدًا، ولم يأتِ الطبيب. أرسلوا له رسولًا ثانيًا وعاد بالإجابة ذاتها: «أمرني أن أبلغكم بضرورة الانتظار قليلًا، فلديه حالة ولادة متعسرة».

– اتفوو. عليه اللعنة! من هذه المرأة التي لا تستطيع أن تصبر قليلًا على الولادة؟

أجاب الرسول:

– طاهية المدعي العام.

كان هذا كافيًا لإكمال الوضع المأساوي لماريا ستيبانوفنا. احمر وجهها وصار الوجه غير الجذاب منفرًا.

– الطاهية؟ الطاهية؟

ولم تستطع أن تقول كلمة أخرى.

دخل كارب كوندراتيتش وقد بدا عليه السرور والرضا. لقد صافحه الحاكم بود وأراه السجادة التي طلبها من بطرسبرج من أجل غرفة المعيشة. نظر كارب إلى السجادة ببساطة أبوية يمكن أن تخفي تحتها المداهنة والإذلال، وقال: «لدى أمي آنا ديمتريفنا سجادة كسجادة سعادتكم». شعر بالرضا عن كل ذلك، خاصة عن إجابته الحذقة. وفجأة سقط على رأسه هذا المشهد الأسري: الابنة في حالة هستيرية، والزوجة في حالة اهتياج، وطبق مهشم على الأرض، ووجه ماريا ستيبانوفنا يبدو مريعًا والذراع اليمنى حمراء بشدة.

– ما الأمر؟ ماذا حدث لفافا؟

أجابت الأم الرقيقة:

– أمر مما يحدث للفتيات عادة. من أين لها أن تتحمل مسافة مائة وعشرين فرستًا؟ قلت لك أن نؤجل السفر حتى الأربعاء، وحدث ما حدث. عالجها إذن الآن!

– عذرًا، ولكن تأجيل الأمر حتى الأربعاء لم يكن ليجعل الطريق يقل فرستًا واحدًا.

– أنت الخبير في كل شيء! لن أسمح بهذه الجريمة في منزل كروبوف. آه من هذا الماسوني الوغد! أرسلت في طلبه مرتين. لست أقل الناس شأنًا في هذه المدينة! لماذا لا تعرف كيف تسلك

جيدًا؟ إنك تسلك بشكل أسوأ من مُقدِّر الضرائب. لقد أرسلت في طلبه بينما سمح لنفسه بأن يسخر مني. أترى ماذا فعل؟ إنه هناك يعالج طاهية المدعي العام. ابنتي تموت وهو يعالج طاهية المدعي العام! وغد متطرف.

- نذل ووغد.

هكذا اختتم رب البيت حديثه.

لم يكن تيار كلمات ماريا ستيبانوفنا الحار قد توقف بعد وإذا بباب ردهة الاستقبال قد انفتح، ودخل العجوز كروبوف الغرفة بمظهره المنظم، وعصاه في يده. كان منظره يشي بقدر من الرضا أكثر من المعتاد، بل إن عينيه بدتا كما لو أنهما تضحكان، وسأل من دون أن يلحظ أن أصحاب البيت لم ينحنوا له بالتحية:

- من يحتاج هنا إلى عوني؟

- ابنتي.

- آه فيرا ميخايلوفنا؟ وماذا بها؟

قال رب البيت، ولم تخلُ كلماته من فخر:

- ابنتي تُدعى فارفارا، وأنا كارب.

- عذرًا عذرًا، ولكن ماذا عن فارفارا كيريلوفنا؟

قاطعته ماريا ستيبانوفنا بصوت مرتعش من فرط الغضب:

- ولكن أريد أن تُطمئني أولًا يا سيد: هل أنجبت الطاهية بسلام؟

قال كروبوف بحمية:

– نعم. إنها بخير. بخير تمامًا. لم أرَ في حياتي مثل هذا من قبل. لقد ظننت فعلًا أن النجاة لن تكون مصير الأم والطفل. كانت الفلاحة شديدة الوهن، ويداي قد صارتا عجوزتين، ولم أعد أرى بصورة جيدة. هل تتصوروا أن الحبل السري كان...

– آه يبدو أنك جننت يا سيد! هل سأظل أسمع هذه الترهات؟ من أين جئت بكل ذلك؟ الفلاحات لديَّ في القرية يلدن خمسين طفلًا كل عام، ولم أسمع مثل هذه الرجاسات. (وحينها بصقت)

أدرك كروبوف الأمر في النهاية رغمًا عنه. لقد ظل طوال الليل بصحبة هذه الأم المسكينة في مطبخ خانق، وكان لا يزال تحت تأثير النتيجة السعيدة التي حققها، إلى درجة أنه لم يفهم في البداية نبرة ربة المنزل. واصلتْ الحديث قائلة:

– ما الأمر؟ أيدفع لك المدعي العام جيدًا إلى درجة أنك لا تستطيع ترك الفلاحة لدقيقة بينما الموت يكاد يستولي على ابنتي؟

– ولا دقيقة يا سيدتي، ولا دقيقة واحدة، سواء من أجل ابنتكِ أو أي شخص آخر. من الواضح أنها ليست مريضة إلى هذه الدرجة، وأنتِ غير متعجلة فعلًا في إرسالي إليها. كنت أعرف ذلك.

أسكتت هذه الملاحظة الوالدين الرقيقين، لكن سرعان ما تمالكت الأم نفسها مجددًا وعارضت قائلة:

- إنها الآن أفضل حالًا، وأنا فعلًا لن أجعلك تذهب إلى ابنتي ويدك غير مغسولة.

أضاف رب المنزل:

- أعترف يا سيدي الطبيب أنني لم أكن في انتظار هذا السلوك والتفسير المتجاسرين منك. لم أكن في انتظار ذلك من طبيب خبير معتبر. لولا احترامي للصليب ولمكانتك لما التزمت بالبقاء داخل تلك الحدود التي أنا فيها الآن. منذ أن صرت رئيس المقاطعة من ستة أعوام مضت لم يسئ أحد إليَّ هكذا.

- عذرًا، إذا لم تكن في داخلك شرارة حب الإنسانية، فعلى الأقل يمكنك أن تتصور أنني هنا المفتش الطبي، والقيِّم على القوانين المتعلقة بالقطاع الطبي، ومن ثَم لن أترك امرأة تحتضر من أجل أن أهرع إلى فتاة معافاة تعاني من صداع نصفي أو هستيريا أو ما شابه. يا له من مشهد منزلي! ما تقوله مناقض للقوانين، وفي الآن ذاته تجد لنفسك الحق في الغضب؟!

كان كارب كوندراتيتش بالإضافة إلى ما ذكرناه عنه جبانًا، ومن ثَم بدت له كلمات الطبيب تنطوي على اتهام بأنه من أصحاب التفكير الحر. لذلك أظلمت عيناه وأسرع يجيب قائلًا:

- لم أكن أعرف. لم أكن أعرف والله الشاهد. أمام القانون لا يمكنني أن أنبس بشفة. ها هي فافا تنهض.

اقترب كروبوف منها، وفحصها. جس يدها وهز رأسها وسألها سؤالين أو ثلاثة، عالمًا أنه لن يتدبر الأمر من دون ذلك، وكتب وصفة طبية تافهة، مضيفًا: «الأهم من كل ذلك هو الهدوء، وإلا ساء الأمر»، وغادر المكان.

شعرت ماريا ستيبانوفنا بقليل من الراحة بعد أن كانت في حالة خوف وانفعال شديدين، ولكن عندما تناهى إلى أسماعها ما يتعلق ببيلتوف دق قلبها بقوة شديدة، إلى درجة أن الكلب الصغير المستلقي عند قدميها منذ ستة أعوام، إلى جانب منديل أنف وعلبة سعوط صغيرة، دمدم وشمشم وترك جلسته ليرى من الذي يقفز هكذا ويصرخ: «بيلتوف، ها هو العريس! بيلتوف هو من نحتاج إليه».

زار بيلتوف كارب كوندراتيتش بالطبع، وفي اليوم التالي دفعت ماريا ستيبانوفنا زوجها دفعًا ليذهب إلى بيلتوف ويقدم احترامه، وفي غضون أسبوع وصلت بيلتوف ورقة ناعمة الملمس تفوح منها رائحة معطف من صوف الخرفان، اكتسبتها من صدر الحوذي الذي جلبها، مكتوب فيها الآتي:

«يناشد رئيس مقاطعة دوباسوف وزوجته فلاديمير بيتروفيتش بكل تواضع أن يشرفهما بتناول الغداء في منزلهما غدًا في الثالثة».

قرأ بيلتوف الدعوة بهلع، وبعد أن ألقاها على الطاولة أخذ يفكر: «ما الذي يريدونه من خلف هذه الدعوة؟ لديهم أموال كثيرة وجميعهم بخلاء، وسأشعر هناك بملل قاتل، ولكن ليس هناك شيء في يدي. عليَّ أن أذهب وإلا صار الأمر مهينًا».

قبل هذا الغداء بيومين بدأت عمليات تجهيز ثياب فافا وإعدادها، وكانت الأم تدعها تجرب الثياب وتقيسها من الصباح وحتى الليل، بل إنها أرادت أن تجبرها على الظهور بفستان أحمر مخملي، لأنه بدا لها أنه سيكون ملائمًا للون وجهها، ولكنها استمعت إلى نصيحة ابن عمها الذي جاء بطريقة غير رسمية إلى المحافظ، وظنت أنه يعرف كل الصيحات، لأن المحافظ وعد باصطحابه معه في الصيف القادم إلى كارلسباد[١٥٩]. بالأمس أمرت ماريا ستيبانوفنا أن يجلبوا نخالة اللوز لإعداد المهلبية، كما وضحت ابنتها كيف يجب أن تفرك عنقها وكتفيها ووجهها، وبدأت كلامها بنبرة احتفالية تنم عن استعداد واضح لتحول النبرة إلى التعنيف في أي لحظة. قالت:

- فافا، إذا أعانني الله على تزويجكِ من بيلتوف، واستُجيبت جميع صلواتي، فسينتهي أمركِ بالنسبة لي. أريدكِ أن تواسي أمكِ. هل أنتِ عديمة الشعور أو متحجرة؟ ألا تستطيعين فعل ذلك؟ كيف لا يمكنكِ أن تُعجبي بشاب؟ الفتيات هنا كثيرات، ومنهن الجميلات والمتبجحات، وبنات المسؤولين، لكنهن في نظري منفرات، ويتحدثن وهن يغمزن لبعضهن كالسكرتيرات. أما بالنسبة لعراقة الأسر، فستجدين والد الواحدة منهن قد تزلف إلى رؤساء إدارات الديوان العام. ليتكِ تملكين طموحًا حتى لو لشعركِ الذي لا بد وأنه سيبدو مثيرًا للسخرية. إنهن يحُمن حول شقته بلا حياء في عرباتهن المكشوفة ويحطن به. نعم، الأمل قليل فعلًا. أشعر الآن كما لو أنني أُصلَب، وهي تنظر إليَّ بجمود

(١٥٩) مدينة تقع الآن في غرب بوهيميا في التشيك.

كقطعة خشب. لقد كافأني السيد على جهودي بدمية بدلًا من ابنة!

قالت فافا بصوت يشبه الهمس وبنظرة يائسة:

– ماما، ماما، ما الذي في يدي لأفعله. لا يمكنني فعل شيء أكثر من ذلك. فكِّري بنفسكِ، أنا لا أعرف هذا الإنسان، وربما لا يُوجِّه لي أي انتباه. لن ألقي بنفسي على عنقه لأجذب انتباهه.

– يا للوقاحة! ومن الذي قال لكِ أن تُلقي بنفسكِ على عنقه؟ أهكذا تريدين أن تنفذي رغبة أمكِ؟ لن تفهمي أبدًا! هل أمكِ سيئة أو سكيرة حتى لا تستطيع أن تختار لكِ عريسًا؟ يا لكِ من أميرة!

توقفت الأم خشية أن تؤذي ابنتها بالبكاء لئلا تصير عيناها حمراوين غدًا.

أخيرًا حل اليوم الموعود. ظلوا يمشطون شعر فافا من الثانية عشرة ويدهنونها ويخنقونها. أحكمت ماريا ستيبانوفنا بنفسها ربط مشد ابنتها حول خصرها وذراعها فصارت أشبه بالدبور، واستطاعت بحكمتها أن تهذب الحاشية القطنية، لكنها لم تشعر بالرضا عن أي شيء. بدت لها الياقة مرتفعة قليلًا، وبدت إحدى كتفي فافا أدنى من الأخرى. شعرت بالغضب من كل ذلك، ولم تستطع تمالك نفسها، فبدأت تدفع الخادمات لتحثهن على العمل، وهرعت إلى غرفة الطعام، وعلَّمت ابنتها أن تلقي بنظرات معينة، كما وجَّهت الساقي إلى ترتيب الطاولة وما إلى ذلك. كان يومًا صعبًا حقًّا لماريا ستيبانوفنا، ولكن حب الأم يمكن أن يفعل الكثير!

من المفهوم بالطبع أن كل هذا حسن وضروري للبيت حيث لا مجال لأحلام اليقظة، بل يجب التفكير في مصير الابنة ورخائها. لكن ما يدعو للأسف هو أن هذه الإجراءات الاستعدادية التي تجري خلف الكواليس تحرم الفتاة من روعة لحظات اللقاء الأول المكشوف والمأمول، وتفضح لها سرًّا لا يجب أن يُفضح، وتكشف في وقت مبكر للغاية أن النجاح لا يتطلب العاطفة ولا السعادة، بل أوراق اللعب المُعلمة. تضفي هذه الاستعدادات طابعًا مبتذلًا على العلاقات التي لا يمكن أن تكون حقيقية ومقدسة إلا إذا لم تُبتذل. ربما يضيف الأخلاقيون المتشددون أن كل هذه الإجراءات يمكنها أن تفسد قلب الفتاة، ويمكن أن تُمثِّل سقوطًا، لكننا لن نصل إلى هذا الحد. إلى جانب ذلك، بغض النظر عن أي تفسير، لا بد للبنات أن يتزوجن، فهن لا يولدن إلا من أجل ذلك، وأظن أن جميع الأخلاقيين سيوافقونني على ذلك!

في الساعة الثالثة جلست فافا المهندمة في غرفة المعيشة، حيث بدأ بعض الضيوف في التوافد فعلًا بداية من الثالثة والنصف، وكانت الصينية الموضوعة أمام الأريكة قد فقدت بالفعل نصف الكافيار والسمك المملح، وحينها دخل الحوذي فجأة وقدَّم خطابًا لكارب كوندراتيتش. أخرج كارب كوندراتيتش النظارة من جيبه، وحاول تنظيفها بمنديله المتسخ، واستطاع بطريقة ما أن يعلن بصوت يبدو عليه بوضوح فقدان الهدوء، كما كان يفعل في مستودعاته:

- ماشا (تدليل ماريا - المترجم)... فلاديمير بتروفيتش يطلب أن

نعذره؛ فهو مريض. أصيب بدور برد، ولن يستطيع الحضور، ويقول إنه يشعر بالأسف الشديد.

تغير وجه ماريا ستيبانوفنا، واندفعت صوب ابنتها، وفي عينيها نظرة كما لو أنها تتهم ابنتها بأنها هي التي أصابت بيلتوف بالبرد. ابتهجت فافا. لم يحدث قَطُّ أن بدت ماريا ستيبانوفنا في وضع مثير للسخرية أكثر من ذلك، لقد كانت مثيرة للسخرية إلى درجة أن بدت مثيرة للأسف. كرهت بيلتوف من كل قلبها وفكرها[١٦٠]. ظلت تتمتم قائلة: «إنها إهانة».

قال الخادم:

– الطعام جاهز.

اصطحب رئيس المقاطعة زوجته ماريا ستيبانوفنا إلى طاولة الطعام.

بعد مرور أسبوعين على هذا الحادث، انشغلت ماريا ستيبانوفنا بالشاي؛ كانت تحب شرب الشاي سواء كانت وحدها أو بصحبة بعض الأصدقاء المقربين، وكان ذلك يستمر لفترة طويلة. جلست قبالتها على مقعد امرأة طويلة ذاوية ترتدي قبعة، ولديها رأس يتمايل قليلًا. كانت المرأة تحوك وشاحًا صوفيًّا على إبرتين كبيرتين، وهي تنظر إليها من خلف عدسات سميكة لنظارة ذات أُطر فضية، تشبه حاملة مدفعية أكثر من شيء يمكن أن يوضع على أنف إنسان، وكانت قبعتها داكنة بالية، بالإضافة إلى حقيبة ضخمة برزت منها بعض الإبر، ولاح عليها

---

(١٦٠) محاكاة ساخرة لـ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكِ» لوقا (١٠:٢٧).

أنها تنتمي إلى هذه الإنسانة تحديدًا، ومن ثَم بان أنها ليست ثرية. كان الأمر الأخير والأوضح من كل ما سبق هو لهجة ماريا ستيبانوفنا. كانت تنادي هذه الإنسانة باسم آنا يكيموفنا، وكانت من أصل نبيل، وترملت منذ شبابها. اشتملت ضيعتها على أربع أنفس من الفلاحين، وهم يشكلون الجزء الرابع عشر من الإرث المقسَّم بين أقاربها، وهم أناس شديدو الثراء، مدوا لها يد العون لكونها أرملة، فاقتطعوا لها ولفلاحيها مستنقعًا مليئًا بطيور الشناقب بمختلف أحجامها، لكنه ليس صالحًا للزراعة! بالرغم من كل الجهود التي بذلتها آنا يكيموفنا لم تستطع أن تنال إيجارًا كبيرًا من هذا المستنقع. لم يكن نصيبها من إرث زوجها أيضًا كبيرًا، فقد تمثَّل في رتبة مقدم وابن وحيد ومجموعة من الوصفات الخاصة بعلاج الجياد من داء الخيل وما إلى ذلك. في كل وصفة من هذه الوصفات مذكور معيار نجاح مذهل. منذ أن بلغ التاسعة عشرة التحق الابن بأحد الأفواج العسكرية، لكنه عاد سريعًا إلى منزل والديه، مطرودًا من عمله العسكري بسبب السُّكْر والسلوكيات العنيفة. منذ هذه اللحظة فصاعدًا عاش في جناح منزل آنا يكيموفنا، وكان يخفي الفودكا السيئة المليئة بقشور الليمون، ويتعارك دائمًا تارة مع الغرباء وتارة مع المعارف الجيدين. كانت الأم تخشاه خشيتها من النار، وأخفت عنه المال والأغراض الثمينة، وأقسمت أمامه إنها لم تعد تملك كوبيكًا واحدًا، خاصة بعد أن حطم بالفأس غطاء صندوقها وانتزع منه ٧٢ روبلًا وخاتمًا فيروزيًا ظلت تحتفظ به لأربعة وخمسين عامًا تذكارًا لشريكها المخلص الراحل. بالإضافة إلى الفلاحين والوصفات امتلكت آنا

يكيموفنا أيضًا ثلاث خادمات؛ واحدة كبيرة واثنتين صغيرتين. لم تكن تكسي الخادمتين الصغيرتين قَطُّ، ولكن الأروع من ذلك أنهما كانتا ترتديان دائمًا ثيابًا رائعة. كانت آنا يكيموفنا تنظر إليهما برضا وهما تُعدَّان تلك الثياب؛ بغض النظر عن أنها كانت تقوم بأعمالهما بنفسها، وكانت تصمت بحذر عندما ترصد بعض المخالفات. كانت تملك خادمين عجوزين، لا يفعلان شيئًا سوى شرب الخمر، ويقضيان نصف الوقت مع الخادمات، وبالإضافة إلى ذلك كانا يحوكان لنصف المدينة أحذية من جلد الماعز ذات رائحة قوية.

أنهت الرئيسة الموقرة لهذه الكتائب الأبوية فنجان شايها الرابع عند ماريا ستيبانوفنا، واستطاعت أن تكرر للمرة المائة كيف ظل الأمير الجورجي الراحل قائد الجيش يتودد إليها، وكيف سافرت في ١٨٠٩ إلى أقاربها في بطرسبرج، وكيف اجتمع كل الجنرالات في منزل أقاربها، وكيف أنها لم تمكث هناك لسبب واحد؛ ألا وهو أن مذاق المياه بجادة نيفسكي لم يكن يروق لها ولا يوافق معدتها. بعد أن أنهت ذكرياتها الأرستقراطية مع فنجان الشاي الرابع قلَّبت الفنجان فجأة بصوت مرتفع وقد وضعت قطعة سكر على الطبق الصغير.

– لو يمنحني الرب فقط يا ماريا ستيبانوفنا أن أحضر زواج كريمتكم فارفارا كاربوفنا، لن أعود أرجو شيئًا آخر. سيبتهج قلبي بأسرتكِ، وسيبدو المنزل كالفنجان الممتلئ، ويسود الاحترام كل زاوية فيه. الحق أنه سيكون حسنًا أن تنالي قدرًا من الهدوء.

– لماذا أبعدتِ الفنجان؟ تناولي المزيد.

- يكفي ذلك؛ في العادة أشرب ثلاثة فناجين فقط، أما لديكِ فقد شربت أربعة. أشكركِ بكل تواضع. الشاي لديكِ رائع.

- نعم، أقول دائمًا إن تحويل الروبل إلى رطل لا يعني شيئًا في رأيي، إلا إذا صار رطل شاي. تناولي فنجانكِ.

وأقبلت آنا يكيموفنا على الفنجان الخامس.

- كل شيء في يد الله بالطبع يا آنا يكيموفنا، ولكن فافا يافعة للغاية، فأين أجد لها عريسًا الآن؟ يلزم الاعتراف بأن بعض العرسان يدمرون الفتاة، وعندما أفكر كيف سيمكنني الافتراق عنها لا أتحمل، لا أتحمل الأمر فعلًا.

- فليعنكِ الله. ليس من الحسن أن يترك المرء بناته هكذا من دون زواج. إنهن لسن بضاعة يمكن أن تنتظر، بل على الأرجح ستبور. في رأيي إذا ما باركت العذراء المقدسة الأمر فسيكون من الحسن جمع ثنائي جيد. ها قد وصل ابن صوفيا ألكسيفنا. لقد جاء إلينا من مكان بعيد. لكن في الوقت الحالي لا نعرف كثيرًا عن أقاربه، خاصة الفقراء منهم، ولكن لا بد أن لديهم ألفًا أو ألفين نفس في ضيعة ما.

- أي إنسان هو؟ يجد المرء المال بين يديه ولا يدري أنه يشكل عبئًا عليه أكثر مما يجلبه من سعادة؛ إنه يجلب الهموم والمتاعب. كل هذا يبدو من بعيد جيدًا، ولكن اليد التي في الماء ليست كاليد التي في النار. لا يجب ترجمة المال إلا بالصحة. أنا أعرف ابن صوفيا ألكسيفنا، ولقد تعرف أيضًا على كارب كوندراتيتش. لقد استقبلناه بكل لطف، ولكن بدا على وجهه كما لو أنه قد كُتِب عليه: «فاحش». أيُّ أخلاق

هذه؟! يسلك في منزل أسرة نبيلة وكأنه في مطعم. هل رأيتِه؟

- رأيته في الشارع من بعيد. كثيرًا ما يَعبر بالقرب مني في أثناء تمشيته في الشارع.

- ولكن إلى أين يكون ذاهبًا عندما يمر بقربكِ؟

- لا أعرف. هل يتوجب عليَّ في هذا العمر، وفي ظل أمراضي الصعبة (وهنا تتنهد بعمق) أن أنشغل بوجهته؟ تكفيني أحزاني. لا أريد أن أخفي عليكِ شيئًا، كما أتحدث أمام وجه الله. يكيشا ابني عاود العربدة. قادني إلى المقبرة و... (وهنا انخرطت في البكاء).

- يجدر بكِ أن تتشاوري مع شيخ كنيسة الصليب المجيد. إنه يداوي بطريقة مذهلة. يأخذ قدرًا قليلًا من الخمر ويصلي عليه، ويعطيه للمريض ليشرب قدرًا منه، ويشرب هو المتبقي ولا شيء آخر، وهكذا تبدأ الشياطين الكامنة في المريض في الظهور، وتبدأ الهلوسات الشيطانية المختلفة. آه لو رأيتِ كيف ينتزعها بيده!

- غالب الظن سيطلب ثمنًا مرتفعًا، وأنتِ تعرفين حالنا.

- لا، لقد عالج الطاهي عندنا مقابل خمسة روبلات وحسب.

- وهل أفاده؟

- نعم، نعم، بدأ يترنح مجددًا، فجرب كارب كوندراتيتش حينها دواءً آخر؛ قال له: «يبدو أنك لا تفهم إحسان السادة. لقد أنفقت عليك خمسة روبلات ولم تتعافَ بعدُ أيها المحتال». قالها بالروسية

كما تعرفين، ومنذ تلك اللحظة لم يعد يشرب. سوف أرسل لكِ شيخ الكنيسة هذا. لن أحتمل أن أعرف أين يتسكع هذا الشاب.

- لقد سألت بنفسي خادمتي فاسيليسكا. إنها زلقة اللسان جدًّا معي. سألتها بدافع الكسل: أين يذهب هذا السيد الذي يمر بالقرب بنا، وفي اليوم التالي جاءتني قائلة: «بخصوص سؤالكِ بالأمس عن أين يذهب هذا السيد، إنه يقضي وقته كله مع الطبيب العجوز حيث يمضيان معًا إلى منزل المعلم كروتسيفيرسكي».

- يمضي مع كروبوف إلى منزل المعلم كروتسيفيرسكي؟

هكذا سألت ماريا ستيبانوفنا وهي لا تكاد تتمكن من إخفاء شعورها بالإثارة الذي لا يمكنها أن تُعبِّر عنه جيدًا.

- نعم، ذلك المعلم الذي يعمل في الجيمنازيا كما تعرفين.

- إذن هذا هو المكان الذي يتوجه إليه من دون دعوة! وأنا الذي اعتبرته في البداية فاحشًا! ولماذا أتفاجأ إذن؟ معلمه هذا قد نذر نفسه للماسونية منذ صباه. أي طريق هذا؟ لقد عاش الصبي من دون أي رقابة في العاصمة الفرنسية، ويمكنكِ بالطبع أن تتصوري نوعية الأخلاق هناك. إنه يتودد إذن إلى هذا المدعو كروتسيفيرسكي، رائع! عجيب زماننا هذا!

- أمر مؤسف، مؤسف حقًّا يا ماريا ستيبانوفنا. يقولون إن هذا الزوج الفقير رجل محترم، أما زوجته فيا لأصلها! رأيت في حياتي الكثير، رأيت ما يفعله أصحاب الأصل الذليل!

- ولكن سيميون إيفانوفيتش يلعب دورًا جيدًا حقًّا! رائع! يجدر بالخاطئ العجوز أن يخشى الله. إنه يعاون هذا الماسوني الذي يشبهه. تفضلي الشاي. ما حجم المال الذي يأخذه منه؟ وما المقابل؟ هل المقابل هو تدمير امرأة؟ قولي لي يا آنا يكيموفنا: ما المقابل الذي يدفع هذا البخيل مالًا من أجله؟ إنه يعيش وحده كالإصبع. ليس له أقارب ولا أي معارف. لا يعطي كوبيكًا لفقير. إنه بخيل لعين. يهوذا الإسخريوطي[١٦١] ! وإلى أين؟ سوف يموت كالكلب. سوف يعدمونه.

استمر الحوار ربع ساعة أخرى بالروح ذاتها والتوجه نفسه، وقد شربت آنا يكيموفنا ثلاثة فناجين شاي أخرى بفعل حرارة الحوار، وبدأت تستعد للانصراف، خلعت نظارتها وعلقتها على معطفها وأرسلت إلى من في ردهة الانتظار تسأل عما إذا كان ماكسيوتكا قد وصل ليقلها أم لا، وعندما عرفت أن ماكسيوتكا في انتظارها نهضت من جلستها. منذ وقت طويل لم تستقبلها ماريا ستيبانوفنا استقبالًا حلوًا كهذا، حتى إنها رافقتها حتى عتبة المنزل حيث يقف ماكسيوتكا غير الحليق، وهو عجوز في الستين، قذر، تفوح منه رائحة نبيذ عادي، يرتدي معطفًا صوفيًّا بياقة سوداء، بيد يحمل عباءة آنا يكيموفنا المصنوعة من جلد الأرنب، وبالأخرى يضع علبة السعوط الخشبية في جيبه. لم يكن

(١٦١) إشارة إلى التلميذ الذي خان المسيح وسلَّمه لرؤساء الكهنة ليصلبوه، مقابل ثلاثين من الفضة، بحسب القصة الإنجيلية.

ماكسيوتكا في حالة معنوية جيدة. كان على وشك أن يغلق باب العربة بعد دخول سيدته، ووضع إصبعه القذرة بالفعل على عتبة الباب، وإذا بها تفتح الباب صائحة: «غراب لعين». تمتم بفظاظة بصوت واضح: «عباءة على كتفين جافتين للأرملة آنا يكيموفنا».

قالت السيدة:

- أحمق يعمل لديَّ، لا يعرف كيف يقدم العباءة لسيدته.

تمتم ماكسيوتكا:

- تريدنا نحن الذين أتينا من الفناء أن نصير علماء!

- هكذا هو وضع الأرامل كما ترين. أعاني من كل شيء، حتى من أصغر الصبية. وماذا يمكنني كأنثى أن أفعل؟ لو كان المرحوم لا يزال حيًّا لفعلت الكثير بهذا الوغد، ولما كنت عرفت نفسي حينها، ولكنه القدر المرير. عسى ألا يحكم عليكِ الله به!

لم يتأثر ماكسيوتكا بهذا الحديث، وبينما كانت تستند إلى ذراعه وهي على درجات سلم العربة، نجح في الالتفات صوب المرافقين، وغمز بعينه مشيرًا إلى آنا يكيموفنا؛ الأمر الذي حقق سرورًا حقيقيًّا وطويلًا للواقفين في ساحة زوجة رئيس مقاطعة دوباسوف.

سأسمح للقراء بتخيل مقدار السرور والمتعة اللذين شعرت بهما ماريا ستيبانوفنا الطيبة عندما سمعت هذا الخبر، وتخيلت بوضوح إمكانية إطلاق قصة فاضحة، ليست عن بيلتوف وحسب، بل عن كروبوف أيضًا.

كان من الضروري في الطريق أن تُسحق سمعة امرأة. أمر مؤسف، ولكن ما العمل؟ تأتي أحيانًا أحداث مهمة تتم فيها التضحية بشخصيات إنسانية من أجل خطط عظيمة!



-٤-

في الوقت الذي كانت فيه الأرملة المبجلة آنا يكيموفنا تتناول شايها عند السيدة التي لا تقل تبجيلًا عنها ماريا ستيبانوفنا، وانخرطتا بقلبيهما الأنثويين الرقيقين في الحديث عن بيلتوف، جلس الأخير حزينًا جدًّا في غرفته، يفكر بكآبة في شيء ما محزن وثقيل الوطأة. لو كان قد وُهِب موهبة التبصر لشعر بالراحة بسهولة. كان حينها سيسمع بوضوح أنه على بُعد شارع كبير وقذر وزقاق صغير بدأت امرأتان تشاركان بسرور في تحديد مصيره؛ واحدة منهما استمعت للأخرى بلا مبالاة قاتلة، ولكن بيلتوف لم يوهب هذا الاستبصار، على الأقل لو كان روسيًّا لم تفسده هذه الابتكارات الغربية لأصابته الحازوقة، ولكان من شأن هذه الحازوقة أن تؤكد له أن هناك، هناك في مكان ما بعيد، شخصًا يتحدث عنه، ولكن في زماننا فقدت الحازوقة، التي تم إنكار سمتها السرية، أهميتها، ولم تعد أكثر من ظاهرة معدية مؤسفة.

إلا أن كآبة بيلتوف لم يكن لها أدنى علاقة بهذا الحديث الذي دار بعد فنجان الشاي السادس. في هذا اليوم استيقظ متأخرًا، شاعرًا بصداع. ظل في المساء السابق يقرأ طويلًا، لكنه كان يقرأ بلا انتباه؛ في

حالة بين اليقظة والنوم. في الأيام الأخيرة تطور أكثر فأكثر في داخله شعور مكدر بأنه ليس في حالته الطبيعية، ولم يتضح الشعور بصورة كافية، لكنه كان في حالة ميل صوب أفكار مكدرة. شعر أنه يفتقد شيئًا ما، لكنه لم يستطع تركيز ذهنه على فكرة بعينها. بمرور ساعة دخن سيجارًا وشرب قهوة، وظل طويلًا يفكر كيف يبدأ يومه؛ أيبدأه بالقراءة أم بالتنزه، وقرر في النهاية أن يبدأه بالتنزه. خلع حذاءه المنزلي، لكنه تذكر أنه كان قد تعهد أمام نفسه بأن يقرأ في أوقات الصباح الكتب الجديدة الخاصة بالاقتصاد السياسي، ومن ثَم ارتدى حذاءه المنزلي مجددًا، وتناول سيجارًا آخر واستعد للانخراط في القراءة عن الاقتصاد السياسي، ولكن لسوء الحظ كان كتاب بيرون موجودًا إلى جانب علبة السجائر. استلقى على الأريكة وانخرط في قراءة «دون جوان» حتى الخامسة. عندما نظر إلى الساعة بعد أن أنهى قراءته تعجب بشدة من أن الوقت قد تأخر إلى هذا الحد، ونادى على خادمه، وأمره بأن يجهز ثيابه بأقصى سرعة، إلا أن اندهاشه وأمره قد حدثا بصورة تلقائية فحسب، فلم يكن هناك مكان قد قرر الذهاب إليه على وجه التحديد، وكان الأمر سيان بالنسبة له سواء كانت الساعة السادسة صباحًا أم الحادية عشرة مساءً. بعد أن ارتدى ثيابه بالدقة والنظافة اللتين تعود عليهما من عاش طويلًا في الخارج، واللتين يتخلى عنهما المرء سريعًا عندما يعود إلى موطنه، تمسك برغبته الصلبة في القراءة عن الاقتصاد السياسي، فاستلقى في الموضع ذاته، وأخذ يتصفح أحد الكتيبات الإنجليزية عن آدم سميث، وبسط الخادم طاولة صغيرة وبدأ يرتبها. ابتسم القدر للخادم

أكثر مما فعل لسيده. رتب جريجوري الطاولة بهدوء تام، ووضع إناء الماء وزجاجة اللافيت عليها، ووضع على طاولة أخرى إبريقًا زجاجيًا يحوي الأفستنين، ووضع جبنًا، ثم نظر بهدوء إلى ما أعده، وبعد أن اقتنع أن كل شيء في موضعه ذهب ليأتي بالحساء، وفي غضون دقيقة جلبه، ليس ذلك وحسب، بل وجلب خطابًا أيضًا.

سأله بيلتوف من دون أن يُنحِّي عينه عن الكتيب الخاص بآدم سميث:

- من المرسل؟

- لا بد أنه من الخارج. الطابع ليس طابعنا، كما أن هناك إعلانًا عن وصول طرد.

- اتركه هنا.

نحَّى بيلتوف الكتيب جانبًا وظل يفكر «تُرى من المرسل؟ لا أفهم. من جنيف! أيمكن أن يكون من... لا، غير ممكن».

كان من الأسهل بالطبع أن يفض الظرف الذي يحوي الخطاب وينظر إلى نهاية الصفحة الرابعة ليرى اسم المرسل بدلًا من التخمين. لا شك في ذلك. لماذا يُجري الناس مثل هذه التخمينات بخصوص خطاب؟ هذا سر القلب الإنساني وهو يتأسس على أنه يحلو للإنسان أن يقر بأنه سريع البديهة وذكي.

أخيرًا فض بيلتوف الظرف وبدأ يقرأ الخطاب، ومع كل سطر كان وجهه يزداد شحوبًا وتنهمر الدموع من عينيه.

كان الخطاب من ابن أخت السيد جوزيف، يخبر فيه بيلتوف عن موت العجوز. انطفأت حياة هذا المعلم والمخلوق النبيل وتدفقت بهدوء وسكون. استمر لأعوام طويلة المعلم الأساسي في مدرسة قروية ليست بعيدة عن جنيف. مرض لمدة يومين، وفي اليوم الثالث بدت حالته أفضل، ونهض بصعوبة على قدميه وتوجه إلى قاعة التدريس، وهناك فقد وعيه، فنقلوه إلى المنزل ووضعوه على فراشه. أفاق وكان في تمام الوعي. ودَّع الأطفال الذين أحاطوا بفراشه صامتين، خائفين ومضطربين، ودعاهم للتنزه والقفز عند مقبرته، ثم طلب أن يأتوه ببورتريه فولديمار (فاسيلي بيلتوف)، وظل ينظر إليه طويلًا بحب، وقال لابن أخته: «يا للشخصية التي أمكن تشكيلها منه! نعم، من الواضح أن العم العجوز كان يعرف أفضل. أرسِلوا هذا البورتريه إلى فولديمار بعد... العنوان مكتوب في حافظتي القديمة التي كان فيها هذا البورتريه. يا للأسف يا فولديمار! يا للأسف الشديد!».

كتب ابن أخته في الخطاب: «وهنا بدأ المريض يهذي، وفي اللحظات الأخيرة من حياته ارتسم على وجهه تعبير ينم عن الاستغراق في التفكير. أمرنا بأن نرفعه من رقدته ونفتح عينيه المشرقتين، وأراد أن يقول شيئًا للأطفال لكن لسانه لم يطاوعه. ابتسم لهم، وسقط رأسه الأشيب على صدره. دفنا جثمانه في مقبرتنا القروية في حضور عازف الأرغن والكشماس[١٦٢]».

---

(١٦٢) ضابط مكلف برعاية الخزانة والكنيسة ومحتوياتها.

أنهى بيلتوف قراءة الخطاب، ووضعه على الطاولة، ومسح دمعته، ووقف عند النافذة، ثم تناول الخطاب مجددًا وأعاد قراءته كاملًا، وتمتم قائلًا: «إنسان مذهل! إنسان مذهل! إنسان سعيد جدًّا استطاع أن يحقق الرضا ويكدح، وكان نافعًا في كل مكان أرسله قدره إليه. لم يعد لديَّ في هذا العالم الآن سوى أمي وحسب. أمي فقط، بالرغم من أنه نادرًا ما كان يصلني خبر عن هذا العجوز، فقد كنت في حالة جيدة؛ كنت ببساطة أشعر بالرضا لعلمي أنه موجود. وها هو لم يعد موجودًا! كم يصعب عليَّ احتمال ذلك! في الحقيقة لو كنا نعرف مقدمًا ماذا سيحدث، لكان عدد قليل فقط من الحمقى هم من قد قرروا العيش».

قال الخادم عندما أدرك أن محتوى الخطاب لم يكن مبهجًا:

- الحساء سوف يبرد يا فلاديمير بيتروفيتش!

سأله بيلتوف:

- جريجوري، أتتذكر المعلم الذي كان يعيش معنا؟

- كيف يمكنني أن أنسى هذا السيد السويسري!

- لقد مات.

قالها بيلتوف، وأدار ظهره لجريجوري حتى يخفي اضطرابه.

- فليرقد في سلام. كان إنسانًا طيبًا، وكان بسيطًا في تعامله، وكان بسيطًا في تعامله مع أخي. منذ فترة طويلة لم أتحدث مع مكسيم فيدوروفيتش، إنه يخدم السيدة والدتك كساقٍ. لا تتعجب مني، ولكن عليَّ أن أخبر مكسيم فيدوروفتيش. بفضل كرمك رأيت بلادًا

كثيرة وتعاملت مع كثير من الأجانب، أما هو فعاش كل حياته داخل المقاطعة، ولذلك كانت شخصية المرحوم مفاجئة له. لديهم هناك نفوس طيبة بالفطرة. هذا ما كان ينشغل به المعلم. أتذكره جالسًا مع فتى قروي ينحني أمامه، ويأمر سعادتكم «فلاديمير بتروفيتش» أن تخلع قبعتك لتحيي الفتى، ويقول إن الفتى هو أيضًا على صورة الله ومثاله.

تمتم بيلتوف بشيء، وبدأ يتناول الحساء بحزن.

أثار خبر موت جوزيف تلقائيًّا في ذاكرة بيلتوف فترة شبابه برمتها وما قبلها، بل وحياته كلها. تذكر مواعظ جوزيف، وكيف كان يستمع إليها بشغف، وكيف تبين له أن كل ما في الحياة معاكس لما كان يقوله جوزيف له. الغريب في الأمر أن كل ما قاله جوزيف له كان رائعًا وصحيحًا؛ صحيحًا فعلًا من كل الجوانب، وفي الآن ذاته زائفًا بالنسبة لبيلتوف. قارن بيلتوف نفسه الآن بما كانت عليه في الماضي. ليس هناك أي شيء مشترك يجمع بين الشخصيتين عدا خيط الذكريات الذي يربط بين هذين الخطين المختلفين. في الماضي كان مملوءًا بالآمال، يدين بإنكار الذات، على استعداد لصنع مآثر صعبة وتأدية أعمال بلا مقابل، أما هذا الموجود الآن فقد تراجع بفعل الظروف الخارجية، وهو فاقد للأمل، يبحث عن شيء ما يلهيه. عندما جلب له جريجوري البورتريه المُرسل بريديًّا، مزَّق بيلتوف غلافه سريعًا وأخرج البورتريه بنفاد صبر. تغيرت تعبيرات وجهه بعد أن رأى التعبيرات التي ارتسمت يومًا ما على وجهه؛ الملامح التي صار بعيدًا عنها. هنا مرسوم كل ما كان يدور في رأسه. كم كان وجهه يافعًا ومنيرًا وصبيانيًّا! عنقه مكشوف،

وياقتا القميص مستلقيتان على كتفيه، كما يلوح استغراق غير محتمل في التفكير يظهر سريعًا على الشفتين والعينين. إنه هذا الاستغراق غير المحدد الذي يُحذِّر الفكر المستقبلي القوي. أمام هذا الوجه كان من شأن أي باحث أن يقول لنفسه: «كم يمكن أن ينتج الكثير من هذا الشاب!» كما قال السيد جوزيف، ولم ينتج من هذا الشاب سوى سائح متبطل، تمسك بمقعد في انتخابات مجلس نبلاء مقاطعة (ن. ن) بوصفها المرساة الأخيرة له. فكر بيلتوف في نفسه ناظرًا بلوم إلى البورتريه: «حينها، حينها كنت في الرابعة عشرة من العمر، أما الآن فقد تجاوزت الثلاثين. ما الذي في انتظاري؟ ضباب رمادي واحد وممل ومتماثل. تأخر الوقت على بدء حياتي من جديد، وفي الآن ذاته صار من المستحيل أن تستمر حياتي بهذه الصورة. يا لعدد البدايات واللقاءات! وانتهى كل ذلك بالتبطل والوحدة».

قطع سيميون إيفانوفيتش خيط هذه الأفكار المريرة، ثم عادت مجددًا في صورة حوار:

- كيف حالك يا فلاديمير بتروفيتش؟

- آه! مرحبًا يا سيميون إيفانوفيتش. سعيد جدًّا برؤيتك. لا أزال في الكآبة والملل ذاتهما، حتى إن قواي خائرة. لست بخير صحيًّا فعلًا. أنا مصاب بشيء كالحمى، وهو أمر بسيط تمامًا لكنه يدفعني دائمًا إلى حالة متوترة.

عارضه كروبوف، طاويًا الذراعين الطويلتين على سترته ليجس النبض بانتباه قائلًا:

- أنت تعيش نمط حياة خاطئًا. النبض ليس جيدًا. تعيش بوتيرة أسرع مرتين من الطبيعي، ولا تشفق على العجلة ولا على زيت التشحيم. يستحيل العيش طويلًا بهذه الصورة.

- أشعر فعلًا أني أتداعى معنويًا وجسديًا.

- لقد أدركت الأمر مبكرًا كفاية. يعيش الجيل الحالي بسرعة شديدة، إلا أن عليك أن تولي اهتمامك بصحتك وتتخذ الإجراءات المناسبة.

- أي إجراءات؟

- ثمة الكثير من الإجراءات. عليك أن تنام في موعدك وتنهض مبكرًا، وتقلل من القراءة والتفكير، وتزيد فترة التنزه، وتنحي عنك كل الأفكار المحزنة، وتشرب قليلًا من الخمر وحسب، وتبتعد تمامًا عن القهوة القوية.

- تظن أن كل هذا سهل، خاصة طرد الأفكار الحزينة. كم من الوقت تظن أنه يتوجب عليَّ الالتزام بهذا النظام؟

- طوال حياتك.

- أمر ممل ومنفر أن أصير خادمًا مذعنًا، والأمر لا يستحق كل ذلك.

- كيف تقول إنه لا يستحق؟ يبدو لي أنه يتوجب عليك أن تبذل بعض التضحيات لتعيش حتى الشيخوخة ويطول عمرك.

- ولماذا أعيش طويلًا؟

- سؤال غريب! لماذا تعيش طويلًا؟! لاأعرف لماذا تعيش طويلًا،

ولكن لا يزال العيش أفضل للمرء من الموت، وكل حيوان لديه حب للحياة.

قال بيلتوف، مبتسمًا بمرارة:

- وماذا إذا كان أحدهم لا يملك هذا الدافع؟ كان بيرون على حق تمامًا عندما قال إنه يستحيل على الإنسان الكريم أن يعيش أكثر من ٣٥ عامًا. ولماذا تطول الحياة؟ لا بد أن ذلك سيكون أمرًا مملًّا جدًّا.

- كل هذا بسبب هؤلاء الفلاسفة الألمان الملاعين الذين علموك هذه السفسطات.

- في هذه الحالة اسمح لي أن أدافع عن الألمان. أنا إنسان روسي وتعودت على التفكير من خلال الحياة، ولم أعِش بالأفكار النظرية. هنا نصل إلى القضية التي طرحتها: قُل لي من فضلك ما الفائدة المرجوة إذا عشت خمسين عامًا لا عشرة أعوام وحسب؟ مَن في حاجة إلى حياتي عدا أمي التي هي نفسها ربما لن تعيش كل ذلك؟ سواء كان الأمر بسبب ضعف قواي أو ضعف شخصيتي، لكن تظل الحقيقة هي أنني إنسان غير نافع لأحد، ونظرًا لقناعتي بذلك أفترض أنني وحدي سيد حياتي. صحيح أنني لم أصل بعدُ إلى درجة الرغبة في إطلاق النار على نفسي، لكن في الوقت ذاته لا أرغب في العيش وفقًا لنظام يهدف إلى استعادة قواي بالتخلص من كل الأحاسيس القوية، والأطباق الشهية، من أجل أن تطول حياة هذا المريض.

قال كروبوف، وكان قد بدأ يغضب بالفعل:

- أنت تُفضِّل إذن الانتحار المزمن. أنا أفهم أنك قد مللت من التبطل الذي يملأ حياتك، وأن لا شيء لديك لتفعله، ومن ثَم لا بد أن يكون الأمر مملًّا جدًّا بالنسبة لك. لو أن القدر منحك مهنة معينة وانتزع منك ضيعتك «بيلي بولي»، لتوجب عليك أن تعمل من أجل أن تعول نفسك، ولعاد ذلك بالنفع على الآخرين أيضًا، وهكذا يتم كل شيء في العالم.

- عفوًا يا سيميون إيفانوفيتش، هل يمكن أن تعتقد أن الجوع وحده هو الحافز الوحيد للعمل؟ إن الرغبة في ظهور المرء والإعلان عن نفسه يمكنها ببساطة أن تجبر المرء على الكدح. أما أنا، فعلى النقيض، لا يمكنني أن أعمل من أجل الخبز وحده. لا يمكنني أن أعمل طوال حياتي من أجل ألا أموت جوعًا. لا بد أن يمضي الوقت بذكاء ونفع.

سأل العجوز وقد صار في قمة الغضب:

- وهل فعلت الكثير بامتلائك ورغبتك في الإعلان عن نفسك؟

- هنا الأمر الفاصل. لم أختَر بالطبع هذه الحياة المتبطلة والمنهكة لي. لم أولد داخل مجال الاختصاص العلمي، ولم أولد موسيقيًّا أيضًا، أما بقية الطرق فيبدو لي أنها لا تلائمني.

- أنت تواسي نفسك بذلك إذن؛ تقول إن أرضك غير كافية، والأماكن ضيقة، وإنك تفتقر إلى الإرادة الصلبة والعزم؛ قطرات مياه كافية لفلق الحجر!

أنهى بيلتوف حديثه قائلًا:

- إنها واترلو داخلية[١٦٣]. أنت إنسان إيجابي، والحديث هنا عن الإرادة.

- كلامك معسول، وأنا أُسلِّم أنه لا يمكن لعامل جيد أن يبقى من دون عمل.

- ولكن ما رأيك في عمال مدينة ليون الذين يموتون جوعًا بالرغم من استعدادهم للعمل، وبسبب نقص العمل لا يجدون لديهم ما يفعلونه سوى المزاح؟ آه يا سيميون إيفانوفيتش! لا تتسرع في الإدانة، ولا تتسرع في أن تصف لمريضك راحة البال ونبتة رومكس كونفرتس[١٦٤]. عليك أن تدرك في البداية عدم إمكانية ذلك، ثم تدرك أنه ليس بإمكانك تقديم يد العون. قلة من الأمراض يمكنها أن تكون أسوأ من وعي المرء بلا جدوى قوته. يا له من نظام! تذكر إجابة نابليون للطبيب أنطومارك: «ليس السرطان هو ما أصابني، بل ثمة واترلو مندلعة في داخلي». لكلٍّ واترلو الخاصة به، واترلو داخلية. لنمضِ يا سيميون إيفانوفيتش إلى منزل آل كروتسيفيرسكي. لقد شفيت مرتين من كآبتي هذه بزيارتهم. يبدو أن مثل هذه الوسائل أفضل من جميع الأطباء.

---

(١٦٣) معركة فاصلة وقعت في ١٨ يونيو عام ١٨١٥م في قرية واترلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا، وهي آخر معارك الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت، وهُزِم فيها هزيمة كبيرة غير متوقعة لقائد بخبرته، وهذا ما جعل الإنجليز يصفون فيما بعد الشخص الذي يعاني من حظ سيئ جدًّا بأنه صادف واترلو.

(١٦٤) نوع من النباتات المزهرة في عائلة Polygonaceae ينمو بسرعة، ويتكاثر من الجذور والبذور، وينتج كميات كبيرة من البذور القابلة للحياة.

– لذلك أنتظر الشكر والتقدير منك، فمن الذي وصف لك هذا المنزل؟

– مذنب، مذنب. نسيت فعلًا. أنت أعظم أبناء أبقراط يا سيميون إيفانوفيتش!

هكذا أجاب بيلتوف واضعًا السيجار، ومبتسمًا بسماحة للطبيب.

هنا نجد أنفسنا نتساءل بصحبة ماريا ستيبانوفنا عما جذب بيلتوف إلى منزل المدرس المتواضع. هل وجد في شخصية المدرس صديقًا عطوفًا أم أنه سقط في حب زوجته؟ عليه أن يجيب بنفسه عن مثل هذه الأسئلة، فالرغبة في قول الحقيقة ستكون شديدة الصعوبة. الكثير من الأمور جذبته صوب هذا البيت. انتهت الانتخابات، بكل ما تضمنته من دعوات غداء وحفلات رقص، ولم ينتخب أحد بالطبع بيلتوف، وظل في (ن. ن) لينهي فقط أمرًا ما في الديوان المدني. هنا أسمح لكم بتخيل مدى الملل العظيم الذي كان من الممكن لإنسان مثله أن يشعر به في (ن. ن) لو لم يتعرف إلى آل كروتسيفيرسكي. لقد قدَّمت حياة آل كروتسيفيرسكي الهادئة والساكنة شيئًا جديدًا وجذابًا لبيلتوف. لقد قضى حياته كلها منغمسًا في المسائل العامة والعلم والنظريات، في مدن غريبة حيث يصعب على المرء أن يقترب من الحياة العائلية، كما قضى فترة أيضًا في بطرسبرج حيث لا تتوفر هذه الحياة كثيرًا. لقد اعتبر شعور الرضا العائلي خيالًا أو خصلة لفَّقها أناس يتسمون بالابتذال والتفاهة. لم يكن الزوجان كروتسيفيرسكي على هذه الحال. يصعب تحديد شخصية كروتسيفيرسكي؛ من حيث طبيعته فهي رقيقة

ومحبة إلى أقصى درجة، إنها طبيعة أنثوية قابلة للتكيف، كما أنه اتسم بالإخلاص والنقاء، حتى كان من المستحيل عليه ألا يحب، بالرغم من أن نقاءه هذا جعله قليل الخبرة وجاهلًا كالأطفال. كان من الصعب أن يجد المرء إنسانًا أكثر جهلًا منه بالحياة العملية. كل ما عرفه كان من الكتب، ولذلك لم يكن صحيحًا، بل كان رومانسيًّا وخطابيًّا. لقد آمن بورع بواقعية العالم التي تغنى بها جوكوفسكي، وبالمُثُل التي تحلق فوق الأرض. لقد انتقل من عزلة الحياة الطلابية التي خرج منها إلى عالم الأهواء والمصادمات على خشبة مسرح موسكو وحسب، إلى الحياة بهدوء في يوم رمادي كئيب، وإذا به أمام حياة الحاجة الملحة، وبدا كل شيء له عدائيًّا وغريبًا، ورويدًا رويدًا تعلم الكانديدات الشاب أن يجد كل عزائه في عالم الأحلام الذي هرب فيه من الناس والواجبات. دفعته الحاجة المادية دفعًا إلى منزل نيجروف، إلا أن هذا اللقاء بالواقع زاده انحصارًا داخل نفسه. نظرًا لأنه كان وديعًا بطبيعته، لم يفكر في أن ينخرط في صراع مع الواقع، بل تراجع من ضغوطه، وكل ما نشده هو أن يتركه الواقع لحاله. لكن الحب ظهر بالطريقة التي يمكن أن يظهر بها في هذه المجتمعات؛ ليس جنونيًّا وليس عاقلًا، لكنه أبدي، متسم بإنكار ذات، ومن النوع الذي يستولي على الكيان كاملًا. ساعد تهيجه العصبي على إبقائه في حالة جذل كئيبة مستمرة. كان مستعدًّا دائمًا للبكاء والحزن، وكان يحب في الأمسيات الهادئة أن يظل ينظر طويلًا جدًّا إلى السماء، ومن يعلم ما الرؤى التي ظهرت له في هذا الصمت؟! كان يضغط كثيرًا على يد زوجته، وينظر إليها ببهجة لا يمكن التعبير عنها، لكنها كانت

بهجة ممزوجة بحزن عميق، حتى إن لوبوف ألكسندروفنا ذاتها لم تكن تستطيع أن تحبس دموعها. اتسمت كل أفعاله بهذه الوداعة التي كانت ترتسم على وجهه، والهدوء والإخلاص، وهذا الاستغراق الخجول في التفكير. هل يتوجب علينا أن نصف كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يحب زوجته؟ لقد ظل حبه ينمو باستمرار حتى إن شيئًا آخر لم يعد يشغله. لم يكن بإمكانه أن يقضي ساعتين من دون أن يرى عيني زوجته الزرقاوين القاتمتين. كان يرتجف عندما تغادر فناء المنزل ولا تعود في الساعة المحددة، باختصار كان من الواضح أن جذور حياته كلها امتدت داخلها، وقد ساعدت طبيعة العالم الذي نشأ فيه على حدوث ذلك كثيرًا.

كان القطاع الأكبر من معلمي الجيمنازيا في (ن. ن)، كما كان الوضع قديمًا في مدارسنا، كسالى، تصلبوا بفعل الحياة في الأقاليم الصغيرة، استسلموا لعادات مادية ثقيلة، ولم تعد لديهم رغبة في معرفة أي شيء. لا نعتقد أن كروتسيفيرسكي كان مدعوًّا لمواصلة العلم والاستسلام الكامل لأسئلته، وأن تصير هذه الأسئلة هي أسئلته الحيوية، لكنه شعر أن حل الكثير منها في متناول اليد، عدا ما يتعلق بالمال. بشكل عام الحياة في الأقاليم الصغيرة ليست مدمرة لمن يريدون حماية ضيعاتهم وحسب، بل لأولئك أيضًا الذين لا يريدون أن يُستعبدوا لأجسادهم، ففي ظل الغياب التام لأي مصلحة على المستوى النظري مَن الذي بوسعه ألا ينام نومًا طويلًا - إن لم يكن حلوًا - في صومعة السبات النفسي هذه؟ الإنسان في حاجة إلى نوع من الإثارة الخارجية؛

إنه في حاجة إلى صحيفة من شأنها أن تجعله في كل يوم على تواصل بالعالم كله، كما أنه في حاجة إلى مجلة من شأنها أن تنقل له كل حركة تحدث في الفكر المعاصر، وهو في حاجة إلى حديث ومسرح. بإمكان المرء بالطبع أن يتخلى عن كل ذلك، وقد يبدو له أن كل ذلك غير ضروري، ثم يصير فعلًا كل ما سبق غير ضروري بالنسبة له، ويحدث ذلك في اللحظة التي يصير فيها المرء نفسه غير ضروري على الإطلاق. كان كروتسيفيرسكي بعيدًا كل البعد عن الانتماء إلى فئة الأقوياء والمثابرين الذين يخلقون حول أنفسهم ما لا وجود له. إن غياب كل مصلحة إنسانية من حوله قد أثَّر عليه تأثيرًا سلبيًّا أكثر منه إيجابي، وعلى ذكر الأمر يعود سبب ذلك إلى حدوثه في أفضل فترات حياته؛ أي بعد الزواج مباشرة. لذلك تعوَّد على الاستغراق داخل عالم أحلامه وبعض الأفكار الواسعة، وكانت عدة سنوات قد مرت على حبه للعلم والمسائل التي حسمها بالفعل. لقد سعى إلى إشباع احتياجات نفسه الملحة في الحب، ووجد في طبيعة زوجته القوية كل شيء. اتسمت المجادلات مع كروبوف التي استمرت لأربعة أعوام بهذه النكهة الإقليمية، فكانا في تلك الفترة يعيدان الحديث ذاته كل يوم. كان كروتسيفيرسكي يدافع عن النزعة الروحانية[١٦٥]، بينما كان العجوز كروبوف يهاجمه بشدة بماديته الطبية. ظلت حياة رفاقنا تخرخر في هذا المجرى المائي حتى اقتحمتها فجأة شخصية ذات طبيعة مختلفة تمامًا. إنها شخصية نشطة

---

(١٦٥) الروحانية هي ديانة إحيائية، دُوِّنت في القرن التاسع عشر من قبل المعلمة الفرنسية هيبوليت ليون دنزيرد ريفيل، تحت الاسم المستعار ألان كارديك، وتنص على دراسة الطبيعة، والمصدر، ومقدار الأرواح، وعلاقتها بالعالم المادي.

داخليًّا بصورة مفرطة، مُطَّلعة على كل القضايا المعاصرة، وموسوعية، كما أنها وُهِبت تفكيرًا جريئًا وحادًّا. وجد كروتسيفيرسكي نفسه يذعن تلقائيًّا لهذا الجوهر النشط الذي لصاحبه الجديد، أما بيلتوف، فلم ينسحب من مجال تأثير زوجة كروتسيفيرسكي. لا يمكن لشخصية ذات طبيعة قوية، ولا يشغلها شيء على وجه الخصوص، ألا تتعرض لتأثير امرأة مليئة بالحيوية. يلزم أن يكون المرء محدود الأفق جدًّا أو ضعيفًا بشدة أو عديم الشخصية تمامًا حتى يدافع بغباء عن استقلاليته أمام سلطة أخلاقية تتمثل له في صورة امرأة رائعة. الحق أن بيلتوف كان مندفعًا بطبيعته، بعيدًا تمامًا عن ضبط النفس، ومن ثَم كان صيدًا سهلًا لأي مغناج ولكل وجه جميل. حدث كثيرًا أن وقع في حب مغنية أوبرا ما أو راقصة ما حد الجنون، أو وقع في حب فاتنة ما غامضة لا تشرب سوى المياه المعدنية، أو ألمانية شقراء ذات وجنتين حمراوين تدَّعي الاستغراق في التفكير دائمًا، ومستعدة طوال الوقت أن تحب بحسب قصص شيللر الرومانسية، وتُقسِم بأغاني العندليب بالحب الأبدي هنا وهناك، كما وقع أيضًا في حب فرنسية متقدة مخلصة للمتعة والصخب بإيثار. لكن بالرغم من كل ذلك لم يتعرض بيلتوف من قبل لتأثير كهذا.

منذ بداية التعارف انتوى بيلتوف أن يغازل كروتسيفيرسكايا، وكان قد عوَّل على ثرائه لتحقيق ذلك، فقد كان من الصعب عليه أن يلجأ إلى التخويف بمركزه الأرستقراطي أو بصرامة زائفة، كما أنه كان واثقًا في ذاته لأنه حقق النجاح سابقًا مع جميلات انقدن له بسهولة، كما أنه اتسم بالقدرة على استخدام لغة حذقة وجريئة حد الخطورة. لقد كانت

لديه كل الوسائل اللازمة لتخدير ضميره الريفي، لكن لحدة ذكائه تخلى فورًا عن غزله المبتذل بعد أن أدرك أن مثل هذه الفخاخ ستكون ضعيفة جدًّا لتأسر مثل هذا الوحش. المرأة التي مَثَلَت أمامه في هذه المنطقة النائية كانت بسيطة وبريئة وتلقائية، ومليئة بالقوة والتعقل، حتى إن مطاردة بيلتوف بهدف أسرها مرَّت سريعًا من دون أن تُجدي نفعًا. كان من الصعب الهجوم عليها لأنها لا تتخذ وضعًا دفاعيًّا على الإطلاق، ولا تتوخى الحذر، لكن علاقة مختلفة أكثر إنسانية هي التي قرَّبت سريعًا كروتسيفيرسكايا من بيلتوف. لقد تفهمت كروتسيفيرسكايا حزنه وهذا الاهتياج الحاد الذي يملأ جنباته ويعذبه. لقد تفهمت ذلك بصورة أشمل وأفضل ألف مرة من فهم بيلتوف نفسه للأمر، ومن ثَم لم تعد مثلًا تستطيع النظر إليه من دون شعور بالمشاركة والتعاطف، بل كانت تنظر إليه كأنها تعرفه أكثر فأكثر، وبمرور الأيام تكشفت لها جوانب جديدة في هذا الإنسان المحكوم عليه بأن يقتل في نفسه ثروة هائلة من القوة، واتساعًا رهيبًا من الفهم. ثمَّن بيلتوف على الفور هذا الفرق بين مشاركة كروبوف له المتسمة بالسماحة والإرشاد الأخلاقي، وبين هذه المشاركة الرومانسية المستعدة لتقاسم الدموع معه من قِبل ديمتري ياكوفليفيتش، والذوق الحقيقي الذي رآه في كروتسيفيرسكايا. حدث كثيرًا أن جلس أربعتهم في الغرفة وتحدث بيلتوف عن قناعته الداخلية، وكان بدافع العادة يموِّه هذه القناعات بإضافة سخرية ما أو بالتصريح بها عرضًا في أثناء الحديث، وفي العادة لم يكن مستمعوه يتفاعلون مع ذلك، لكنه عندما ألقى نظرة حزينة على كروتسيفيرسكايا،

وارتسمت ابتسامة بسيطة على وجهه رغمًا عنه، أدرك أنها تفهمه. من المزعج إجراء هذه المقارنة ولكن لا مفر منها؛ لقد صارا تدريجيًا في الوضع ذاته الذي كانت فيه لوبونكا بصحبة ديمتري ياكوفليفيتش يومًا ما وسط أسرة نيجروف، حيث كانا يدركان أنهما يفهمان بعضهما بعضًا من دون الحاجة إلى قول كلمة. لا يوجد شيء من شأنه أن يطور أو يقمع مثل هذا التعاطف، فهذه الأنواع تُعبِّر ببساطة عن حقيقة نمو الشعور الأخوي في شخصين بغض النظر عن المكان أو الطريقة اللذين يجتمع بهما هذان الوجهان. إذا كانا يعرفان بعضهما بعضًا، وإذا أدركا قرابتهما، يضحي كل منهما - إذا تطلبت الظروف - بجميع علاقات قرابته الدنيا من أجل العليا.

قال بيلتوف، مقدمًا بورتريهه للوبوف ألكسندروفنا:

- خمِّني من هذا!

صاحت لوبوف ألكسندروفنا تقريبًا، وقد اتقد وجهها كاملًا تقريبًا.

- هذا أنت! هذان عيناك، وهذه جبهتك. كم كنت صبيًّا جميلًا! يا لهذا الوجه خالي البال والجريء!

- يتطلب الأمر شجاعة كبيرة كي يقرر المرء بنفسه من أجل المقارنة أن يعرض بورتريهه الشخصي لامرأة، ويكون البورتريه منذ أكثر منذ خمسة عشر عامًا، لكن تحدوني رغبة جامحة في أن أريكِ إياه لتحكمي بنفسكِ: هل هذا ما كنت عليه حينما كنت في مرحلة التفتح؟ أتعجب فعلًا كيف اكتشفتِ أنه أنا. لم تتبقَّ فيَّ سمة واحدة من هذا الوجه.

أجابت كروتسيفيرسكايا من دون أن تنحّي عينيها عن البورتريه:

- يمكن اكتشاف الأمر. لماذا لم تُرني إياه منذ فترة طويلة؟

- لم أحصل عليه سوى اليوم. مات معلمي جوزيف الطيب منذ شهر، وأرسل لي ابن أخته هذا البورتريه وخطابًا.

- آه! جوزيف المسكين! أنا أعده من المعارف المقربين من واقع حكاياتك عنه.

- مات العجوز وسط انشغالاته الكريمة. أنتِ التي التي لا تعرفينه برؤية العين، وحشد الأطفال الذين علَّمهم، وأنا وأمي نتذكره بكل حب وحزن. إن موته سوف يكون صدمة كبيرة للكثيرين. من هذا المنطلق قد أكون أسعد الجميع، فأنا متيقن من أنني إذا مت بعد رحيل أمي، فلن يجلب موتي لأحد أي مرارة، وذلك لأن أحدًا لا يبالي بي.

قال بيلتوف ذلك بصدق شديد، لكنه في الآن ذاته كان يغازل قليلًا. لقد أراد أن يستدرج لوبوف ألكسندروفنا إلى إجابة دافئة. أجابت كروتسيفيرسكايا وهي تحدق بشدة في بيلتوف مما جعله يشيح ببصره:

- أنت لا تصدق ذلك.

- ولكن بعد موتي سيكون كل شيء سيان لي؛ سواء بكى البعض أم قهقهوا.

- لا أوافقك الرأي.

- أنا أدرك تمامًا الهلع من الموت، حينما يشعر المرء بأن أحدًا لا يحبه، ليس على الفراش وحسب، بل في هذا العالم برمته، ويد أخرى

غريبة تهيل التراب عليه، ويضع صاحبها المجرفة بهدوء لينزع قبعته ثم يعود إلى المنزل. لوبونكا، عندما أموت زوري قبري كثيرًا، سوف يشعرني ذلك بالراحة.

قال كروبوف بانزعاج شديد:

- نعم، سوف يشعرك ذلك براحة كبيرة حتى لا تفكر مليًا في الأوزان الكيميائية!

سألت كروتسيفيرسكايا:

- تتكلم وكأنك لا تملك أصدقاء عدا جوزيف! هل يمكن أن يكون الأمر هكذا؟

- كان لديَّ أصدقاء كثيرون هم الأكثر توهجًا وإخلاصًا، لكن ما حدث لم يكن قليلًا! كان لديَّ ذلك الوجه، والآن لديَّ وجه آخر تمامًا. مع ذلك لست في حاجة إلى أصدقاء. الصداقة لطيفة. إنها مرض صبياني، والويل لمن لا يستطيع السيطرة على نفسه.

- لكن بقدر ما أعرف فقد ظل جوزيف حتى نهاية حياته مقربًا إليك.

- لأننا عشنا متباعدين. كنت متآلفًا معه لأننا لم نلتقِ سوى مرة في خلال ١٥ عامًا. كان اللقاء بمثابة ومضة طغت فيها ذكرياتي على الاختلاف الذي حدث.

- أيعني ذلك أنك رأيته بعد أن غادر إلى سويسرا؟

- مرة واحدة.

- أين؟

- في المكان الذي انتهت حياته فيه.

- أكان ذلك منذ زمن بعيد؟

- منذ عام واحد.

- حسنًا، بدلًا من كلماتك الكئيبة يجدر بك أن تحكي لنا عن لقائك بالعجوز.

- بكل سرور. أريد أن أنشغلَ به، ويسعدني أن أتحدث عنه. حدث الأمر على النحو التالي:

«في بداية العام الماضي وصلت إلى جنيف قادمًا من جنوب فرنسا. لماذا؟ يصعب تفسير الأمر. لم أُرِد أن أسافر إلى باريس لأنني لم أنجح في عمل أي شيء هناك، وكان الحسد يعذبني هناك دائمًا. الجميع من حولي مشغولون، يتحدثون عن العمل بينما أشغل نفسي بقراءة الصحف في المقاهي، وأخرج متأنقًا دائمًا لكني مُراقِب غريب طوال الوقت. لم أذهب إلى جنيف من قبل. إنها مدينة هادئة بعيدة، ولذلك اخترتها لتكون بمثابة مسكن شتوي. سعيت هناك إلى دراسة الاقتصاد السياسي، وفي أوقات الفراغ كنت أفكر فيما سأفعله في الصيف القادم وإلى أين سأذهب. غني عن القول أنني في اليوم الثاني أو الثالث سألت الخدم وموظفي البنوك عن السيد جوزيف، ولم أجد أحدًا يعرف عنه شيئًا. لم يكن هناك أحد يعرفه سوى عجوز واحد ساعاتي، قال لي إنه يعرف جوزيف جيدًا، حيث إنه درس معه ثم ذهب إلى بطرسبرج، لكنه لم يرَه بعد ذلك.

أوقفت بحثي عنه متكدرًا، وكان الوقت حينها في بداية الخريف، والجو لا يزال رائقًا ومنعشًا. لقد تركتْ حياة التسكع فيَّ ولعًا بالتشرد، ومن ثَم قررت أن أقوم ببعض الرحلات الصغيرة سيرًا إلى ضواحي جنيف. ترك الطريق فيَّ أثرًا مريعًا. يعود إليَّ الإحساس بالحياة في الطريق، خاصة إذا كنت أمضي فيه سيرًا أو في مركبة تجرها الجياد. يتعالى صوت عدة الفرس ويسليني الحوذي ويصرفني عن شعوري بالوحدة. لكن عندما تكون وحدك، سواء سيرًا أو بالجواد، تظل تمضي. تمضي، ويلتف الطريق كوتر أمام عينك حتى يختفى في نقطة ما، ولا أحد من حولك عدا الأشجار والجداول والطيور التي تطير وتحط في مكان آخر. كم يكون الأمر رائع الجمال حينها! سرت في إحدى المرات هكذا على بُعد بضعة أميال من جنيف. ظللت أسير وحدي طويلًا. فجأة ظهر من جانب الطريق نحو عشرين فلاحًا. كان ثمة حوار ساخن جدًّا يدور بينهم، وإيماءات قوية. ساروا بالقرب مني ولم يوجِّهوا أي انتباه إلى العابر بجوارهم، حتى إنه كان بوسعي أن أسمع جيدًا الحوار الدائر بينهم. دار حديثهم عن أحد الانتخابات الإقليمية، وانقسم الفلاحون إلى فريقين. في الغد كان عليهم الإدلاء بالأصوات النهائية، وكان من الواضح أن المسألة شغلتهم تمامًا. كانوا يُلوِّحون بأيديهم ويرفعون قبعاتهم. جلست تحت شجرة، ومرَّ حشد الناخبين وظللت بعدها لفترة طويلة لا أزال أسمع مقتطفات من أحاديثهم الديماجوجية واعتراضاتهم المحافظة. يمزقني الحسد دائمًا عندما أرى أناسًا مشغولين بشيء ما، ولديهم عمل ما يبتلعهم. لذلك لم أكن في حالة معنوية جيدة على

الإطلاق عندما ظهر على الطريق رفيق جديد، وكان شابًّا ممشوق القوام يرتدي قميصًا سميكًا وقبعة رمادية ذات حواف ضخمة، وحقيبة ظهر معلقة على كتفيه، وغليون في فمه. جلس في ظل الشجرة ذاتها التي أجلس عندها. جلس وهو يلمس حافة قبعته محييًا إياي، وعندما انحنيت له بالتحية خلع قبعته تمامًا، وبدأ يجفف جبهته وشعره الكستنائي الرائع من العرق. ابتسمت بعد أن أدركت حذر جاري هذا؛ أدركت أنه لم يخلع قبعته أولًا لئلا أظن أنه يفعل ذلك من أجلي. بعد أن جلس الشاب توجه إليَّ بالسؤال:

- إلى أين تذهب؟

- من الصعب عليَّ أن أجيب عن سؤالك، أكثر مما تتخيل. إنني ببساطة أمضي إلى حيث تأخذني قدماي.

- هل أنت أجنبي فعلًا؟

- أنا روسي.

- أووه! من أي منطقة؟ هل عندكم الآن صقيع رهيب؟

الغريب في الأمر أنه لا يوجد أجنبي واحد يمكنه أن يتحدث عن روسيا إلا ويذكر الصقيع ومركبة البريد السريعة، بغض النظر عن أنه قد حان الوقت للتأكد من عدم وجود صقيع مختلف عن أي صقيع آخر، ولا مركبة البريد الخرافية هذه.

- نعم، إنه الشتاء الآن في بطرسبرج.

سأل السويسري بفخر:

- وما رأيك في الطقس عندنا؟

- جيد. هل أنت من أبناء هذه المنطقة؟

- نعم، ولدت قريبًا من هنا، وأنا الآن أغادر جنيف لحضور الانتخابات في بلدتنا. لم يحق لي بعد أن أدلي بصوتي في الاجتماع، ولكن يظل لديَّ صوت آخر لا يدخل في الحساب لكن يمكن أن يجد له مستمعين. إذا كان الأمر سيان بالنسبة لك يمكنك أن تأتي معي، وستكون أمي في خدمتك، وستقدم لك الجبن والنبيذ، ولنرَ غدًا كيف سينتصر جانبنا على معسكر الشيوخ.

قلت في نفسي وأنا أنظر مجددًا إلى عينَي جاري: «آه، إنه راديكالي». قلت له مادًّا يدي إليه:

- سآتي معك، الأمر سيان.

- ستشعر بالفضول لمراقبة الانتخابات. أليست لديكم انتخابات في روسيا الآن؟

- من الذي قال لك هذا؟ لا بد أن معلم الجغرافيا لديكم في المدرسة كان شديد السوء. الأمر على النقيض تمامًا. يُعيَّن الرئيس عندنا في القرى الخاصة بالتجار والبرجوازيين والريفيين، بل وحتى أصحاب الأراضي، بالانتخاب.

احمر وجه الصبي.

- لقد درست الجغرافيا بالطبع، ولكن لفترة غير طويلة. بغض النظر عن مدى الاحترام الذي أكنه لمعلم الجغرافيا، إلا أنه كان إنسانًا

ممتازًا. لقد ذهب بنفسه إلى روسيا، وإذا كنت ترغب يمكنني أن أُعرِّفك به. إنه فيلسوف، والله وحده قد يعلم حق قدره، لكنه لم يشأ سوى أن يصير معلمًا لنا.

- ممتن جدًّا، لكن ليست لديَّ أي رغبة على الإطلاق في التعرف إلى معلم ميداني متحذلق.

- لقد عاش في بلادكم.

- أين تحديدًا؟

- في بطرسبرج وموسكو.

- وما اسم عائلته؟

- نسميه العم جوزيف.

- العم جوزيف؟

كررت من خلفه وأنا أكاد لا أصدق أذني.

- نعم، ما الغريب في ذلك؟

يكفي أن أقول إنني بعد سؤالين أو ثلاثة صرت مقتنعًا تمامًا أن «العم جوزيف» هو جوزيف المقصود بعينه. أسرعنا في سيرنا، وكان الشاب شديد البهجة لأنه حقَّق لي هذه الفرحة غير المتوقعة، والأهم من ذلك هو أنه سيحققها لجوزيف لأنه يحبه ويُقدِّره بلا حدود. سألته عن نمط حياة العجوز، وأدركت من كل التفاصيل أنه ظل كما هو بسيطًا ونبيلًا ومبتهجًا وشابًّا. أدركت من حكي الشاب عنه أنني تجاوزت جوزيف عمرًا وقد صرت عجوزًا أكثر منه. مرت خمسة أعوام منذ أن

تولى منصب كبير المعلمين ومدير المدرسة. لقد وفَّى بأكثر من ثلاثة أضعاف متطلبات عمله، كما أنه قد صارت لديه مكتبة صغيرة مفتوحة للسكان جميعًا، وحديقة يعمل فيها مع الأطفال في أوقات فراغه. عندما توقفنا أمام المنزل الصغير اللطيف للمعلم الذي استراح فيه، والذي أنارته بسطوع أشعة الشمس، وقد انعكست انعكاسًا مضاعفًا بفعل الجبل المرتفع، أرسلت رفيقي في البداية إليه حتى لا أجلب قدرًا كبيرًا من الاضطراب للعجوز بفعل المفاجأة، وأوصيته بأن يقول له إن ثمة روسيًّا يريد أن يراه. كان «العم جوزيف» في الحديقة، يستريح على أريكة، مستندًا إلى المجرفة. هبَّ فور أن سمع كلمة «روسيا» ومضى بخطوات سريعة للقائي، وارتميت في أحضانه. أول ما أدهشني هو تلك القوة الهدامة المهينة الكامنة في الزمن. عشرة أعوام مرت منذ أن رأيته آخر مرة ولكن يا لحجم التغيير! لقد فقد تقريبًا كل شعره وشحب وجهه، ولم تكن خطوته راسخة، وصار محدودبًا، إلا أن عينيه وحدهما هما اللتان بقيتا شابتين كما كانتا. لا يمكنني أن أصف لكم مدى الفرحة التي التقاني بها. لقد بكى وابتسم وظل يلقي عليَّ كومة هائلة من الأسئلة؛ سألني هل لا يزال كلبي النيوفاوندلاند حيًّا أم لا، وتذكر مزاحنا، واقتادني إلى جناح المبنى وأجلسني، وأرسل شارل (رفيقي) ليجلب من القبو إبريقًا من أفضل أنواع الخمر. أعترف أنني لم أشرب قَطُّ كليكو (أحد أنواع الشامبانيا - المترجم) رائعة بمثل هذا الاستمتاع الذي ظللت أشرب به كأسًا تلو الأخرى من خمر جوزيف اللاذعة. شعرت بالخدر واليفاعة والسعادة، لكن سرعان ما أنهى

العجوز حالتي المعنوية الرائعة هذه بسؤاله: «ماذا كنت تفعل طوال هذا الوقت يا فلاديمير؟».

حكيت له حكاية إخفاقاتي برمتها، وأنهيتها بقولي إنه كان بالإمكان بالطبع أن تصير حياتي أفضل لكنني لست نادمًا على فقدان معتقداتي الشبابية، حيث إنها اكتسبت نظرة رصينة، قد تكون كئيبة وعابسة، لكنها حقيقية.

عارضني العجوز قائلًا: «فلاديمير، عليك أن تخشى الانغماس في نظرة شديدة الرزانة حتى لا يبرد قلبك وينطفئ فيه نور الحب. لقد حدث في حياتك الكثير مما لم أتوقعه. لقد كانت صعبة عليك، ولكن لا يجب عليك الآن أن تسلم سلاحك. إن كرامة الحياة الإنسانية ماثلة في النضال، وعلينا أن نعاني من أجل أن ننال المكافأة».

كنت حينها أنظر إلى الحياة بالفعل نظرة أبسط من ذلك، لكن كلمات العجوز أثَّرت عليَّ بقوة.

- الأفضل أن تقول لي أيها العم جوزيف شيئًا عن نفسك، كيف قضيت كل هذه المدة؟ إن حياتي لم تنجح، على الأقل من أحد جوانبها. أنا مثل بطل حكاياتنا الشعبية التي كنت أترجمها لك سابقًا؛ ذلك البطل الذي كان يسير في كل الطرق صائحًا: «هل هناك أي حي في الميدان؟»، لكن لم يكن أي شخص حي يجيب. يا لشقائي! لقد غادرت الميدان ووصلت إليك لأحظى بضيافتك.

قال العجوز هازًّا رأسه:

– لا يزال الوقت مبكرًا على الاستسلام! ماذا يمكنني أن أحكيه لك عن نفسي؟ إن حياتي تمضي بهدوء. بعد أن تركت منزلكم عشت في سويسرا، ثم رحلت بصحبة أحد الإنجليز إلى لندن ودرَّست لأطفاله مدة عامين، لكن طريقة تفكيري كانت مختلفة تمامًا عن طريقة تفكير اللورد الجليل، ومن ثَم تركت العمل لديه. أردت أن أعود إلى موطني، وسافرت فعلًا من هناك مباشرة إلى جنيف. لم أجد أحدًا في جنيف عدا صبي؛ ألا وهو ابن أختي. ظللت أفكر وأفكر فيما يمكنني أن أبدأ فيه قرابة نهاية عمري، ثم وجدتهم يطلبون معلمًا لمدرستنا المحلية. قبلت الوظيفة، وشعرت بالرضا التام عن عملي هنا. يستحيل، بل وليس من الضروري حتى، أن ينفذ الناس خطتهم الأولى؛ فكلٌّ يسلك بحسب الظروف، والعمل موجود في كل مكان، وبعد العمل تنام بهدوء حتى يحل موعد راحتك الأخيرة، إن تعطُّشنا للمناصب العامة والبارزة يكشف عن قدر كبير من عدم اكتمالنا، بل ويكشف أيضًا جزئيًّا عن عدم احترامنا لأنفسنا؛ الأمر الذي يفضي بالإنسان إلى الاعتماد على الظرف الخارجي. صدقني يا فلاديمير، هكذا هو الأمر.

واستمر حوارنا في هذا المسار نحو ساعة.

نظرًا لتأثري باللقاء كنت شديد الحساسية، وصرت في مزاج رائع. كنت متقبلًا لكل الأحلام الشابة التي أوشكت على نسيانها. نظرت إلى وجه جوزيف الهادئ تمامًا والرائق، وشعرت بالضيق من نفسي. لقد سحقني بلوغي سن الرشد، وكم كان جيدًا! للشيخوخة جمالها حيث لا تتولد العواطف ولا الانفعالات الشديدة، بل تهدأ وتذبل، وتجد بقايا

شعرك الأشيب تهتز من نسمة المساء، كما تجد عينيك تتقدان بخنوع، وقد دبت فيهما الحيوية باللقاء. نظرت إليه نظرة يافعة شابة، وتذكرت الرهبان الكاثوليك في القرون الأولى، وكيف كان يقودهم في الإنشاد مايسترو من المدرسة الإيطالية. قلت في نفسي إنهم كانوا شبابًا بشعور شيباء، وهو أيضًا شاب، بينما أنا عجوز. لماذا عرفت الكثير مما لا يعرفونه؟ أمسك جوزيف بيدي وهو ينهض من جلسته ليذهب إلى غرفته، وكرَّر بحب عميق: «حان وقت العودة إلى المنزل يا فلاديمير». قضيت ليلتي عنده، وعذبتني طوال الليل آلاف المشروعات والخطط. كان نموذج جوزيف قويًا جدًّا، فهو العجوز استطاع من دون أي موارد أن يؤسس عملًا لنفسه، ووجد فيه الراحة، أما أنا فقد تركت الوطن بحزن، وها أنا أتسكع غريبًا في مدن مختلفة ولا أحد يحتاج إليَّ، ولا أفعل شيئًا. في الصباح التالي أعلنت للعجوز أنني سوف أتوجه مباشرة إلى (ن. ن) لأشارك في الانتخابات. انتحب العجوز، ووضع يديه على رأسي وقال: «اذهب يا صديقي، اذهب، ستصير إنسانًا يؤدي عمله بنبل واستقامة، وستفعل الكثير». وأضاف العجوز بصوت مرتعش: «عسى أن تجد نفسك الراحة». افترقنا، وتوجهت إلى (ن. ن)، وبقي هو في مكانه. هذه هي الحكاية. كانت هذه هي تسليتي الشبابية الأخيرة، منذ أن انتهت فترة تربيتي».

نظرت لوبوف ألكسندروفنا إليه بشعور قوي بالمشاركة، وانعكس بقوة على وجهه وفي عينيه حزن ثقيل الوطأة. لقد هاجمه الحزن بصورة خاصة بسبب أنه لم يكن راسخًا في تكوينه مثلما كان الأمر مع

كروتسيفيرسكي مثلًا. قمع طويلًا ما هو خارجي وكل العوائق، هذه الطبيعة المشرقة، ودفعوا إليها عناصر كئيبة تتلفها من فرط تنافرها معها.

سألته كروتسيفيرسكايا بصوت هادئ:

- لماذا جئت إلى هنا؟

- أشكركِ، أشكركِ بصدق على هذا السؤال.

قال كروتسيفيرسكي:

- من الغريب بالطبع، أو ببساطة هو أمر غير مفهوم أن يوهب الناس مثل هذه القوى والمساعي التي لا مجال لاستخدامها. كل حيوان يجد طبيعته مهيأة بحذق لشكل معين من أشكال الحياة. أما الإنسان، ألا نجد هنا خطأ ما؟ ببساطة نجد أن القلب والعقل ينفران من إقرار إمكانية أن يوهب الناس قوى ومساعي رائعة يدعونها تتآكل في صدورهم. لماذا يحدث ذلك؟

قال بيلتوف بحرارة:

- أنت محق تمامًا، ومن هذا المنطلق لن تخرج عن إطار السؤال. كل ما في الأمر هو أن قوانا في حد ذاتها تتطور بلا انقطاع، وتُعد باستمرار، بينما الحاجة إليها يحددها التاريخ. تعرفون بالطبع أن في كل صباح في موسكو يخرج حشد من العمال وعمال اليومية والمستَأجرين إلى مكان معين؛ بعضهم يتم اختياره للعمل، ويمضون إليه، بينما ينتظر آخرون طويلًا، ثم يجرجرون أنفسهم ليعودوا إلى منازلهم ببلادة، وفي أغلب الأحيان يمضون إلى الحانة. هكذا هو الأمر في كل الشؤون الإنسانية،

فلدينا عدد كافٍ من المرشحين لكل الأعمال، ثم يأتي التاريخ ويأخذ من يحتاج إليه، ويجد البعض الآخر أن عمله هو كيفية إهدار الحياة. من هنا تظهر هزلية كل الأنشطة. احتاجت فرنسا إلى قادة؛ فجاء دومورييه وجوش ونابليون بقواتهم، ولا تعود للأمر نهاية. ثم حلت أزمنة سلام، ولم يعد هناك أي ذكر للقدرات الحربية.

سألت لوبوف ألكسندروفنا بصوت حزين:

- ولكن ماذا يحدث للبقية؟

- كما يحدث عادة؛ بعضهم ينطفئ ويصير بليدًا، ويمضي آخرون للعيش في مدن بعيدة، ويصير البعض مجدفين في السفن، والبعض ضحايا للجلادين. لا يحدث هذا فجأة بالطبع. في البداية يصيرون من زبائن الحانات، ولاعبي ورق، وبحسب المهنة يصيرون سائحين على الطرق الكبيرة أو في الأزقة الصغيرة. ويحدث في الطريق أن تتناهى إلى الآذان صرخة، ويتغير ديكور المشهد. ليس هناك قطاع طرق بل يرماك[١٦٦] فاتح سيبيريا. نادرًا ما نجد منهم أناسًا طيبين وهادئين، فأفكارهم اللاذعة تكدرهم وهم جالسون عند الموقد. تخطر أفكار غريبة فعلًا على بال المرء عندما لا يعود أمامه مخرج، وعندما يصير تعطشه للعمل الفعال، يتسكع بصورة مرضية في ذهنه وقلبه، ولا يكون

---

(١٦٦) يرماك تيموفيفيتش كان أتامان قوزاقي، وهو اليوم بطل في الفولكلور والأساطير الروسية. في عهد القيصر إيفان الرهيب بدأ يرماك الفتح الروسي لسيبريا، غذت مصالح تجارة الفراء الروسية رغبته في التوسع شرقًا إلى سيبيريا، أنشئت خانية قازان التترية كأفضل مدخل إلى سيبيريا. في عام ١٥٥٢، أطاح جيش إيفان الرهيب الحديث بالخانات.

أمامه سوى الجلوس مطوي الذراعين في الوقت الذي تكون العضلات في تمام قوتها والدم يتدفق بقوة شديدة في العروق. شيء واحد حينها يمكنه أن ينقذ الإنسان ويبتلعه، إنه لقاء، لقاء بـ...

ولم يكمل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ارتعشت لوبوف ألكسندروفنا.

قال كروبوف:

- يا له من عقل فوضوي! الكلمة التي لم يقلها هنا هي «الفوضى». لقاء بالفوضى الحقيقية! ولكن ليس هناك ما يُقال من جانب المرشح المبجل لمنصب قاضي المقاطعة!

وابتسم الجميع.



-٥-

تشغل الحديقة العامة في مدينة (ن. ن) مكانة خاصة وسط بقية معالم المدينة. تُمثِّل الحدائق العامة رفاهية مثالية بطبيعتها الغنية في المنطقة الوسطى من بلدنا. لذلك لا يرتادها أحد في أيام الأسبوع العادية، أما فيما يتعلق بأيام الآحاد والأعياد، فيمكن للمرء أن يلتقي هناك بالمدينة كلها من السادسة مساءً وحتى التاسعة. لكن في هذا الوقت لا يجتمع الناس من أجل الاستمتاع بالحديقة، بل من أجل أن يلتقي بعضهم بعضًا. إذا كان رئيس المقاطعة على علاقة جيدة بقائد قوات المدينة، تظهر في هذه الأيام الأبواق أو طبلة كبيرة لدى الرفاق، بحسب القوات الموجودة في المقاطعة، كما يؤدون افتتاحيات من أوبرا «لودويسكا» أو «الخليفة البغدادي» بصحبة رقصات كادريل فرنسية تُذكِّرنا بالزمان الغابر للتحرر اليوناني، ويُرفِّه «موسكو تلغراف» عن آذان التجار الذين يرتدون ثيابًا صيفية من الساتان والمخمل، وهؤلاء السيدات الإقليميات اللاتي لا يوجه أحد انتباهه إليهن، ومع ذلك لا تقل أعمارهن عن الأربعين. في أيام الأسبوع - كما ذكرنا سالفًا - تكون الحدائق فارغة إلا ربما من عابر ما يئس من العثور على خيول تنقله أو يئس من حقيقة أن هذه المدينة تبدو مثل بقية المدن، ومن ثَم قرَّر الذهاب إلى الحديقة

أملًا في أن يرى منظرًا ما يستحق النظر. لاحظ الشعراء منذ زمن بعيد أن الطبيعة لا تبالي بدرجة منفرة بما يفعله الناس على ظهرها، ولا تُبكيها القصائد الشعرية، ولا تُضحكها الأعمال النثرية، بل تؤدي عملها بأقصى قدر من التعقل. هكذا سلكت الطبيعة في (ن. ن)، ولم تنظر مطلقًا إلى حقيقة أن أحدًا لم يتجول في الحديقة، وأن من كان يتجول فيها لم يكن يوجِّه انتباهه إلى الأشجار، بل إلى التعريشة الرائعة المشيدة على الطراز الصيني - اليوناني. لقد كانت رائعة فعلًا، حتى إن رئيس المقاطعة حالفه النجاح تمامًا في تسميته «موضع راحتي»[١٦٧]. كانت مريحة بدرجة خاصة للأعصاب، حتى إن كعكة الزنجبيل المصنوعة على شكل حصان، المغروسة عند قمة القبة، والتي تؤدي وظيفة تنين، كانت تدور باستمرار، مُصدِرة ما يبدو كصرخة حزينة، مائلة صوب الأحلام، وقد أكدت أن الريح التي هبت على الناحية اليسرى من القبة تهب في حقيقة الأمر من الناحية اليمنى. من أعلى التنين، وبين الأعمدة، كانت هناك رؤوس أسود شعثاء غاضبة من المرمر، وقد تشققت من المطر، وكانت مستعدة دائمًا لإسقاط الأذن أو الأنف على رأس من في الحديقة. بالرغم من بكاء التنين، ومن خطورة الهلاك على يد الأسود، ازدهرت الطبيعة اللا مبالية على نحو رائع، خاصة على طول المماشي الجانبية، ولم يحدث ذلك من باب الحياء، بل بسبب أن رئيس المقاطعة السابق كان قد أمر بتشذيب أشجار الزيزفون في الممشى الرئيس، فقد بدا له أن وجود أغصان شجر الزيزفون بهذا الشكل يتعارض مع الأداء

(١٦٧) مكتوبة بالفرنسية بحروف روسية.

الحرفي للواجب. بدت أشكال أشجار الزيزفون التي حُرمت من قممها، والناظرة صوب السماء، وكأنها انجدلت مع الأشجار الساقطة، فبدت كمُدانين حلقوا لهم نصف شعورهم تحذيرًا للبقية من محاولة الهرب، وبدت هذه الكائنات العملاقة وكأنها تُردد قصيدة الشاعر أوزيروف:

الآلهة موجودة، والأرض وُهِبت للأشرار

ولكن في المماشي الصغيرة كانت للأشجار حرية أن تنمو كما تشاء أو بقدر ما يكفي من الماء. في أحد هذه المماشي الصغيرة، في يوم دافئ من شهر أبريل جاء على الأرجح إلى (ن. ن) حتى يفهم سكانها برودة شهر مايو القادم خلفه مباشرة، تنزهت إحدى السيدات، وكانت ترتدي معطفًا أسود. كانت قمة الحديقة مهشمة؛ ففي أعلى نقطة منها كان هناك أسدان منقوش عليهما بعض النقوش غير الواضحة التي حاول ضابط الشرطة كثيرًا أن يقبض على الجناة الذين نقشوها ولم يستطع، كما أنه كان يرسل قبل كل عيد بإنكار ذات جندي المطافئ؛ بوصفة شخصية تعودت على التعامل مع كل مظاهر التدمير، ليزيل هذه العلامات الفنية التي ينقشها الناس بصفة دورية على الدكك. جلست السيدة عليها بصحبة رجل متأنق. كان المنظر لا بأس به. امتد الطريق الكبير (ذو الأوساخ الكبيرة أيضًا) حول الحديقة لينتهي بالنهر. كان النهر فائضًا، وعلى ضفتيه وقفت المركبات بأنواعها المختلفة والخيول والفلاحات والجنود والبرجوازيون. كانت هناك سفينتان نهريتان تتحركان دائمًا جيئة وذهابًا، مزدحمتين بالناس والجياد والمركبات، وكانتا تتحركان ببطء بمجاديف، وبدتا كأحافير سرطانات البحر التي

ترفع أقدامها وتخفضها بالتتابع. كانت الأصوات المختلفة تتناهى إلى آذان الجالسين؛ صرير العربات ورنين النواقيس وصيحات الحمالين، وبصعوبة كانت تُسمع إجابة من الجانب الآخر، وتوبيخ للركاب المتعجلين، وصهيل الخيول الموجودة على متن الزورق، وخوار البقر المربوط من قرونه بالمركبة، والحوار الصاخب للفلاحين المجتمعين حول النار على الضفة. أوقفت السيدة والمتأنق حديثهما، وأخذا ينظران وينصتان في صمت لما يحدث بعيدًا. لماذا يؤثر علينا كل ما يحدث بعيدًا بهذه القوة ويهزنا بشدة؟ لا أعرف، لكن ما أعرفه هو أن خفقان القلب الذي كان مستمعو فياردو[(١٦٨)] روبيني[(١٦٩)] يشعرون به شعرت به أنا أيضًا كثيرًا عندما كنت أستمع إلى تلك الأغنية الممتدة اللا نهائية لعمال وحرس السفن ليلًا؛ وهي أغنية حزينة تقطعها تدفقات الماء وحفيف الريح بين أشجار الصفصاف على ضفتي النهر. لا يمكنكم تصور ما أشعر به حينما أستمع إلى هذه الأصوات الحزينة المتواترة. لقد بدا لي أن هذه الأغنية تمزق المسكين بفعل الجو الخانق، ويعلن عن حزنه من دون أن يدرك ذلك، وتئن نفسه من الحزن، وهي حزينة من فرط الضيق وما إلى ذلك. كان هذا في شبابي!

قالت السيدة ذات الرداء الأبيض أخيرًا:

- كم هو رائع المكان هنا! عليك أن تعترف بأن الطبيعة في الأماكن الشمالية جميلة، أليس كذلك؟

---

(١٦٨) بولين جارسيا فياردو: ملحنة ومغنية أوبرا، وموسيقية، وعازفة بيانو من فرنسا.

(١٦٩) جيوفاني باتيستا روبيني: كان تينورًا إيطاليًا شهيرًا في عصره.

- الأمر واحد في كل مكان. أينما ولَّى الإنسان وجهه، وأينما نظر إلى الطبيعة والحياة بنفس منفتحة نظرة إيثارية، فسيجد متعة غير عادية.

- هذا صحيح، إذا شئت يمكنك الاستمتاع بكل شيء في العالم. كثيرًا ما يتبادر سؤال غريب إلى ذهني: لماذا يستطيع الإنسان أن يستمتع بكل شيء ويجد في كل شيء ما هو رائع عدا الإنسان؟

- يمكن فهم السبب، لكن هذا الفهم لن يجعل الأمر أسهل. نحن نحمل في علاقاتنا بالناس فكرة سابقة تقتل العلاقة الشعرية بأدنى درجات النثر. يرى الإنسان دائمًا في الإنسان عدوًّا يجب أن يصارعه، ثم يجفل ويسرع لتحديد شروط الهدنة. ما وجه المتعة التي يمكن أن تنشأ هنا؟ نشأنا على ذلك، ولم يعد بوسعنا ألا نفعله تقريبًا. لقد صار في داخلنا نوع من الكبرياء البرجوازية التي تجبرنا على النظر إلى الخلف والجانب. لم يعد الإنسان يصطدم بالطبيعة أو يخشاها، ولذلك نشعر بالراحة والحرية في وحدتنا. إننا هنا نستسلم تمامًا للانطباعات التي تجعلنا نرى أننا إذا دعونا أقرب صديق إلينا، فلن نعود نشعر بالحرية والراحة.

- إنني عادة لا ألتقي بالناس كثيرًا، خاصة أولئك الذين يبدون لي أقرباء، لكنني أعتقد أنه يوجد ما يمكن أن يكون على أقل تقدير تعاطفًا بين الشخصيات، بحيث تزول بينها كل العوائق الخارجية، ولا يعود بإمكانهم أن يعوق بعضهم بعضًا في أي موقف من مواقف الحياة.

- أشك في استمرارية كمال هذا الشعور. كل هذا يُقال وحسب. حتى المتعاطفون تمامًا مع بعضهم بعض لم يتفقوا على تلك الأمور مبعث الخلاف بينهم، لكنهم سيتفقون آجلًا أم عاجلًا.

- ومع ذلك، حتى يحين وقت هذا الاتفاق، يمكن أن تحل لحظات من التعاطف الكامل حيث لا يعود أي منهم يعوق الآخر عن الاستمتاع بالطبيعة وبنفسه.

- أنا لا أؤمن إلا بهذه اللحظات؛ إنها اللحظات المقدسة المتعلقة بالوفرة النفسية التي لا يعود الإنسان فيها بخيلًا، ويمنح فيها كل شيء، ويتعجب هو نفسه من ثرائه وكمال حبه. لكن هذه اللحظات شديدة الندرة، ولا يمكننا أن نُقيِّم القطاع الغالب منها في الوقت الحاضر أو نُثمِّنه، بل إننا نتركها كثيرًا تنساب بين أصابعنا ونقتلها بمختلف أنواع الدناءات. تمر هذه اللحظات بالإنسان تاركة من خلفها قلبًا مريضًا مضغوطًا وذكرى بليدة عما كان يمكن أن يكون حسنًا لكنه لم يكن كذلك. علينا أن نعترف بأن الإنسان نظَّم حياته بغباء شديد؛ إنه يقضي تسعين بالمائة منها في هراء وتفاهات، أما القطاع المتبقي منها فلا يستطيع استغلاله جيدًا.

- ولماذا يهدر الإنسان هذه اللحظات بالرغم من أنه يعرف قيمتها؟ إنك تحمل على كاهلك مسؤولية مزدوجة. (هكذا قالت كروتسيفيرسكايا مبتسمة) أنت ترى الأمر وتفهمه بوضوح.

- أنا لا أقدِّر هذه اللحظات وحسب، بل إني أُقدِّر كل متعة. يسهل على المرء أن يقول: لا تُضيِّع هذه اللحظات، لكن نغمة واحدة خاطئة يمكنها أن تقضي على الأوركسترا كلها. كيف يمكن للمرء أن يستسلم تمامًا عندما يرى إلى جانبه مختلف أنواع الأشباح تشير إليه بأصابعها القذرة؟

- أي أشباح؟ أليست هي أهواؤك؟

- أتقولين أي أشباح؟ (كرَّر بيلتوف السؤال بصوت أخذ يتغير تدريجيًّا من فرط الاضطراب الداخلي) يصعب عليَّ أن أوضح لكِ، لكن الأمر شديد الوضوح بالنسبة لي. نسي الإنسان نفسه إلى حد أنه صار غير قادر على إطلاق العنان لشعور واحد من مشاعره. اسمعي! سأطرح عليكِ مثالًا، وهو تحديدًا المثال الذي لم يكن عليَّ أن أطرحه، لكني سأطرحه. بمجرد البدء لا يعود بإمكاني التراجع. لقد أحببتكِ منذ أول أيام تعارفنا. أهو شعور صداقة أم حب أم هو مجرد تعاطف؟ كل ما أعرفه هو أن حضوركِ قد صار ضرورة بالنسبة لي. أعرف جيدًا أن صباحات بأكملها قضيتها بنفاد صبر طفولي وانتظار مُمرض للمساء. وحينما كان المساء يحل أخيرًا كنت أركض إليكِ لاهثًا من فرط التفكير في أنني سوف أراكِ. كنت أنظر إليكِ كعزائي الأخير؛ أنا المحروم من كل شيء، والبرودة تكتنفني من كل جانب. صدقيني، أنا في هذه اللحظة أبعد ما يكون عن الكلام الإنشائي. لقد وقفت باضطراب عند عتبة بيتكِ، ودخلت بدم بارد، وأخذت أتحدث عن الغرباء، ومرت الساعات. ما الجدوى من هذه المسرحية الكوميدية الغبية؟ سأقول لكِ ما هو أكبر من ذلك؛ أنتِ لم تستمري في إبداء لا مبالاتكِ بي. من المحتمل أنكِ كنتِ في انتظاري في ليلة أخرى. لقد رأيت الفرحة في عينيكِ عندما رأيتِني، ودق قلبي بقوة في هذه اللحظات إلى حد شعوري بالاختناق، والتقيتِني بلطف مصطنع وجلستِ بعيدًا، وتظاهرنا أننا غرباء... ما جدوى كل ذلك؟ أكان هناك شيء في أعماق نفسي ونفسكِ يستحق الخجل

وإخفاءه عن أعين الناس؟ لا! لماذا نخفيه عن أعين الناس؟ الأكثر إثارة للسخرية هو أننا نخفي عن أنفسنا مدى قربنا من بعضنا بعض. إنها المرة الأولى التي نتحدث فيها عن ذلك الآن، وحتى هنا يبدو وكأننا نخفي نصف الأمر. أكثر المشاعر إشراقًا تصير حادة وحارقة ومظلمة - ولا أريد أن أصفها بكلمة أخرى - وإذا خفنا من هذا الشعور وأخفيناه، فسنبدأ في تصديق أنه شعور إجرامي، وحينها يصير كذلك فعلًا. في حقيقة الأمر الاستمتاع بشيء ما على طريقة سارق يقف خلف أبواب مغلقة يستمع إلى الدمدمة في الداخل، يُحقِّر موضوع متعة الإنسان.

أجابت كروتسيفيرسكايا بصوت مرتعش:

- أنت غير محق. أنا لم أُخفِ قَطُّ صداقتي بك، وليست لي حاجة إلى فعل ذلك.

عارضها بيلتوف وقد أمسك بيدها وضغط عليها بقوة:

- قولي لي إذن لَماذا وأنا مُعذَّب النفس ومفعم بالرغبة في الاعتراف والكشف، ونفسي مليئة بالحب لامرأة لا أجد في داخلي القوة للذهاب إليها وتناول يدها والنظر في عينيها والتحدث إليها وإمالة رأسي المنهك على صدرها؟ لماذا لم تستطع أن تقابلني بهذه الكلمات التي رأيتها ترتسم على شفتيها لكنها لم تقلها قَطُّ؟

أجابت كروتسيفيرسكايا بنوع من اليأس:

- لأن هذه المرأة تنتمي إلى رجل آخر وتحبه. نعم، نعم! إنه تحبه بصدق.

ترك بيلتوف يدها.

- لم أكن في انتظار هذه الإجابة تحديدًا، ويبدو لي الآن أنه يستحيل فعل شيء آخر. لكن اسمحي لي أن أسألكِ: هل يجب رفض شعور ما لصالح آخر، كما لو أن الحب لدى المرء يُقدَّم بقدر معين؟

- ربما يكون الأمر كذلك، لكني لا أفهم فكرة حب شخصين في الآن ذاته. زوجي وحده - قبل أي شخص آخر - هو هدف حبي اللا نهائي، ومن ثَم اكتسب حقوقًا هائلة ومقدسة على حساب حبي.

- لماذا بدأتِ تدافعين عن حقوق زوجكِ؟ لم يهاجمها أحد. علاوة على ذلك فإنكِ تدافعين عنها بصورة سيئة. إذا كان حبه قد أعطاكِ مثل هذه الحقوق، فلماذا إذن لا يكون لحب آخر صادق وعميق تجاه شخص آخر أي حقوق؟ غريب هذا! اسمعيني يا لوبوف ألكسندروفنا. نحن في حاجة إلى الصراحة ولو مرة واحدة في العمر. لن أقول شيئًا، بل إني سأغادر إذا شئتِ ذلك. تقولين إنكِ لا تفهمين إمكانية أن تحبي زوجكِ وشخصًا آخر، ألا تفهمين فعلًا؟ عليكِ بالمزيد من التعمق في نفسكِ ولتنظري ما يعتمل فيها الآن. فلتتحلي بروح الاعتراف وستجدين أنني محق، ولتقولي على الأقل إنكِ شعرتِ بكل ذلك، وإنكِ غيَّرتِ رأيكِ، لأنني أعلم ذلك وقد رأيت هذه الأفكار مرتسمة على جبينكِ وفي عينيكِ.

- آه يا بيلتوف! بيلتوف، لماذا كل ذلك؟ لماذا هذا الحوار؟ كنا في حالة حسنة، لكن الآن لن يستمر الأمر كذلك. سوف ترى بنفسك.

هكذا قالت كروتسيفيرسكايا بصوت مليء بحزن كئيب.

– أتبقى الحال حسنة ما دمنا لم نُسمِّ الأشياء بأسمائها؟ يا لها من صبيانية!

هز بيلتوف رأسه بحزن وضيَّق عينيه، وارتسمت على وجهه للحظة رقة لا نهائية ملهمة ومعبِّرة، واستبدلت السخرية التي كانت ترتسم على وجهه عادة.

كانت امرأة خائفة تنظر إليه بدموع وهلع. كانت كروتسيفيرسكايا فاتنة بصورة أخاذة في هذه اللحظة، وقد خلعت قبعتها ولاح شعرها الأسود وقد ازداد جمالًا بفعل هواء المساء الرطب، فتناثرت خصلاته. كانت كل سمة في وجهها تنبض بالحيوية، وكانت تتحدث والحب ينبض من عينيها الزرقاوين. كانت يدها المرتعشة تارة تضغط على المنديل، وتارة تتركه، وكانت تجذب الشريط الموجود على قبعتها، وبين حين والآخر يرتفع صدرها ويبدو كأن الهواء لا يستطيع أن يجد طريقه إلى الرئتين. ماذا كان يريد هذا الإنسان الفخور منها؟ كان يريد كلمة، كان يريد انتصارًا، كما لو أن هذه الكلمة كانت ضرورية. لو كان قلبه أكثر شبابًا، ولو كانت مثل هذه الأفكار المريرة والغريبة لم تستقر طويلًا في ذهنه، لما نشد هذه الكلمة منها.

أخيرًا قالت كروتسيفيرسكايا المسكينة وهي ترفع نظرتها الخجولة صوبه:

– أنت إنسان مريع!

تحمَّل نظرتها وسأل:

- أين ذهب سيميون إيفانوفيتش؟ يجب أن يأتي على الفور. هل يبحث عنا في مماشٍ أخرى؟ فلنذهب للقائه، فقد أوشكت على الإظلام تمامًا.

لم تتحرك من مكانها، مستاءة من اللهجة التي قيلت بها الكلمات الأخيرة. بعد أن صمتت لبرهة رفعت نظرها مجددًا إلى بيلتوف وقالت له بصوت هادئ ومتوسل:

- لقد صرت أدنى في عينيك، ولقد نسيتَ أنني امرأة بسيطة وضعيفة.

وانهمرت الدموع من عينيها.

وهنا، كما هي الحال دائمًا، انتصر حب المرأة ودفئها على متطلبات الرجل الفخور. أما بيلتوف، وقد تأثر في أعماق نفسه، أخذ يدها ووضعها على صدره. شعرت بدقات قلبه. شعرت بها بينما تتساقط قطرات دموع ساخنة على يدها. لقد كان شديد الروعة والجاذبية في عاطفته الفخورة. كانت دماؤها مضطربة للغاية، وغام كل شيء في رأسها، بينما امتلأ قلبها بمشاعر جيدة وثرية، حتى إنها ألقت نفسها في أحضانه في اندفاعة متهورة وبللت دموعها صدرية فلاديمير بتروفيتش الباريسية المبرقشة. في هذه الدقيقة تعالى صوت سيميون إيفانوفيتش:

- أين أنتما؟ هل أنتما هنا؟

أجاب بيلتوف وقد سلَّم يده للوبوف ألكسندروفنا:

- نحن هنا.

كان بيلتوف منتشيًا بالسعادة، وانبعثت نفسه النائمة فجأة بكل قواها، فقد انفتحت عليه لوبوف التي ظلت متحفظة حتى هذه اللحظة، وشعر بنعيم لا يوصف في جميع مناحي وجوده. كما لو أنه لم يكن يعلم بالأمس وأول أمس أنه يحب ويُحب. عاد من منزل الزوجين كروتسيفيرسكي إلى الحديقة، واندفع إلى تلك الدكة، وكان صدره ممتلئًا بالمشاعر، وانهمرت الدموع من عينيه، وتعجب من أنه وجد قدرًا كبيرًا من الشباب والنضارة في نفسه. صحيح أن شعوره بالبهجة سرعان ما مازجه شعور بالضيق أجبر جبينه على العبوس، ولكن بعودته إلى المنزل أمر جريجوري أن يأتيه بزجاجة شامبانيا مع وجبة خفيفة، وتلاشى شعوره بالضيق، وصار شعوره بالبهجة أكثر قوة.

ودَّعت كروتسيفيرسكايا الشاحبة كالموت بيلتوف عند منزلها، حيث رافقهما سيميون إيفانوفيتش. لم تستطع أن تفهم أو تتذكر بوضوح، لكنها تذكرت أمرًا واحدًا بصورة مريعة؛ تذكرته في حد ذاته بكامل جسدها؛ إنه تلك القبلة الساخنة المتقدة الطويلة. لقد أرادت أن تنساها، وأرادت أن تنسى كم بدت هذه القبلة رائعة، وأنه لا يمكنها أن تتنازل عن ذكرى هذه القبلة في مقابل أي شيء من هذا العالم. أراد سيميون إيفانوفيتش أن يذهب، لكن كروتسيفيرسكايا خافت، وطلبت منه أن يأتي معها، فقد خافت أن تتخطى عتبة المنزل وحدها، وكانت تشعر بالهلع.

دخلا معًا. كان ديمتري ياكوفليفيتش جالسًا إلى الطاولة، يقرأ بانتباه مجلة ما، وبدا منظره أهدأ وأكثر صفاءً من المعتاد. أغلق المجلة

وقد ابتسم بسماحة إليهما، مادًّا يده لزوجته، وسأل:

- أين كنتِ تتنزهين طوال ذلك الوقت؟ انتظرت وانتظرت حتى شعرت بالحزن.

كانت يد الزوجة باردة ومتعرقة، كما يكون الأمر مع من أوشكوا على الموت مرضًا.

أجاب كروبوف عنها:

- كنا في الحديقة.

سأل كروتسيفيرسكي:

- ماذا بكِ؟ يدكِ غريبة! تبدين شاحبة تمامًا.

- أشعر بالدوار. لا تقلق يا ديمتري، سوف أذهب إلى غرفة النوم وأشرب بعض الماء وستمضي هذه النوبة.

- اسمحا لي، اسمحا لي!

- إلى أين تسرعين؟ دعيني أفحصك. هل نسيتما أنني طبيب؟ ما هذا؟ حالتها سيئة فعلًا. ديمتري ياكوفليفيتش... أجلسها رجاءً على الأريكة، وأمسكها من هنا؛ من أسفل الذراع، هكذا، هكذا. لقد لاحظت في الطريق أنها ليست بخير. الهواء الربيعي ورائحة عصارة النبات الحادة والجليد المنصهر يتبخر، وكل أنواع القاذورات تذوب. لو كان لدينا هنا خردل إنجليزي لصنعنا لصقات خردل صغيرة في حجم راحة اليد مع خبز أسود وخل. هل الطباخة هنا في المنزل؟ أرسل إلى طاهيّ كارب، وهو يعرف. أو يمكن ببساطة أن تطلب بعض الخردل، هكذا،

ثم تربط به بعض الكافيار، وإذا لم تجد نفعًا فلتضع زوجين آخرين منها أسفل الكتفين حيث الجزء اللحمي.

- لستُ مريضة. لستُ مريضة.

هكذا كرَّرت لوبوف ألكسندروفنا بصوت ضعيف، بعد أن أفاقت لنفسها وجسدها كله يرتعش، ثم أكملت:

- ديمتري، تعالَ إليَّ هنا يا ديمتري. أنا لستُ مريضة. أعطني يدك.

- ماذا بكِ؟ ماذا بكِ يا ملاكي؟

هكذا سأل الزوج الذي بدا هو نفسه مريضًا وانفجر في البكاء.

ألقت عليه نظرة حزينة غريبة، لكنها لم تستطع أن تقول له لماذا نادت عليه. سألها مجددًا عما بها.

- أعطني ماءً، وسأغفو قليلًا وسأستعيد قواي يا صديقي.

بمرور ساعتين أو ثلاث، استلقت لوبوف ألكسندروفنا، المُعاقَبة على قبلة بيلتوف بتأنيب الضمير داخليًّا وبلصقات الخردل خارجيًّا على الفراش، وغاصت في نوم ثقيل عميق أو في حالة نسيان. كانت الصدمة قوية ولم يتحملها جسدها.

في غرفة النوم استلقى كروبوف على الأريكة بكامل ثيابه، وبقدر ما كان بقاؤه من أجل المريضة، كان أيضًا من أجل كروتسيفيرسكي الذي كان في حالة ارتباك وخوف شديدة. نظرًا لغضب كروبوف الشديد من زنبرك الأريكة الذي لم يكن مهيئًا لمرونة جسده، وأضفى عليه سمات قريبة جدًّا من البرميل الذي دحرج فيه القرطاجيون نجم المليك، بدأ

شخيره يتصاعد باستمتاع في غضون ربع ساعة بهدوء إنسان غير مثقل بضميره أو بمعدته.

بالقرب من فراش المريضة توهج ضوء ليلي موضوع على صحن الفنجان، وقد ألقى دائرة ضوء على السقف يتغير حجمها باستمرار وتتموج، مُردِّدة صدى كل حركات الشعلة الصغيرة المتقدة في المصباح الصغير. جلس كروتسيفيرسكي شاحبًا ويائسًا إلى الطاولة التي طالها الضوء الليلي. من صادف أن قضى ليلة عند رأس مريض عزيز عليه، سواء كصديق أو أخ أو حبيبة، خاصة في ليلة لا هي ربيعية تمامًا ولا صيفية كاملًا، فسيفهم ما الذي اعتمل في نفس كروتسيفيرسكي عصبي المزاج؛ إنه شعور بليد وأجوف بالعجز عن تقديم يد العون، ممزوج بالخوف من المستقبل مع توتر محموم من الأرق والإنهاك، أفضوا به إلى حالة عصبية. كان ينهض طوال الوقت من جلسته ويلقي نظرة عليها ويجس جبهتها بيده، فيجد أن الحمى تقل وطأتها، ويبدأ في التفكير في أن الأمر بهذه الصورة قد يكون قد ساء، حيث اندفع المرض إلى الداخل. نهض وأعاد ترتيب وضع المصباح الليلي والقنينة والدواء، ونظر إلى الساعة وقرَّبها من أذنه، ولم يرَ كم الساعة بالضبط، فوضعها مرة أخرى ثم جلس مجددًا على مقعده وبدأ يركز نظرته على دائرة الضوء المتذبذبة على السقف، ويفكر ويحلم، وكادت مخيلته المتقرحة أن تصل به إلى حالة من الهذيان. قال في نفسه: «لا، هذا مستحيل! هذا غير ممكن. ببساطة غير ممكن. كيف لها وهي الوحيدة التي لديَّ في

هذا العالم أن يحدث لها ذلك؟ إنها لا تزال شابة. الله يشهد على حبي وسيشفق علينا. هذا مجرد أمر بسيط تمامًا وسيمر. لا بد أنه بفعل الهواء البارد والرطب وروائح عصارة النبات الحادة وتبخر الجليد. نعم. كل ما في الأمر أنها نزلة برد ربيعية تبدو مخيفة، وحمى عصبية وهزال بسبب السل. كيف لم يستطيعوا حتى الآن الوصول إلى علاج لهذا المرض؟ إنه مرض مريع! إلا أن خطورته تمتد حتى عمر الثامنة عشرة. لدينا هنا زوجة معلمنا الفرنسي في الثلاثين، وماتت بسبب السل. نعم، ماتت. ولكن إذا...». وهكذا ظل يتصور بوضوح التابوت موضوعًا في غرفة المعيشة، مغلقًا، والصلوات الحزينة تُتلى عليه، وسيميون إيفانوفيتش يقف حزينًا بالقرب منه، والمربية تمسك باشا ملفوفًا بمنديل أبيض. ثم تراءى له أمر أفظع؛ ألا وهو أنه لا يوجد تابوت، والغرفة مرتبة، والأرضيات نظيفة، وليس هناك سوى رائحة البخور. نهض من جلسته وقد أوشك على فقدان الوعي، واقترب من زوجته. وجنتاها ساخنتان، وأنفاسها ثقيلة وقد غرقت في نوم مَرضي. طوى كروتسيفيرسكي يديه على صدره وبكى بمرارة. نعم! لقد استطاع هذا الإنسان أن يحب حقًّا. كان الأمر يستحق النظر إليه. جثا على ركبتيه وأخذ يد زوجته الساخنة وقربها من شفتيه، وقال بصوت مسموع:

– لا، لا، لن يأخذها. هي لن تتركني؛ فماذا يمكنني أن أفعل من دونها؟

وأخذ يصلي رافعًا عينيه إلى السماء.

هنا دخل سيميون إيفانوفيتش وقد بدا ناعسًا للغاية؛ عينه اليسرى لم تُرِد أن تنفتح تقريبًا مهما حاول تحريك العضلة، فتعمد تثبيتها حتى يستطيع فتحها.

- هل بدأتْ تهذي؟

- لا، إنها تنام بهدوء.

- يا أخي لقد سمعت بنفسي. أتراني كنت أحلم؟ ربما هُيئ لي الأمر.

- لا بد أنه هُيئ لك يا سيميون إيفانوفيتش.

هكذا قال ديمتري يا كوفليفيتش وقد بدا كتلميذ تم القبض عليه متلبسًا.

اقترب كروبوف من الفراش.

- ثمة حمى، إلا أن الأمر يبدو بسيطًا. يجدر بك أن تنام يا ديمتري ياكوفليفيتش؛ فما الجدوى من تعذيب نفسك؟

- لا. لن أنام.

- كما تشاء.

قالها كروبوف متثائبًا، متوجهًا صوب الأريكة البارزة التي نام عليها في هدوء حتى السابعة والنصف، والتي كان يستيقظ عليها كل يوم في العاشرة، بغض النظر عما إذا كان قد نام في السابعة مساء أو سهر حتى الصباح.

بعد أن فحص سيميون إيفانوفيتش المريضة قرر أن التشخيص هو

حمى برد طفيفة -على حد تعبيره- وأضاف أن الحالة في طريقها إلى التماثل للشفاء.

أما ما حدث بعد هذه الحمى، فسوف تقصه علينا لوبوف ألكسندروفنا بنفسها، وهذا مقطع من يومياتها:

«١٨ مايو. مضى وقت طويل لم أُدوِّن فيه شيئًا في هذا الدفتر؛ أكثر من شهر! في بعض الأحيان يبدو لي كأن أعوامًا قد مرت منذ ذلك اليوم الذي مرضت فيه. يبدو لي الآن أن كل شيء قد انقضى، وأن الحياة سوف تمضي بهدوء مجددًا. بالأمس خرجت للمرة الأولى من المنزل. كم سعدت بتنشق هواء نقي! كان الجو رائعًا، إلا أنني وهنت بشدة في أثناء فترة المرض. ذهبت مرتين أو ثلاثًا إلى حديقتنا الأمامية، وأُنهكت إلى درجة أن شعرت بالدوار، لكن هذا قد انقضى الآن. يا الله! كم يحبني! كم يعتني بي ديمتري الطبيب! فتحت عيني ليلًا وتزحزحت قليلًا، فإذا به واقفًا هنا يسألني عما أريده، ويعرض عليَّ الماء. كم هو مسكين! هو نفسه قد نحف وشحب كما لو أنه كان مريضًا. يا له من حب! يحتاج المرء إلى قلب حجري حتى يستطيع ألا يحب إنسانًا كهذا. آآه! أنا أحبه، ولم يكن بوسعي ألا أحبه. هذا الحادث في الحديقة لا يعني شيئًا، فقد حدث بسبب المرض، وقد كنت في حالة خاصة وأعصابي متوترة. لقد رأيته بالأمس للمرة الأولى بعد المرض. سمعت صوته يتسلل إلى نومي، لكني لم أرَه. كان مضطربًا جدًّا، بالرغم من أنه حاول إخفاء ذلك. ارتعش صوته حينما قال لي: «أخيرًا، أخيرًا تحسنت حالتِك!». ثم تحدث قليلًا، فقد كانت هناك فكرة ما تشغل ذهنه، وجس

جبهتي بيده مرتين كما لو أنه أراد أن يجففها، لكن العرق تفصد منها مجددًا. من دون أي إشارة أو تلميح عما حدث لا بد أنه أدرك أن حالتي هذه هي نوع من التسمم المرضي. لماذا لم أحكِ كل شيء لديمتري؟ في هذا المساء عندما مد لي يده برقة أردت أن أرتمي عليه وأحكي له كل شيء، لكن قواي خانتني، وصرت في حالة سيئة. علاوة على ذلك، ديمتري رقيق جدًّا، وكان من شأن ذلك أن يحزنه بدرجة مفزعة. سوف أحكي له كل شيء لاحقًا».

«۲۰ مايو. بالأمس كنت بصحبة ديمتري في الحديقة، وأراد أن يجلس على هذه الدكة، فقلت له إنني أخشى الريح الآتية من عند النهر. جعلتني هذه الدكة أشعر شعورًا مريعًا. بدا لي أن جلوس ديمتري عليها سوف يسيء له. هل يمكن حقًّا أن يحب المرء اثنين؟ لا أفهم. هل يمكن ألا يحب المرء اثنين فقط بل يحب الكثيرين؟ ولكن هنا تلاعب لفظي؛ فلا يمكن أن يحب المرء سوى شخص واحد، وأنا أحب زوجي. أحب كروبوف من بعده ولا أخشى الاعتراف بحبي لبيلتوف. إنه إنسان قوي إلى درجة أنني لا أستطيع ألا أحبه. إنه إنسان مدعو إلى أن يصير إنسانًا عظيمًا وغير عادي، والعبقرية تلمع في عينيه. لا يحتاج إنسان مثله إلى حب كهذا. ماذا تعني امرأة بالنسبة له؟ سوف تأسرها نفسه التي لا حدود لها. إنه في حاجة إلى حب من نوع آخر. إنه يعاني، يعاني بعمق، ومن شأن صداقة لطيفة مع امرأة أن تشفيه من هذه المعاناة. إنه يجد فيَّ دائمًا هذه المرأة، وهو يفهم أهمية هذه الصداقة بحماس شديد. إنه يفهم كل شيء بحماس شديد. علاوة على ذلك، لم يتعود على إبداء الاهتمام

والتعاطف. لقد كان دائمًا وحيدًا، ونفسه حزينة وساخطة، وفجأة استيقظ على صوت التعاطف. هذا أمر طبيعي تمامًا».

«٢٣ مايو. تمر أحيانًا لحظات غريبة يشعر فيها الإنسان برغبة قلقة في الحياة بصورة أكثر امتلاءً. هل هو نكران جميل للقدر، أم أن الإنسان مفطور على ذلك؟ فأنا أشعر كثيرًا، خاصة منذ فترة، بالشوق إلى... يصعب جدًّا التعبير عن ذلك. أنا أحب ديمتري بإخلاص، لكن النفس أحيانًا تطلب شيئًا آخر مختلفًا عما أجده فيه. إنه شديد الدماثة والرقة إلى درجة أنني مستعدة أن أكشف له كل حلم وكل فكرة طفولية تعتمل في نفسي. سيقدِّر كل شيء، ولن يبتسم بسخرية، ولن يسيء بكلمة باردة أو ملاحظة علمية، ولكن هذا ليس كل شيء. يبدو أن هناك متطلبات أخرى، فالنفس تبحث عن القوى وشجاعة الفكر، فلماذا لا يكون لدى ديمتري مثل هذا الاحتياج إلى البحث عن الحقيقة وتعذيب نفسه بالفكر؟ عندما كنت أتوجه إليه بسؤال صعب أو برأي، كان يهدئني ويواسيني ويريد أن يُهدهدني كما يفعلون مع الأطفال، لكني أريد أمرًا مختلفًا تمامًا. إنهم يفعلون ذلك مع الأطفال، لكني لا أستطيع تَقبُّله».

«٢٤ مايو. ياشا مريض. منذ يومين وهو على فراشه محموم، واليوم اتضح أنه مصاب بالحصبة. سيميون إيفانوفيتش يخدعني. التحدث بصراحة أفضل بأضعاف المرات. أفضل للمرء أن يصير خائفًا عندما يعرف الحقيقة بدلًا من أن يترك لمخيلته العنان، فسوف تُلفِّق بنفسها ما هو أفظع وأسوأ. لا يمكنني أن أنظر إلى ياشا مباشرة، فعندما أفعل ذلك ينزف قلبي، حيث إن المعاناة التي يختبرها الطفل مريعة. كم نحف

وشحب المسكين! إلا أنه أحيانًا تأتي دقائق يكون فيها الأمر أهون حالًا، فيبتسم ويطلب الكرة الصغيرة. يا لهشاشتنا تجاه كل من هو عزيز علينا. مجرد التفكير في ذلك أمر مريع. يبدو الأمر كبكرة تدور، وتحمل مختلف أنواع الأشياء؛ الجيدة والسيئة على السواء، ويصل الشخص إلى هناك ويُلقى به إلى القمة حيث النعيم، ثم إلى القاع. يتصور الإنسان أنه يدير بنفسه كل ذلك، بينما هو في حقيقة الأمر كرقاقة صغيرة في نهر تتحرك في دائرة صغيرة، وتسبح مع التيار، فتصل إلى الشاطئ أو تُرسل إلى أعماق البحر وتُغرس في الطين. أمر ممل ومهين!».

«٢٦ مايو. حمى قرمزية. لدى ديمتري ثلاثة إخوة ماتوا بسببها. سيميون إيفانوفيتش حزين وغاضب وفظ، ولا يفارق ياشا. يا إلهي! يا إلهي! ما هذا الذي يحدث لنا؟! ديمتري نفسه لا تكاد قدماه تحملانه؛ أهذه هي السعادة التي جلبتها لنا؟».

«٢٧ مايو. يمضي الوقت بهدوء، وطوال الوقت نتساءل ما إذا كان الأمر سينتهي بالحكم بالموت أم بالرحمة. ليت الأمر يُحسم سريعًا. حالتي الصحية مريعة، فكيف يمكنني تحمل كل ذلك؟ سيميون إيفانوفيتش لا يقول سوى: «انتظرا. انتظرا!». ياشا، يا ملاكي، وداعًا! وداعًا يا صغيري!».

«٢٩ مايو. مر يوم ونصف بصورة أهدأ. انقضت الأزمة. لكن هنا يأتي دور العناية. طوال هذه الفترة كنت في حالة توتر عصبي، والآن أبدأ في الشعور بإنهاك نفسي رهيب. أود لو أتحدث كثيرًا حديثًا قلبيًا. كم يصير التحدث ممتعًا عندما نجد من يفهمنا بعمق ويشعر بنا فعلًا!».

«١ يونيو. كل شيء يمضي جيدًا. يبدو أن هذه السحابة قد مرت هذه المرة بسلام. لعب ياشا معي اليوم لساعتين على فراشه. لقد وهن بشدة حتى صار لا يستطيع الوقوف على قدميه. سيميون إيفانوفيتش، كم هو طيب! كم هو طيب حقًّا!».

«٦ يونيو. هدأ كل شيء. ياشا أفضل كثيرًا، لكني مريضة، مريضة. هذا ما أشعر به. أجلس أحيانًا على فراشه، وبدلًا من أن أشعر بالفرحة أجد فجأة من دون أي سبب خارجي واضح حزنًا جائرًا يتصاعد من أعماق نفسي، ويظل ينمو وينمو، وفجأة يصير ألمًا قاسيًا بليدًا، وأشعر أنني على وشك الموت. وسط هذه الجلبة لم يكن لديَّ وقت لأقضيه بمفردي. مرضي، ومرض ياشا، وكل هذه الجلبة، لم تترك لي لحظة أنفرد فيها بنفسي. لكن ما إن أصير أهدأ وأفضل حتى أجد صوتًا حزينًا مُعذِّبًا يدعوني للنظر إلى داخل قلبي، ولا أعود أعرف نفسي. بالأمس بعد الغداء شعرت بالسوء، وجلست على فراش ياشا، ووضعت رأسي على الوسادة ونمت. لا أعرف ما إذا كنت نمت طويلًا أم لا، ولكنني فجأة شعرت بكآبة، ففتحت عينيَّ، وإذا ببيلتوف واقفًا أمامي، ولم يكن هناك أحد آخر في الغرفة. ذهب ديمتري لإعطاء بعض الدروس. ظل ينظر إليَّ، وكانت عيناه مليئتين بالدموع. لم يقل شيئًا، ومد لي يده وضغط على يدي بشدة آلمتني، ثم رحل. لماذا لم يقل شيئًا؟ أردت أن أوقفه، ولكن لم يخرج الصوت من صدري».

«٩ يونيو. لقد كان عندنا طوال فترة المساء، وكان مسرورًا بدرجة مريعة، وتحدث بحدة ذهن وذكاء شديدين، وقهقه وأثار ضجيجًا، لكني

رأيت بوضوح أن كل هذا كان محض توتر، بل بدا لي أيضًا أنه شرب كثيرًا حتى يستطيع أن يبقى في هذه الحالة. إنه يشعر بالضيق ويخدع نفسه. إنه شديد التعاسة. هل جلبت لنفسه الأسى بدلًا من أن أداويها؟».

«١٥ يونيو. كان الجو خانقًا اليوم وشعرت بالهزال من فرط الحرارة. باقتراب وقت الغداء تجمعت عاصفة رعدية، وأنعشني سقوط المطر، وربما يكون العشب والأشجار قد نالا قدرًا من الانتعاش أكبر مني. خرجنا إلى الحديقة، وكان المنظر في الفناء الخارجي رائعًا، فقد فاحت من الأشجار رائحة نضارة ندية وقوية، وشعرت بالراحة. إنها المرة الأولى التي أتذكر فيها هذا اليوم بصورة مختلفة، فقد كان مليئًا بكل ما هو رائع. هل يمكن أن يكون هناك شيء إجرامي ويمتلئ بالفتنة والسرور والنشوة؟ لقد سرنا على هذا الطريق. كان أحدهم جالسًا على الدكة، وأكملنا سيرنا صوبه. لقد كان هو، وصحت من البهجة عندما رأيته. كان حزينًا جدًّا، وبدت كلماته كلها حزينة، مليئة بالمرارة والسخرية. إنه محق. يختلق الناس بأنفسهم ما يعذبهم، لكنه لو كان أخي ألم أكن حينها سأستطيع أن أحبه صراحة، وأتحدث عن حبي له أمام ديمتري والجميع؟ وقتها لم يكن أحد ليرى أي شيء غريب في ذلك. هو أخي، أنا أشعر بذلك فعلًا. كم كان بوسعنا أن ننظم أمور حياتنا بصورة رائعة؛ أقصد دائرتنا الصغيرة التي تضم أربعة أوجه! عندما عدنا إلى المنزل كان الوقت قد تأخر، وكان الشهر في مطلعه. كان بيلتوف يسير بالقرب مني. يا للقوة المغناطيسية التي لنظرة هذا الإنسان! نظرة ديمتري هادئة ومريحة، كزرقة السماء، أما نظرته فمضطربة وقلقة.

تحدثنا قليلًا. لم نتحدث إلا عند الوداع. قال لي:

- كنت أفكر كثيرًا فيكِ طوال هذا الوقت و... أردت كثيرًا لو أتحدث معك، فثمة أمور كثيرة تعتمل في نفسي.

- وأنا كنت أفكر فيك. وداعًا يا فولديمار!

أنا نفسي لا أعرف كيف خرجت هذه الكلمات من فمي. لم أنادِه من قبل بهذه الطريقة، لكن بدا لي أنني غير قادرة على مناداته باسم آخر. ارتجف فور أن سمع هذا الاسم، ومال إليَّ بهذه الرقة التي يبدو بها أحيانًا وقال:

- أنتِ ثالث من دعاني بهذا الاسم الذي يمكنه أن يسعدني كطفل. سوف يجعلني ذلك سعيدًا ليومين كاملين.

- وداعًا وداعًا يا فولديمار!

هكذا كررت. أراد أن يقول شيئًا وفكر، ثم ضغط على يدي وهو ينظر في عيني ورحل».

«٢٠ يونيو. لقد تغيرت كثيرًا، ونضجت بعد لقائي بفولديمار. لقد أثَّرت طبيعته المتقدة والنشطة، المشغولة دائمًا، على كل الخيوط الداخلية التي تمس جميع جوانب الحياة. يا لقدر الأسئلة الجديدة التي ظهرت في داخلي! كم من الأشياء البسيطة اليومية التي لم أكن أبدي أي اهتمام بها سابقًا، وأجدها الآن تجبرني على التفكير! الكثير من الأمور التي لم أكن أجرؤ على تخمينها أراها الآن بوضوح. بالطبع يتوجب عليَّ في ظل ذلك أن أضحي بالكثير من الأحلام التي تعودت عليها

وأوليتها عنايتي ورعايتي، بل وتمر عليَّ أحيانًا لحظة فراقها المريرة، ثم يصير الأمر أسهل وأكثر حرية. كنت سأشعر بضيق شديد لو رحل. لم أبحث عنه لكن الأمر حدث من تلقاء نفسه. لقد تلاقت حياتانا، وصار فصل الحياتين أمرًا مستحيلًا. لقد كشف أمامي عالمًا جديدًا في داخلي. أليس من الغريب أن هذا الإنسان الذي لم يجد لنفسه في أي مكان عملًا ولا راحة، وظل يجول العالم كله بمفرده، وجد فجأة في هذه المدينة الصغيرة التعاطف من جانب امرأة على مستوى متواضع من الثقافة، شاحبة، بعيدة عن دائرته؟ ربما يحبني كثيرًا. وهل مثل هذا الأمر يكون بإرادتنا؟ علاوة على ذلك، لقد عانى كثيرًا من البرودة وعدم الاكتراث، حتى إنه صار مستعدًّا ليدفع مائة ضعف لينعم بهذا الشعور الدافئ. لم يعد بوسعي أن أتركه وحيدًا وأن أصير غريبة عنه. لو فعلت ذلك فسيكون الأمر ببساطة محض خطيئة، نعم! إنه محق، فلحبه حقوق.

ديمتري ليس في حالة جيدة في الفترة الأخيرة. إنه غارق دائمًا في التفكير، وأكثر شرودًا من المعتاد. صحيح أن هذه السمة موجودة في شخصيته من البداية، ولكن المريع هو أن كل هذا يزداد. حزنه يقلقني، وأحيانًا أشرح الأمر بصورة سيئة».

«٢٢ يونيو. يبدو أنني لم أخطئ. كان ديمتري بالأمس واجمًا جدًّا إلى درجة أني لم أتحمل وسألته عما به. أجاب:

– أشعر بصداع. يجدر بي أن أتمشى.

وتناول قبعته. قلت له:

– فلنذهب معًا.

- لا يا صديقتي، ليس الآن. سوف أسير بسرعة شديدة وسيرهقكِ ذلك.

خرج والدموع في عينيه. لم أتحمل ذلك، وظللت أبكي بمرارة طوال فترة تمشيته. وجدني عند المكان ذاته الذي تركني فيه عند النافذة، وأدرك أنني كنت أبكي فربت بحزن على يدي وجلس. ظللنا صامتين. بعد مرور بضع دقائق قال لي:

- لوبونكا، أتعرفين ما أفكر فيه؟ كم يحلو في ليلة صيفية دافئة كهذه الليلة أن يضع المرء رأسه على ركبتيه في أي مكان في البستان وينام إلى الأبد؟

- الرحمة يا ديمتري! ما هذه الأفكار الكئيبة! ألن تشعر بالأسف على تركك لأي شخص هنا؟

- الأسف؟ بالطبع سآسف عليكِ وعلى ياشا، لكن سيميون إيفانوفيتش يقول إني لا أفعل شيئًا لياشا سوى إفساد تربيته. علاوة على ذلك يا صديقتي، هناك يمكنني أن أتلو صلاة أبدية من أجلكِ كما أفعل هنا؛ صلاة مليئة بالإيمان والأمل، ولا بد أنها ستجد طريقها إليكِ. سوف تشعرين بالأسف من أجلي. أعرف هذا يا صديقتي، فأنتِ طيبة، لكنكِ ستجدين القوة اللازمة لتحمل هذه الصدمة وتمالك نفسكِ.

شعرت بألم غير محتمل لسماع هذه الكلمات، لمست في هذه الكلمات شعورًا سيئًا، وانهمرت الدموع من عينيَّ. ما هذا؟ بدأ يبدو لي أنني من جلبت هذه البلايا إلى حياتنا. في الوقت نفسه كان ضميري صافيًا. أأكون قد أفضيت به إلى هذه الحالة بسبب نقص حبي له، أم... أم

أنه لا يؤمن بي الإيمان الذي كنت أظنه؟ أيمكن أن يكون هناك مكان في نفسه النبيلة لشعور لا أريد أن أذكر اسمه؟ هل يظن أنني توقفت عن حبه وأحببت شخصًا آخر؟ يا إلهي! كيف يمكنني أن أفسر الأمر له؟ أنا لا أحب شخصًا آخر، بل أحبه وأحب فولديمار. إن تعاطفي مع فولديمار مختلف تمامًا. الغريب هو أنه بدا لي أن حياتنا قد هدأت، وأنها صارت تمضي في طريق أوسع وأكمل. وفجأة تنكشف هاوية أمام أقدامنا. آه لو نستطيع البقاء على هذه الحافة! الأمر ثقيل الوطأة. لو كنت قد استطعت أن أعزف جيدًا، جيدًا جدًّا، على البيانو، لأخرجت منه هذه الأصوات المعتملة في نفسي، والتي لا يسعني أن أعبِّر عنها. آه لو كان ديمتري قد فهمني وأدرك أن كل ما في داخلي طاهر! آه يا ديمتري المسكين! أنت تعاني بسبب حبك غير المحدود، لكني أحبك يا عزيزي ديمتري! لو كنت قد صارحته بكل شيء من البداية لما كان كل ذلك قد حدث. أي قوة شريرة منعتني من فعل ذلك؟ ما إن أهدأ حتى أقول وأحكي له كل شيء».

«٢٣ يونيو. يبدو لي أن سيميون إيفانوفيتش قد تغير هو الآخر تجاهي. ما الذي فعلته؟ أنا لا أفهم شيئًا، ولم أفعل شيئًا، ولم يحدث شيء. ديمتري أهدأ حالًا اليوم. تحدثت كثيرًا معه، لكني لم أقل له كل شيء. مرت لحظات بدا لي فيها أنه يفهمني، ولكن بمرور دقيقة أخرى كنت أرى بوضوح أننا ننظر إلى الحياة بطريقة مختلفة تمامًا. أبدأ الآن في التفكير في أن ديمتري لم يكن يفهمني جيدًا من قبل، ولم يكن يتعاطف معي بدرجة كاملة. إنها فكرة مريعة!».

«٢٤ يونيو. نحن الآن في وقت متأخر بالمساء. آه من الحياة! آه من الحياة! وسط الضباب والحزن، ووسط المشاعر المَرَضية والألم الحالي، تشرق الشمس فجأة وتجعل كل شيء منيرًا بهيًّا. ذهب فولديمار الآن، وتحدثنا طويلًا. هو أيضًا حزين، ويعاني الكثير، كما هو واضح من كل كلمة يقولها لي. لماذا يضفي الناس والظروف طابعًا مختلفًا على مشاعر تعاطفنا ويفسدونها؟ لماذا يفعلون كل ذلك؟».

«٢٥ يونيو. بالأمس كان يوم إيفانوف[١٧٠]. كان ديمتري يحضر عيد شفيع أحد زملائه المعلمين. عاد ثملًا في ساعة متأخرة. لم أرَه قَطُّ في مثل هذه الحالة. كان شاحبًا، أشعث الشعر، وقد مضى بخطوات متعثرة إلى غرفة النوم. قلت له:

– أتشعر بالسوء يا صديقي؟ هل أجلب لك ماءً؟

– نعم.

قالها بصوت لاهث من فرط الاضطراب، وبتعبير غريب تمامًا عن شخصيته.

– لو تحضري الكثير من الماء يكفي لأغرق نفسي فيه، أكون شاكرًا لكِ.

نظرت إلى عينيه مباشرة، فضحك.

– لا تستمعي إلى ما أقوله بحق الله.

قال ذلك ربما بعد أن شعر بالخوف من نظرتي.

---

(١٧٠) عطلة سلافية تقليدية احتفالًا بأقصر ليلة في السنة.

– أنا لا أعرف كيف شربت كأسًا إضافية من الخمر. أشعر بسبب ذلك بالحمى والهذيان. عذرًا يا صديقتي، سوف أستريح الآن لبعض الوقت.

وارتمى بكامل ثيابه على الأريكة وسرعان ما غط في نوم ثقيل. لم أنم طوال الليل، وقد ارتسم تعبير معاناة عميق على وجهه النائم، وأحيانًا كان يبتسم، لكنها لم تكن ابتسامته. لا، لن تخدعني يا ديمتري. أنت لم تشرب كأسًا زائدة مصادفة، ولم تكن كلماتك هذيانًا، بل إن الخمر أكسبتك قسوة لم تكن في نفسك. ما هذا الذي سقط على رؤوسنا يا إلهي الرحيم؟! هذا فوق مستوى احتمال القوى البشرية! هذا صعب عليك يا ديمتري المسكين! أنا أيضًا يمكنني أن أرى عذاباته، وأني أنا السبب في جميعها».

«بعد ثلاث ساعات: لا يمكنني بعد أن أعيد النظام إلى شيء، وكل شيء غائم في نفسي، كما يحدث بعد عاصفة، حيث لا تستطيع الأمواج أن تهدأ. الدم ينبض بقوة في عروقي، وقلبي يدق بعنف يكاد يمزق صدري. ديمتري، ليست خطيئة أن تشفق عليَّ وتحاول فهمي. كيف يمكنك أنت المسكين أن تعاني من هذا؟ فلتداوِه يا سيدي، فلتداوِه. آه، كم تدور رأسي وتتقد! هل هي الحمى مجددًا؟ كنت أتحدث مع ديمتري. طلبت منه أن يفسر لي سبب حزنه وأفعاله وكلماته. نعم، لم يعد يؤمن بي، ولن يفهم أبدًا ما يعتمل في داخلي. هذا أمر مريع، لأنني لا أستطيع تغييره بأي شكل. لقد اكتنف الضباب كل شيء، وثمة رعشة وألم في صدري. لماذا التقيت بفولديمار؟».

«٢٦ يونيو. كم يبدو كل شيء غريبًا ومشوشًا في مفاهيم الناس! تفكر أحيانًا ولا تعرف ما إذا كان عليك أن تغضب أم تضحك. خطر على بالي اليوم أن الحب القائم على إنكار الذات هو أعظم أنواع الأنانية، وأن أعلى درجات الاتضاع والوداعة هي كبرياء رهيبة وقساوة خفية. ارتعبت من هذه الأفكار، فقد اعتبرت الفتاة الصغيرة التي كنتها مسخًا حين لم تستطع أن تحب جلافيرا لفوفنا وألكسي أبراموفيتش، فماذا عليَّ أن أفعل إذن؟ وكيف أدافع عن نفسي ضد هذه الأفكار؟ لست طفلة. ديمتري لا يدينني ولا يلومني، ولا يطلب شيئًا مني. لقد صار أرق، ولكن... في هذه الـ«لكن» هناك شيء واضح، كما يلوح أن أمرًا ما غير طبيعي، وهذا يُعتبر بالنسبة لي نوعًا من الكبرياء، وإذلالًا لي وابتعادًا عن الفهم. إنه يعاني بشدة، ولكن ماذا يُقال عن هذه المرأة التي تجلب الهلاك من أجل الحب؟ يا إلهي! وهل أردتُ ذلك؟! كنت أتحدث معه من قبل بقدر أكبر من الصراحة، فهل كنت امرأة أخرى؟ يبدو وكأنه يتنازل، ولكن في الآن ذاته يتراكم في نفسه شيء مختلف تمامًا لا يمكنه السيطرة عليه».

«٢٧ يونيو. تحول حزنه إلى نوع من اليأس لا سبيل إلى الفكاك منه. في هذه الأيام التي تلت حواراتنا الحزينة مرت لحظات أكثر إشراقًا بقدر ما، أما الآن فلم يعد الأمر كذلك. لا أعرف ما العمل. صرت منهكة. تطلب الأمر الكثير ليفضي بهذا الإنسان المتواضع إلى اليأس. لقد أفضيت به إلى ذلك، ولم أستطع صون هذا الحب. لم يعد يصدق

كلمات حبي له. إنه ينهار. يجدر بي أن أموت الآن، في التوِّ واللحظة، يجب أن أموت الآن!

أبدأ الآن في احتقار نفسي، بل والأسوأ من ذلك، وأكثر ما لا يمكن فهمه، هو أن ضميري هادئ. لقد وجَّهت ضربة مفزعة لإنسان كرَّس حياته كلها من أجلي، وهو إنسان أحبه، وكل ما أعيه هو أني تعيسة. يبدو لي أنه كان من الأسهل لو شعرت أني مجرمة. لو حدث ذلك لاندفعت حينها عند قدميه، وطوقت ركبتيه بذراعي، ولكفَّرت بتوبتي عن كل شيء. التوبة تمحو كل البقع داخل النفس، وهو شديد الرقة إلى درجة أنه لم يكن ليستطيع مقاومة ذلك، وكان سيسامحني، وحينها كنا سنصير أكثر سعادة بعد أن جلبنا المعاناة لأنفسنا. ما هذه الكبرياء اللعينة التي لا تسمح لصاحبها بأن يشعر بالندم في داخله؟ أريد الآن لو أكون وحدي في مكان ما بعيد، وآخذ ياشا وحده. أود لو أتسكع في مكان ما بين أناس غرباء، وحينها سأزداد قوة. آه يا صديقي! كنت لأبذل من أجلك دمائي حتى آخر قطرة لو استطعت وأردت أن تفهمني. كم كان من الممكن أن يصير الأمر حينها حسنًا! ستسقط ضحية لسوء فهمك الجذل، وسأمضي خلفك صوب هذه الهاوية. سأمضي خلفك لأنني أحبك، ولأن القوى الشريرة السفلية اختارتني لإتمام هلاكك. يبدو لي الآن أن كلمتين أو ثلاثًا مع فولديمار من شأنها أن تداويني، وأخشى السعي إلى فرصة للقائه. هذا ما فعلته الإشاعات! لقد استطاعت أن تلقي الخوف في قلبي، وتُنحِّي شعورًا مشرقًا ونبيلًا. دعهم يقولون ما يقولون! قرأ عليَّ سيميون إيفانوفيتش عظة بصورة غير مباشرة. آه يا سيميون الطيب!

شعرت بالأسف الشديد عليه. إنه لا يفهم شيئًا، ويتحدث عن الواجبات المقدسة للأم. ألم يخطر على باله قَطُّ أنني كنت أفكر أحيانًا في ذلك؟ تَدخُّل الناس أكثر إهانة من برودتهم. تَعتبر الصداقة أن أفضل حقوقها هو أن تربط صديقك بعمود التشهير[١٧١]، ثم يطلبوا منك تنفيذ النصائح مهما كانت النصائح منفرة لمن يوجهونها إليه. يا لضحالة كل ذلك! أف! يبدو الأمر خانقًا كما لو أن المرء قابع في غرفة ضيقة، وكل نوافذها مغلقة، والذباب يطير من حولك أيضًا!».

لو لم يكن بيلتوف قد جاء إلى مدينة (ن. ن) لعاشت أسرة ديمتري ياكوفليفيتش بالطبع أعوامًا عديدة سعيدة وهادئة، ولكن هذا لا يجلب لنا العزاء. حدث لي شخصيًّا أن سرت ذات مرة بجانب بيت محترق قد اسودَّ من دخان الاحتراق، وتكسَّرت كل إطارات نوافذه، وبرزت أنابيبه، وقلت في نفسي: لو لم تندلع الشرارة لما اشتعلت هذه الشعلة التي أحرقت المنزل، ولعمَّر المنزل أعوامًا طويلة، ولاستمر أصحابه في صنع الولائم والمرح، أما الآن فهو كومة من الأحجار.

في الواقع لقد انتهت قصتنا، ويمكننا أن نتوقف هنا، وندع القارئ يجيب بنفسه عن سؤال: «من المذنب؟»، ولكن هناك بعض التفاصيل الأخرى التي تبدو لنا مثيرة، فاسمحوا لي بعرضها. فلنتوجه أولًا إلى كروتسيفيرسكي المسكين.

بعد مرض زوجته لاحظ كروتسيفيرسكي سريعًا أن ثمة فكرة

---

(١٧١) أداة كانت تُستخدم قديمًا للعقاب البدني بحكم قضائي بتعريض الشخص للسخرية والإذلال العام.

ما تشغلها بشدة. كانت شاردة طوال الوقت ومضطربة. وكان هناك شيء ما في وجهها أكثر فخرًا وقوة من الماضي. خطرت على بال كروتسيفيرسكي تفسيرات مختلفة للأمر، وهي تفسيرات غريبة وغير محتملة، وكان يسخر منها في داخله، لكنها ظلت تحوم حول ذهنه.

جلس ذات مرة مع ياشا، وفجأة سُمع دق على باب ردهة الاستقبال، وسأل أحدهم: «هل أنتم بالمنزل؟». قال كروتسيفيرسكي: «هذا بيلتوف». ورفع عينيه ليرى الحمرة الخفيفة التي ارتسمت على وجه لوبوف ألكسندروفنا، ونظرتها التي صارت حيوية، والتي لم تكن هكذا معه. ارتجف وتمتم بشيء ما. كان يعرف جيدًا أن زوجته كانت على علاقة صداقة قوية ببيلتوف، ولم يدهشه ذلك في أي شيء، ولكن هذه النظرة، هذه الحمرة التي كست وجهها! قال في نفسه: «هل يمكن هذا؟». وراقب ما يحدث. كان بيلتوف يداعب ياشا، ولكن يا لها من نظرة مليئة بالرقة والحنان والشغف وجَّهها إلى الأم! حتى الأعمى كان سيدرك الحب في مثل هذه النظرة؛ الحب المتقد، بل والأكثر من ذلك أنه حب سعيد. أخفضت عينيها ووقفت مرتعشة اليدين قليلًا، ولاحت في أفضل حال. بعد أن قال ديمتري ياكوفليفيتش بضع كلمات خرج إلى الغرفة الأخرى. سأل نفسه: «هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًا؟». وكان مذعورًا. سادت الفوضى في رأسه، وتعالى الضجيج في أذنيه، حتى إنه جلس سريعًا على الفراش. ظل جالسًا لنحو خمس دقائق لم يفكر فيها في شيء، وشعر أنه في حالة ارتباك ثقيلة الوطأة. خرج من غرفته ودخل غرفتهما. كانا يتحدثان بود وتعاطف إلى حد أن بدا له

أن وجوده غير ضروري لهما على الإطلاق. ظل يذرع الغرفة ويتذكر مختلف التفاهات التي كان من الصعب أن يوليها انتباهه، لكنها تظهر الآن أمامه كأدلة وإثباتات. عندما انصرف بيلتوف، رافقته وابتسمت له، ويا لها من ابتسامة! «نعم، إنها تحبه». ما إن وعى هذه الفكرة حتى بدأ يحاول دفعها عنه بهلع، لكنها ظلت تعانده وتخرج إلى السطح، واستولى عليه يأس كئيب مجنون. «هذه هي هواجسي! ما العمل؟ أنتِ، أنتِ لا تحبينني؟!». أخذ يمزق شعر رأسه ويعض شفتيه، وفجأة انفتحت في نفسه الطيبة والرقيقة هوة مفزعة رهيبة من الضغينة والكراهية والحسد والرغبة في الانتقام، وبالإضافة إلى ذلك وجد في نفسه القوة اللازمة لإخفاء كل ذلك. حلت ليلة أراد فيها أن يبكي، لكن الدموع لم تطاوعه. غالب النوم عينيه لدقائق، لكنه سرعان ما استيقظ شاعرًا ببرودة شديدة تكتنفه. لقد حلم ببيلتوف يقود لوبوف ألكسندروفنا من يدها والحب يملأ عينيه، وهي تسير معه ويدرك أن هذا سيستمر إلى الأبد، ثم يظهر بيلتوف مجددًا وتبتسم له ويبدو كل شيء مخيفًا، فينهض من نومه. لاح الفجر في الفناء، ونامت وبدا الهدوء على وجهها. أحيانًا يكتسب وجه النائم فتنة خاصة مؤثرة. في هذه اللحظة كان وجه لوبوف ألكسندروفنا ماثلًا بهذه الصورة فعلًا، ثم ارتسمت فجأة ابتسامة على شفتيها. «إنها تحلم به»، قالها كروتسيفيرسكي في نفسه وهو ينظر إليها مملوءًا بالكراهية والضغينة التي كان من الممكن - لولا أنه تميز بالعادات السلمية لقرننا - أن تدفعه إلى أن يخنقها في أسوأ مستنقع فينيسي. لكن الروايات المأساوية لا تنتهي عندنا بهذه الحدة. «أهذا ما تقدمه لي مقابل

حبي اللا محدود؟ آه! يا إلهي! يا إلهي! أهذا مقابل حب كهذا؟». هكذا ظل يكرر كما لو أنه يود أن يبتعد عن نفسه وعن هذه الإغواءات المريعة. اقترب من الفراش الصغير. وجد باشا مستلقيًا وقد وضع يده الصغيرة تحت خده واستغرق في النوم. فكر وهو واقف أمامه: «سرعان ما ستصير يتيمًا يا باشا المسكين، لن أعود والدك، ولا يمكنني تحمل ذلك ولا أريد. آه أيها الطفل المسكين! إني أستودعك في حماية نصير كل الأيتام. كم يشبه أمه!». وانخرط في البكاء. الدموع والصلوات ومنظر باشا الهادئ هدأوا من معاناته. ظهرت مجموعة من الأفكار الأخرى في نفسه الرقيقة: «ولكن هل أنا محق في إدانتها؟ وهل أرادت أن تحبه؟ علاوة على ذلك هو... ألستُ أنا أيضًا معجبًا به؟». وفجأة قرر حالمنا المتحمس، والذي صار الآن غيورًا بجنون، وزوجًا قاسيًا، أن يصمت بإنكار ذات. «فلأتركها تنعم بالسعادة وتعرف مدى حبي الإيثاري، وتكفيني رؤيتها ومعرفة أنها موجودة. سوف أصير بمثابة شقيق وصديق لها!». وانخرط في البكاء من فرط التأثر، وصار أفضل حالًا عندما قرر القيام بهذه المأثرة البطولية وإنكار ذاته بدرجة غير محدودة. لقد ألهى نفسه بالتفكير في أنها سوف تتأثر بشدة بتضحيته، لكنها كانت مجرد لحظات توتر نفسي. لقد أُنهك في غضون أسبوعين وانهار تحت وطأة هذا الحمل.

لن ندينه؛ فمثل هؤلاء الفاضلين غير الطبيعيين الذين ينتوون التضحية بذواتهم بدرجة تفوق طبيعة الإنسان العادية، يعيشون القطاع الأكبر من حياتهم في نطاق الخيال لا الواقع. فعل ذلك لبضعة أيام،

لكن الفكرة الأولى التي أضعفت بطولته كانت باردة وضيقة الأفق: «إنها تعتقد أني لا أرى شيئًا. إنها تتخابث، إنها تتصنَّع». عمن كان يفكر بهذه الطريقة؟ كان يفكر في المرأة التي أحبها واحترمها، والتي كان من المفترض أن يكون قد عرفها، لكنه لم يعرفها جيدًا، ثم بدأ حزنه الداخلي يأكله بنفسه، وبدأ يظهر في كلماته، لأن الكلمات تخفف حدة الحزن، وقد أدى ذلك إلى تفسيرات لم يستطع هو أو لوبوف ألكسندروفنا أن يتوقفا عندها، ولم يودا حتى أن يفعلا ذلك. صار يشعر بضيق شديد بعد التحدث معها، وصار يتجنب أن يكونا معًا بمفردهما، والعين في العين، وفي الآن ذاته كانا دائمًا معًا تقريبًا في حياتهما النسكية هذه. حاول أن يزيد مشغولياته، ولكن لم يستطع ذهنه أن ينشغل بالعلم، ولم يكن قادرًا على الاستغراق في القراءة؛ فما إن يقرأ حتى يجد مخيلته قد بعثت ذكريات مشرقة من الماضي، وكانت الدموع تنهمر كثيرًا على صفحات مقالة علمية ما. انكشف فراغ ما في نفسه، وكانت حدوده تتحرك في كل لحظة بحيث استحال العيش مع مثل هذا الفراغ. صار يبحث عما يشتته. رأينا في دفتر يومياتها الحالة التي عاد بها مساء يوم عيد القديس إيفان من عند صديقه المعلم ميدوزين.

لنأخذ استراحة من هذه المواضع المثيرة للشفقة، ونمضي إلى محادثة ميدوزين العلمية، ونبدأ بما لا يمكننا أن ندخل من دونه إلى هذا الموضوع؛ أي لنتعرف إلى هذا السيد المبجل. سيكون هذا التعارف ممتعًا، مما يدفعنا إلى أن نخصص له فصلًا جديدًا.

-٦-

كان إيفان أفاناسيفيتش ميدوزين معلم اللغة اللاتينية ومدير إحدى المدارس الخاصة من أروع الناس، ولم يكن يشبه على الإطلاق الميدوزا[١٧٢] من الناحية الظاهرية لأنه كان أصلع، ولا كان يشبهه داخليًا لأنه لم يكن مليئًا بالضغينة، بل بالنقيع. لقد أسموه «ميدوزين» في معهد التعليم الثانوي لعدة أسباب، أولًا: من الضروري أن يطلقوا عليه اسمًا ما. ثانيًا: لأن شعر العالِم المستقبلي كان عبارة عن خصلات منفردة اتسمت بكثافة غير عادية، بحيث يمكن للمرء أن يظن أنها أسلاك، لكن قوة الزمن الساحقة والريح كانتا تُطيرانها. بالإضافة إلى اسم الشهرة الأسطوري العذب هذا، نال إيفان أفاناسيفيتش من معهد التعليم الثانوي هذا التعليم الراسخ الذي يبقى عادة مع طلبة هذه المعاهد حتى اليوم الأخير في حياتهم، ويدمغهم بطابع فريد، يمكننا أن نعرف بفضله أي طالب معهد ثانوي سابق، أيًا كان ما يرتديه. لم تكن الأخلاق الأرستقراطية سمات خاصة بميدوزين، فلم يستطع قَطُّ أن يخاطب التلاميذ بضمير الجمع، ولم يكن يضيف كلمات إلى الحوار

(١٧٢) القنديل البحري بالروسية. اسم المعلم مشتق من الكلمة ذاتها.

لا تُستخدم سوى قليل في المجتمع الراقي. كان إيفان أفاناسيفيتش في الخمسين من العمر. في البداية كان معلمًا خاصًّا في منازل مختلفة، ووصل أخيرًا إلى إدارة مدرسته الخاصة. كان هناك أحد المدرسين من زملائه، وكان أيضًا خريج المعهد الثانوي يُدعى كافيرناومسكي، وتميز بحقيقة أنه لم يتعرق منذ ولادته، وأنه في درجة حرارة ثلاثين تحت الصفر كان يجفف نفسه دائمًا، وفي درجة حرارة ثلاثين تظهر نقطة عرق واحدة على وجهه. بعد أن التقى بإيفان أفاناسيفيتش في الفصل قال له عمدًا في وجود شهود:

- يبدو أن عيد شفيعك يا إيفان أفاناسيفيتش يقترب لو لم أكن مخطئًا. سنحتفل به بالطبع، فهل هناك أي مانع؟

- سوف نرى يا صديقي الكريم، سوف نرى.

هكذا أجاب إيفان أفاناسيفيتش وابتسامة ترتسم على وجهه، وقد قرر هذه المرة أن يقوم بشيء أفخم من مجرد الاحتفال بعيد شفيعه.

لم يكن منزل إيفان أفاناسيفيتش ملائمًا. صحيح أنه عاش ١٥ عامًا متواصلة في (ن. ن)، ولكن يمكن للمرء أن يظن أنه لم يصل إلى المدينة إلا بالأمس، ولم يكن لديه الوقت ليُعد أي شيء. لم يكن ذلك عائدًا إلى بخله بقدر ما كان عائدًا إلى الجهل التام بطبيعة الأمور التي يحتاج إليها إنسان يعيش في مجتمع. في أثناء استعداده لتنظيم الحفل فحص منزله، وتبين له أن لديه ستة فناجين شاي، وقد تحول اثنان منهم إلى طبقين لحفظ الثلج بعد أن انكسرت ذراع كل منهما، ولم تكن لديه سوى ثلاثة صحون فناجين، وكان لديه سماور وبضعة أطباق تهتز على الطاولة لأن

الطاهية اشترتهم من مكان يبيع أغراض سيئة كالنفايات، وطبقان لحفظ الثلج كان ميدوزين يطلق عليهما بتواضع «كوبَي الفودكا»، وثلاثة غلايين مسدودة بالقذارة، ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك حتى لا تمر الريح عبرها. كان هذا كل ما لديه. كان قد دعا جميع معلمي المدرسة، وظل يفكر طويلًا كيف يتصرف، وأخيرًا استدعى طاهيته بيلاجيا (ولاحظوا أنه لم يدعُها قَطُّ بالاجيا[١٧٣] كما يُفترض، بل بيلاجيا).

كانت بيلاجيا زوجة لأحد الجنود الشجعان الذين ذهبوا إلى الجيش بعد أسبوع من الزفاف، ومنذ ذلك الحين لم يجد وقتًا لا للعودة، ولا لكتابة خبر عن موته، ومن ثَم ترك بيلاجيا في وضع حرج للغاية كأرملة يُشتبه في إمكانية أن يكون زوجها حيًّا. لديَّ ألف سبب لأظن أن بيلاجيا السمينة، طويلة القامة، التي تربط وشاحًا حول رأسها، والمزينة بالثآليل، وذات الحاجبين القاتمين للغاية، لم تكن تسيطر على مطبخ ميدوزين وحسب، بل وعلى قلبه أيضًا، لكني لن أذكر هذه الأسباب لأن أسرار الحياة الخاصة تمثل بالنسبة لي أمرًا مقدسًا. جاءت بيلاجيا، ووضح لها موقفه الصعب. قالت بيلاجيا:

– يا لها من مكيدة حتى لعالِم مثلك! فليسامحني الله، ولكن كيف يمكن لصبي صغير أن يُسمِّي حشدًا كبيرًا، وكيف يمكن لعشرة كوبيكات ألا تُسرق في الميناء! ماذا سنفعل الآن؟ سوف يبدو هذا المكان بالنسبة لنا كمكان محترق.

---

(١٧٣) الكلمة بالروسية تعني قنديل البحر المضيء.

عارضها ميدوزين بصوت مرتفع:

- بيلاجيا، لا تعولي على قوة صبري. أريد الاحتفال بعيد الشفيع مع الأصدقاء. أريد ذلك وسوف أفعله، ولا يمكنني احتمال اعتراضات النساء.

كان من الممكن أن يُلاحظ هنا تأثير شيشرون للجميع، ولكن بيلاجيا المتحمسة للعطلة لم تفكر في شيشرون.

- سوف ألتزم الصمت بالطبع. يمكنك أن تفعل ما تريد، حتى لو ألقيت المال من النافذة لتسلي نفسك. أعطني ٥٠٠ روبل وسوف أشتري كل شيء عدا الخمور.

كانت بيلاجيا تعرف جيدًا أن ميدوزين لم تعجبه هذه الإجابة، ولذلك بمد أن قالتها سندت بإحدى يديها اليد الأخرى الموضوعة على وجنتها بشعور عميق بالجدارة الذاتية، وانتظرت رد الفعل الذي ستثيره إجابتها.

- ٥٠٠ روبل من أجل هذا الهراء؟! نعم هذا ما تريدينه؛ أن تستغلي الموقف. ٥٠٠ روبل من دون حساب الخمور؟ ما هذا الهراء؟! امرأة غبية! لا يمكنكِ أن تُسدي نصحًا أبدًا. اذهبي إلى الأب جوانيكي وادعيه ليأتي في الرابع والعشرين من الشهر، واطلبي منه أن يأتي بأدوات مائدة من أجل الأمسية.

- سوف نتسكع إذن في الساحات استجداءً لأدوات المائدة!

- بيلاجيا! أتعرفين هذا الشخص؟

هكذا سألها ميدوزين، مشيرًا إلى عصا خشنة في الزاوية.

ما إن سقطت عينا بيلاجيا على هذه الشخصية التي تعرفها جيدًا حتى مضت سريعًا إلى المطبخ وارتدت مئزرها ووشاحها الحريري، ثم توجهت إلى الأب جوانيكي وهي تدمدم. أما ميدوزين، فجلس إلى مكتبه وقضى ساعة في تفكير عميق، وفجأة توصل إلى شيء. اختطفت يده الورقة وكتب بعض الأشياء. ربما تظنون أنه كتب تعليقات على الإلياذة أو على كتاب مختصر التاريخ ليفتروبيفا، لكنكم مخطئون. هذا ما كتبه:

١- علم النحو والمنطق الروسيين. (استخدمته كثيرًا)

٢- تاريخ وجغرافيا. (استخدمتهما بما يكفي)

٣- الرياضيات البحتة. (سيئ فيها)

٤- اللغة الفرنسية. (كروم كثيرة)

٥- اللغة الألمانية. (كثير من الجعة)

٦- الرسم وفن الخط. (صبغة واحدة)

٧- اللغة اليونانية. (الجميع يستخدمونها)

بعد هذه الملاحظات كتب إيفان أفاناسيفيتش البرنامج الخاص به:

دلو من نبيذ سانتوريني. ١٦ روبلًا.

نصف دلو نقيع. ٨ روبلات.

نصف دلو جعة. ٤ روبلات.

زجاجتا عسل. ٥٠ كوبيكًا.

١٠ زجاجات من سمك الكراكي. ١٠ روبلات.

٣ زجاجات جامايكي. ٤ روبلات.

عُشر دلو فودكا حلوة.

المجموع: ٤٥ روبلًا.

كان ميدوزين سعيدًا بهذه الحسبة، فلم يكن الثمن مرتفعًا بالنسبة له، وفي الآن ذاته ستكون هناك وفرة من الشراب. علاوة على ذلك خصَّص مبلغًا كبيرًا لشراء سمك الحفش من أجل الفطائر، ولحم خنزير وكافيار وليمون وسمك مملح وتبغ للتدخين وكعك بالعسل والنعناع، والصنف الأخير لم يكن من الضروريات، بل لمجرد الترف.

وصل الضيوف في السابعة. في التاسعة كان المطر ينهمر بقوة بالفعل. في العاشرة كان مدرس الجغرافيا يتحدث مع مدرس اللغة الفرنسية عن موت زوجة الأخير، وانفجر ضحكًا، ولم يستطع أن يفهم على الإطلاق ما الذي كان مضحكًا على وجه التحديد في موت هذه المرأة المبجلة، لكن أكثر الأمور وضوحًا كانت أن هذا الأرمل الفرنسي الذي لا يُطاق انفجر ضحكًا هو الآخر بينما ينظر إليه، بالرغم من أنه لم يشرب سوى كأس واحدة. ضرب ميدوزين بنفسه مثالًا للضيوف؛ ظل يشرب بلا توقف كل ما كانت تقدمه بيلاجيا إليه، سواء كان شراب البنش أم جعة أم فودكا أم نبيذ سانتوريني، بل إنه نجح أيضًا في تناول كأس من العسل الذي لم يكن هناك منه سوى زجاجتين. في

وجود مثل هذا التشجيع لم يتخلف الحضور عن سيد البيت. وحده كرونسيفيرسكي الذي دعاه سيد البيت بهدف الفخر نظرًا لانتمائه إلى الشريحة المثقفة العُليا من سكان المدينة، لم يشارك في هذا الضجيج والفوضى، بل جلس في أحد الأركان وظل يدخن غليونًا. أخيرًا وقعت عليه نظرة سيد البيت الحادة.

– ديمتري ياكوفليفيتش، أتود شرب بعض البنش ممزوجًا بعصير الليمون؟ ما لك تجلس وحدك خافضًا رأسك، بعيدًا عن الآخرين؟

– أنت تعرف يا إيفان أفاناسيفيتش أنني لا أشرب أبدًا.

– أعرف يا عزيزي، لكني لا أريد أن أسمع منك هذا الهراء. في وجود الأصدقاء عليك أن تشرب وتنخرط في حديث وُدي. بيلاجيا! ائتيني بكأس بنش قوية جدًّا.

ربما أدلى سيد البيت بالملاحظة الأخيرة على أساس أن كروتسيفيرسكي لم يُرِد أن يبدو ضعيفًا.

جلبت بيلاجيا كأس فودكا لا شك أن شريحة ليمون ماتت فيها من فرط السُّكر، وسقطت بضع قطرات شاي صغيرة في الكأس. تناول كروتسيفيرسكي الكأس ليتخلص من صاحب البيت، أملًا في أن يجد الفرصة الملائمة لسكب ثلاثة أرباع الكأس من النافذة. لم يكن الأمر بهذه السهولة، لأن ميدوزين جلس بالقرب من كروتسيفيرسكي بعد أن أجلس أحدهم معه للعب البسطن.

– أقول لك بصدق يا ديمتري ياكوفليفيتش إنني أشعر بالود الشديد تجاهك، وها هي السنون تمر وأنت داخل منزلك المغلق. أعرف بالطبع أن لديك زوجة شابة، ولكن عليك النظر إلى الأمور من منظور آخر. حسنًا يا ديمتري ياكوفليفيتش، سأُقبِّلك على ذلك.

ومن دون أن ينتظر إذنًا، وبالرغم من أنه قد فاحت منه الرائحة التي تنبعث بالضبط من باب أي حانة مفتوحة، طبع قبلة بشفتيه السمينتين على وجنة كروتسيفيرسكي. وبعد ذلك، ومن دون أن ينبس بشفة، عانق ديمتري ياكوفليفيتش وكافيرناومسكي الذي تنهمر منه جداول من العرق. أراد أن يجفف وجهه من دون أن تبدر منه إساءة واضحة لزميل فترة شبابه، ومن ثَم مضى كروتسيفيرسكي صوب إحدى الزوايا، وأخرج منديلًا. كان واقفًا في ظهره الأرمل البائس معلم اللغة الفرنسية بصحبة جوستاف إيفانوفيتش معلم اللغة الألمانية، والذي كان في هذه اللحظة يملأ كأسه بالجعة على آخرها، ويدخن غليونًا. لكن لا هذا ولا ذاك لاحظ كروتسيفيرسكي، ومن ثَم واصلا حوارهما بصوت مبحوح. غني عن القول بالطبع أن كروتسيفيرسكي لم يتعمد قَطُّ الاستماع إلى حديثهما، ولكن اسم «بيلتوف» الذي نُطِق بصوت عالٍ كفاية بالقرب منه أجبره على أن يرتجف وينصت للحوار تلقائيًّا.

قال معلم الفرنسية بطريقة سوَّى فيها تقريبًا كل الحروف الروسية:

– إنه نفس البيدق القديم، وإذا لم يواجه آدم مصيره فهذا يعود إلى أنه كان الرجل الوحيد في جنة عدن.

أجاب جوستاف إيفانوفيتش:

- تعم، تعم! هذا المدعو بيلجتوف... إنه دون كوان[١٧٤].

وفي غضون دقيقة تعالت ضحكة صاخبة، وكان الرجل قد قضى هذه الدقيقة في تفكير عميق - بحسب العرف الألماني - فيما قاله مدرس الفرنسية عن آدم حتى فهم المقصود في النهاية. تعالت ضحكة جوستاف إيفانوفيتش، وأضاف برضا تام بينما يخرج ريشة من غليونه والكلمات تتشبث بأسنانه الألمانية: «فهمت المقصود. جيد جدًّا» (بالألمانية - المترجم).

ولكن هذه القصة لم تكن هي التي أحدثت أعظم تأثير على هذا الإنسان الذي لم يسمعها تقريبًا؛ أي كروتسيفيرسكي. ماذا يعني هذان الاسمان الموضوعان إلى جانب بعضهما بعض؟ كيف لهذا السر الرهيب الذي لم يجرؤ على التفكير فيه إلا بصعوبة، ولم يستطع أن يعترف به، أن يصير مادة للثرثرة والنميمة؟ هل قالا ذلك حقًّا؟ نعم، بالطبع قالاه، وهما لا يزالان واقفين في المكان نفسه، ويواصل جوستاف إيفانوفيتش القهقهة. بدا لكروتسيفيرسكي أن شيئًا قد انفجر في صدره، وأنه قد امتلأ بالدماء، وهي تعلو أكثر فأكثر، وسرعان ما ستتدفق من فمه. دار رأسه وبدأت الأضواء تتقافز أمام عينيه، وخشي أن تلتقي نظراته بنظرات شخص ما، كما خشي أن يسقط على الأرض، فاستند إلى الحائط. فجأة أمسكته يد ثقيلة من كمه، ففكر في نفسه «ماذا سيحدث أيضًا؟».

قال إيفان أفاناسيفيتش، ممسكًا بإحدى يديه بكروتسيفيرسكي من كمه، وبالأخرى بكأس البنش:

---

(١٧٤) خطأ متعمد في التهجئة من الكاتب ليبين طريقة نطق المتحدث.

- لا يا عزيزي ديمتري ياكوفليفيتش! لا يمكنك أن تتوارى في إحدى الزوايا وتظن أنك على حق. لديَّ قانون: تأخذها أو لا، هذا اختيارك، ولكن إذا أخذتها فلا بد أن تشربها.

فهم كروتسيفيرسكي الذي ظل محدقًا ومنصتًا لفترة طويلة للطريقة التي كان جوستاف إيفانوفيتش يدرس بها ملاحظة معلم الفرنسية أخيرًا على نحو غائم، ما يحدث، وتناول الكأس وشربها في مرة واحدة وانفجر ضاحكًا.

- هكذا أحب الأمر. يمكننا أن نضيف نخبًا. تُرى أي نخب؟ لكن أن تقول لي لا أشرب فهذا مجرد خبث منك. حسنًا يا ديمتري ياكوفليفيتش، فلتشرب كأسًا أخرى. بيلاجيا!

وأضاف ميدوزين وهو يسحب من كأس كروتسيفيرسكي قطعة الليمون بلباقة:

- فلتأتينا بكأس بنش أخرى أقوى! أتشرب؟

- لنشرب.

- برافو! برافو!

السبب الوحيد الذي جعل ميدوزين لم يُقبِّل كروتسيفيرسكي هنا هو أن فمه كان مشغولًا بقطعة الليمون التي كان يتناولها مع الجلد والعظام، وأضاف تعليقًا توضيحيًا:

- يكون الطعم الحمضي رائعًا عندما يُزال الجزء السفلي.

أتت بيلاجيا بالبنش، وشربه كروتسيفيرسكي كما لو أنه كأس

ماء. لم يلحظ أحد أنه كان شاحبًا كالشمع، وأن شفتيه الزرقاوين كانتا ترتعشان، ربما لأنه بدا للضيوف أن الكرة الأرضية برمتها ترتعش.

في هذه الأثناء، وبينما كانت الأمور تأخذ هذا المنحى المندفع، جلبت بيلاجيا التي لا تكل ولا تمل صينية وضعتها على طاولة صغيرة تحوي دورقًا وكؤوسًا ذات قواعد، وأحضرت بعد ذلك طبق سمك مملح وبصلًا. بالرغم من أن السمك المملح كان مُقطَّعًا بالعرض، إلا أنه لم يخلُ من عمود فقري أو أضلاع؛ الأمر الذي أضفى عليه مذاقًا لاذعًا للغاية. انتهى اللعب بخسارة صغيرة وألفاظ نابية شديدة بين الحضور الذين لعبوا معًا دور بوسطن كاملًا. كان ميدوزين من الرابحين، ومن ثَم كانت روحه المعنوية في أفضل حالاتها. صاح:

- إنه الكمال! الكمال! فلنذهب ببركة الله ونتناول كانتافريسني!

كان إيفان أفاناسيفيتش يدعو النقيع دائمًا كانتافريسني، أما سبب ذلك فهو أمر غير معروف، لكني أفترض أنه فعل ذلك لوفرة ودقة المصادر اللاتينية عنده.

توجه الضيوف صوب الطاولة.

- ديمتري ياكوفليفيتش! أظن أنك لن ترفض تناول النقيع، أليس كذلك؟

- ائتني بالكانتافريسني.

هكذا أجاب كروتسيفيرسكي وقد ازدرد كأسًا ضخمة من البنش

أفسدته مختلف أنواع الأعشاب ذات المذاق المقزز، والمفيدة للمعدة في ظن السذج.

كانت بهجة الحضور لا توصف، ولكن بيلاجيا جلبت كميات خرافية من الفطائر المحشوة بسمك الحفش. أفترض أننا تعرفنا بما يكفي على الشخصيات المشاركة في وليمة بلشاصر[١٧٥] التي دعاها ميدوزين ليحتفلوا معه بعيد شفيعه، إلا أني لا أجد ضرورة لمواصلة هذا الوصف لأؤكد للقراء أن مراسم هذا العيد استمرت في الاتجاه ذاته، وطبقًا للأسس عينها.

في اليوم التالي خاض كروتسيفيرسكي حوارًا طويلًا مع لوبوف ألكسندروفنا. رفعت عينيها إليه بكبرياء، بكبرياء تتعذر بلوغها. كان قادرًا على فهمها وتقديرها، ولكن شيئًا ما حال بينهما، وربما الفكرة المريعة التي مفادها: «إنهم يتحدثون عن ذلك»، هي التي حطمته. لكنه لم يقل لها شيئًا عن ذلك، فقد كان الحديث معها ثقيل الوطأة عليه. لذا أسرع إلى الجيمنازيا، ووصل إلى هناك قبل نهاية المحاضرة الأخرى. وقف عند نافذة قاعة الاستراحة. منذ فترة طويلة لم ينظر من النافذة بهذا الهدوء، بل يمكن أن نتساءل منذ متى لم يهرع سريعًا إلى المنزل وهو في حالة تتجاوز السعادة الإنسانية. تغير كل شيء فجأة، فصار يود أن يهرب من المنزل. في الآن ذاته كان مقموعًا تحت وطأة جلالها وقوتها، وفهم أنها تعاني بدرجة لا تقل عن معاناته، لكنها تخفي هذه المعاناة

---

(١٧٥) الابن البكر لنابونيدوس، آخر ملوك الإمبراطورية البابلية الحديثة، وقد أتى ذكره في سفر دانيال حينما أقام وليمة رأى فيها رؤيا خارقة فسرها له النبي اليهودي دانيال.

بسبب حبها له. «بسبب حبها لي؟! ولكن إذا كانت تحبني فهل يمكنها أن تحب عائقًا يقف في طريق سعادتنا؟ لماذا لم أستطع أن أخفي كل ما أعرفه؟ لو كنت أكثر حذرًا لما جعلتها تعاني، ولكنت فعلت كل ما يمكنني فعله لأجعلها سعيدة. هل أهرب؟ أهرب؟! ولكن إلى أين؟».

أوقفه أنيمبوديست كافيراناومسكي عن التفكير، وبدا أنه لم يشفَ بعد من حفلة الأمس. كانت عيناه حمراوين ومحاطتين ببعض الدوائر السمينة، كما يبدو قمر الشتاء في أيام الصقيع، وظهرت أيضًا بقع رمادية على الوجنتين والأنف.

قال كافيراناومسكي مجففًا وجهه من العرق:

- ما الذي يشغل بالك يا صديقي المبجل؟

صمت كروتسيفيرسكي:

- أنا نفسي حي بشق الأنفس. هل رأيت حطام السفينة؟ تبدو حياتي الآن مثله.

- بسبب ما شربت عند ميدوزين؟ آه من هذا الكلب العجوز! أرأيت كيف نفد كل شيء هناك؟ هل أفقت يا ديمتري ياكوفليفيتش؟.

- وكيف أفيق؟

- سأريك كيف. من الواضح أنك لا تزال مبتدئًا. تعالَ معي. أنا أعيش هنا بالقرب منك. فلتزُر منزلي لنشرب بعض الرم والعرق.

ذهب كروتسيفيرسكي إلى منزل كافيراناومسكي. لماذا؟ هو نفسه لم يعرف. بدلًا من الرم والعرق عرض عليه كافيراناومسكي خمرًا

قوية وبعض الخيار. شرب كروتسيفيرسكي، ولدهشته رأى أن حالته تحسنت، ولا ريب أن هذا الاكتشاف لم يكن من الممكن أن يحدث في وقت أفضل من الوقت الذي وجد فيه نفسه تتآكل بفعل الحزن.

بعد العاشرة بقليل ظهر سيميون إيفانوفيتش كروبوف في الردهة الصغيرة لفندق كيرسبرج، وظل يذرعها ذهابًا وإيابًا بوجه مهموم وغاضب. بمرور خمس دقائق انفتح باب غرفة بيلتوف، وخرج جريجوري، وفرشاة في يد، ومعطف في اليد الأخرى.

- ألا يزال نائمًا؟

أجاب جريجوري:

- استيقظ لتوِّه.

- قُل له إني جئت وإن هناك ما أود أن أحدثه بشأنه.

صاح بيلتوف:

- سيميون إيفانوفيتش! سيميون إيفانوفيتش! تفضل رجاء.

وظهر عند الباب. سأل:

- هل لديك نصف ساعة من أجلي؟

أجاب بيلتوف:

- بل يومي كله لك.

- ألا أعطلك؟ أظن أنك تدرس في الصباح الاقتصاد السياسي، أليس كذلك؟

لم يُخفِ العجوز نبرة السخرية في السؤال على الإطلاق. قال بيلتوف الذي استقبل ملاحظة العجوز المتذمر بأقصى درجات التواضع:

- يبدو أنك نهضت اليوم مبكرًا من نومك، بقدمك اليسرى وحسب.

- نهضت على القدم التي أريدها.

- تفضل إذن.

هكذا قال بيلتوف مشيرًا إلى الباب. دخل كروبوف صامتًا. بدأ حديثه، وحاول بلا فائدة أن يبدو باردًا وهادئًا:

- فلاديمير بتروفيتش! لم آتِ لأتحدث معك كيفما يتراءى لي، بل بعد تفكير عميق فيما أفعله. يؤلمني أن أقول لك حقائق مريرة، ولم يكن الأمر سهلًا عليَّ عندما عرفتها. بالرغم من تقدمي في السن صرت أحمق وأخطأت في إنسان إلى درجة أن صبيًّا في السادسة عشرة كان وجهه ليحمر خجلًا من خطأ كهذا.

ظل بيلتوف ينظر إلى العجوز في دهشة.

- إذا كنت قد بدأت الحديث كجندي مقدوني، وسميت الأشياء بأسمائها، فلا أبالي بما سيحدث. أنا عجوز لكن أحدًا لا يمكن أن يدعوني جبانًا، ولن أصف عملًا غير نبيل بأنه نبيل بدافع الجبن.

- اسمع يا سيميون إيفانوفيتش، أنا واثق أنك لست جبانًا، كما أنني واثق أيضًا أنك لا تظنني جبانًا، لكني سأستاء بشدة إذا وجدتني مضطرًّا لإثبات ذلك لك. أرى أنك ساخط، ولذلك أطلب منك مهما حدث ألا تستخدم تعبيرات فظة، فذلك يؤثر عليَّ تأثيرًا غريبًا. مثل هذه التعبيرات

تُجبرني على نسيان كل ما هو خيِّر في الشخصية التي تهينني. لن تستطيع أن توضح شيئًا بالإهانة، لذلك دعنا ندخل في صلب الموضوع، وعذرًا على التحذير.

- حسنًا، سوف أكون مهذبًا يا سيدي الكريم، بل مهذبًا جدًّا. اسمح لي أن أتجرأ وأسألك يا فلاديمير بتروفيتش: هل تعرف أنك قضيت على سعادة أسرة كنت أبتهج بالذهاب إليها على مدار أربعة أعوام واعتبرتها أسرتي أم لا؟ لقد سمَّمتها، وجعلت أربعة أفراد يشعرون بالتعاسة مرة واحدة. أشفقت على وحدتك فعرَّفتك على هذه الأسرة، وهم قبلوك كواحد منهم وبعثوا في قلبك الدفء، أهكذا تظهر لهم امتنانك؟ إذا لم يشنق الزوج نفسه اليوم فسيكون غدًا، ولا أعرف ما إذا كان سيغرق نفسه في الماء أو الخمر، أما هي فسيضنيها السل، ويمكنني أن أؤكد لك أن الطفل سيصير يتيمًا، ويعيش وسط غرباء، وسيُتوَّج كل ذلك بأن تهتف المدينة كلها من أجل انتصارك. اسمح لي أن أهنئك إذن!

كان العجوز النبيل يرتجف من فرط الغضب وهو يلفظ هذه الكلمات الأخيرة. ثم أضاف بعد أن انتظر قليلًا:

- وقد يكون كل ذلك لا يمثل شيئًا من وجهة نظرك.

نهض بيلتوف من على الأريكة، وظل يذرع الغرفة سريعًا، ثم توقف فجأة أمام العجوز.

- اسمح لي أن أسألك الآن: من أعطاك الحق أن تتطرق بهذه الفظاظة إلى أقدس أسرار حياتي؟ لماذا لا تدرك أن تعاستي تُقدَّر بضعف تعاستهم؟ سأنسى لهجتك في الحديث، ولتسمح لي أن أسألك: ماذا

تريد أن تعرف مني؟ هل تريد أن تعرف ما إذا كنت أحب هذه المرأة؟ نعم أحبها! نعم، نعم! سأكررها لك ألف مرة: إنني أحب هذه المرأة بكل قوتي. أحبها، هل سمعت؟

- لماذا تدمرها إذن؟ لو كان لك قلب لتوقفت عند الدرجة الأولى ولم تدعها تلاحظ حبك. لماذا لم تتوقف عن زيارة منزلهم؟ لماذا؟

- سيكون من الأسهل لو سألت: لماذا أعيش؟ لا أعرف حقًّا. ربما من أجل أن أدمر هذه الأسرة وأقضي على أفضل امرأة التقيت بها. يسهل عليك أن تسأل كل هذه الأسئلة وتدين. من الواضح أن قلبك كان يخفق بهدوء منذ فترة الشباب، وإلا لتبقّى شيء في ذاكرتك. اسمح لي بالإجابة عن أسئلتك. نعم! أشعر الآن بضرورة عدم اختلاق الأعذار. أنا لا أعترف بحَكَم على نفسي سواي، لكنني أقول إنك علاوة على ذلك ليس لديك المزيد لتقوله لي. لقد فهمتك، وكل ما ستحاول عمله هو أنك ستحاول أن تُضفي على هذه الأشياء نبرة هجومية أكثر فأكثر، وفي النهاية سيُغضب هذا كلينا، والحقيقة أني لم أود أن أضعك في هذا الموقف الحرج، وذلك بالمناسبة لأن هذه المرأة في حاجة إليك.

- تحدث، تحدث! سوف أستمع لك.

- لقد وصلتُ هنا في إحدى أصعب فترات حياتي. في الفترة الأخيرة انفصلت عن أصدقائي الموجودين خارج البلاد، ولم يكن هنا شخص واحد قريب مني. دُفِعت إلى معرفة البعض في موسكو، لكنني لم أجد أي شيء مشترك بيننا. زادني ذلك تصميمًا على الذهاب إلى (ن. ن). أنت تعرف أنني عشت هنا سعيدًا، وفجأة ألتقي بهذه المرأة... أنت

تحبها وتحترمها، لكنك لا تعرفها على الإطلاق، بالضبط كما لا تعرفني. أنت تُثمِّن جدًّا سعادتها الأسرية وحبها لزوجها ولطفلها وحسب. لا تغضب، فثمة دقائق لا تُذكَر فيها حقيقة واحدة عذبة. لا تظن أن التقارب الخارجي أو طول الفترة هو ما ساعد على تقاربنا. أبدًا! يحدث كثيرًا أن يعيش البعض عشرين عامًا معًا، ويتولى غرباء دفنهم، وأحيانًا يتحابون، ولا يعرفون، وينكشف التعاطف الأخوي فجأة بقدر أكبر. علاوة على ذلك، وكعادتك التي تقضي بالانخراط في الوعظ، كنتَ تنظر إليها نظرة طبيب، وتتفحصها من أعلى لأسفل، بينما اندهشتُ من قوتها غير العادية وانحنيتُ أمامها. يا لها من كائن غريب! كيف حدث أن هذه النتائج التي ضحيت من أجلها بنصف حياتي، والتي حققتها من خلال مختلف أنواع العمل والعذابات، والتي بدت لي جديدة لدرجة أني كنت أعتز بها وأعتبرها إنجازات كانت بالنسبة لها بسيطة وحقائق بديهية، بل وبدت لها عادية تمامًا؟ لا أعرف، لقد التقيت بالكثيرين، وكنت أصل آجلًا أم عاجلًا إلى أفق كل واحد، وإلى الحد الذي لا يستطيع تجاوزه، لكني لم أجد عندها مثل هذا الأفق. يا لها من لحظات نعيم حقيقية اختبرتها في أثناء هذه الأمسيات التي كنا ننخرط فيها في نقاشات طويلة! لقد استرحت أخيرًا من كل هذه البرودة التي اختبرتها طوال حياتي. إنها المرة الأولى التي يعرف فيها إنسان ماذا يعني الحب وما هي السعادة ولماذا لم يتوقف عن الحياة. أخيرًا يصير الأمر ساخرًا، فليست لديَّ حكمة كافية. لم تكن هناك ضرورة لكل ذلك. عندما قدمت حسابًا عن أفعالي استطعت أن أفهم نفسي، ولكن كان الوقت قد تأخر.

- ولكن قُل لي في النهاية: ما هو هدفك؟ ماذا ستفعل؟

- لم أفكر في هذا مطلقًا، ولا يمكنني أن أقول لك شيئًا.

- ها هي ثمار عدم التفكير المتأني في الأمر ماثلة بوضوح أمام عينيك.

- أتظن أني أنظر بلا مبالاة إلى هذه الثمار، وأني كنت في انتظار أن تأتي إليّ وتحدثني عنها؟ لقد أدركت قبلك أن سعادتي بهتت، وأن الزمن المليء بالشعر والنشوة قد انقضى، وأن هذه المرأة سوف تتمزق لأنها تقف في مرتبة شديدة السمو. ديمتري ياكوفليفيتش إنسان صالح، وهو يحبها بجنون، ولكنه مصاب بهوس الحب. إنه يدمر نفسه بهذا الحب، فما العمل مع ذلك؟ الأسوأ من كل ذلك أنه يدمرها.

- كيف يمكن في نظرك أن تجده ملزمًا بالنظر ببرودة إليها وهي تحب رجلًا آخر؟

- أنا لا أقول ذلك. من المحتمل أنه كان يتوجب عليه فعل ذلك. كل طبيعة مخلصة لنفسها، خاصة في اللحظات الحرجة. أتعرف ما الذي لم يكن عليه فعله؟ لم يكن عليه أن يربط حياته بامرأة مثلها تتمتع بهذه القوة.

- لسوء الحظ أنه فعل ذلك، وقد قلت له ذلك قبل الزواج، لكن أظن أنك توافقني أن الحديث عن ذلك الآن قد تأخر، وأنها كانت سعيدة قبل وصولك.

- سيميون إيفانوفيتش، لم يكن الوضع سيستمر إلى الأبد بهذه

الصورة. هذا الوضع القائم على سوء الفهم ينجلي آجلًا أم عاجلًا. كيف يمكنك أن تكون متناقضًا هكذا؟

– الحق أن هذا عمل حكيم! ليس عبثًا إذن أنني كنت أقول طوال الوقت إن الحياة الأسرية أمر خطير، وكنت أكرز بذلك كما كان يوحنا يكرز في البرية[١٧٦]، ولم يستمع لي أحد. لو أنك بدافع الشفقة وحسب فـ...

– أنا فعلًا لا أعرف ماذا تريد مني. بعد مرضها بدأت ألاحظ حزنها ويأسه البليد الذي لا فكاك منه. توقفت تقريبًا عن زيارتهم، وأنت تعرف ذلك، أما تكلفة ذلك فأنا أعرفها جيدًا، لقد حاولت أن أكتب إليها عشرين مرة، ولم أكتب في النهاية خوفًا من أن أزيد حالتها سوءًا. زرتهم والتزمت الصمت، فما الذي تلومني عليه إذن؟ وما الذي تريده مني؟ آمل ألا تكون رغبتك في أن تُوجِّه لي بعض الكلمات المسيئة هي التي قادتك إلى هنا.

– فلاديمير بتروفيتش، عليك أن تثبت أنك إنسان قوي. أنا أعرف جيدًا أن الأمر صعب عليك، ولكن عليك أن تقوم بتضحية، تضحية كبيرة. يمكننا أن ننقذ هذه المرأة. فلاديمير بتروفيتش، ارحل من هنا!

استبدلت الرقةُ القساوةَ المتصلبة التي شابت لهجته في البداية، وكان صوت العجوز يرتعش. كان يحب بيلتوف.

فتح بيلتوف حقيبته، وأخذ يُقلِّب في الأوراق، وأعطاه خطابًا كان قد شرع في كتابته. قال:

---

(١٧٦) إشارة إلى إنجيل مرقس (١: ٢ – ٤).

- اقرأ!

كان الخطاب موجهًا إلى أمه، وقد أعلن لها فيه عن نيته الأكيدة في السفر خارج البلاد سريعًا جدًّا.

- أنا راحل كما ترى. أتظن أنني بهذه الطريقة سوف أنقذها يا سيميون إيفانوفيتش؟

هكذا سأله بحزن، هازًّا رأسه. سأل كروبوف بنوع من اليأس:

- وما العمل إذن؟

- لا أعرف يا سيميون إيفانوفيتش. سوف أكتب لها خطابًا وأريدك أن توصله لها، أتعدني بذلك؟

- أعدك.

رافق بيلتوف سيميون إيفانوفيتش إلى الباب في حزن واضطراب ثم عاد إلى مكتبه وارتمى بعدها على الأريكة في وهن كامل. كان من الواضح أن حواره مع كروبوف قد وجَّه إليه ضربة قاسمة، كما كان واضحًا أيضًا أنه لم يستطع تمالك نفسه بعد. ظل مستلقيًا لساعتين وفي يده سيجارة مطفأة، ثم تناول ورقة وبدأ يكتب. بعد أن انتهى من الكتابة وضع الخطاب في الظرف وارتدى ثيابه، وأخذ الخطاب معه وتوجَّه إلى كروبوف. قال بيلتوف:

- ها هو الخطاب. هل يمكنك يا سيميون إيفانوفيتش أن تدبر لي فرصة لأراها لدقيقتين وحسب عندك أم لا؟

- لماذا؟

– وماذا يضيرك في هذا؟ لن يسوء الأمر. إذا كنت لا تزال تشعر بأي عاطفة تجاهي، أرجوك أن تفعل هذا من أجلي.

– متى سوف ترحل؟

– غدًا صباحًا.

– تعالَ في الثامنة إلى الحديقة.

شد بيلتوف على يده.

– لقد رأيته اليوم في الوضع البائس نفسه.

– أتوسل إليك يا سيميون إيفانوفيتش أن تتوقف، ولا تُضِف كلمة عن هذا الموضوع.

مضت لويوف ألكسندروفنا شاحبة وناحلة، بعينين دامعتين، متأبطة ذراع كروبوف. كانت محمومة، وكان التعبير المرتسم في عينيها مريعًا. كانت تعرف إلى أين هي ماضية والهدف من وراء ذلك. وصلا إلى الدكة العزيزة في الحديقة، وجلسا عليها. بكت والخطاب في يدها. أما سيميون إيفانوفيتش فلم يجد ملاحظات أخلاقية ليدلي بها، وأخذ يمسح دمعة تلو الأخرى.

اقترب بيلتوف، وتلاشى كل تعبير مشرق على وجهه، ولاحت في كل ملامحه معاناة غير محتملة. بدا كميِّتٍ. قال لها بصوت يكاد يكون غير مسموع:

– وداعًا.

– إلى الأبد؟

صمت.

- يا إلهي!

قالتها وصمتت قليلًا ثم أضافت هامسة:

- وداعًا يا فولديمار!

وفجأة بدا كما لو أن قواها قد تضاعفت عشرة أضعاف، فنهضت وضغطت على يده وقالت بصوت عالٍ وواضح:

- فولديمار! تذكر أنك محبوب حبًّا غير محدود، حبًّا غير محدود يا فولديمار!

نهضت ولم يمسكها، فقد صارت في نفسها روح عزم وتصميم على المضي بخطوات أكثر رسوخًا من خطواتها عندما أتت.

نظر إليهما، وتتبع بعينيه خفقان العباءة البيضاء بين أشجار البتولا. لم تكن لديها القوة الكافية لتلتفت. ظل فولديمار في مكانه. فكر في نفسه: «يجب أن أتركها حقًّا للأبد!». أسند رأسه إلى يده، وأغلق عينيه، وظل جالسًا لنصف ساعة محطمًا، مقموعًا بالحزن، ورفع رأسه فجأة، حيث بدا له أن أحدهم نادى اسمه، ولم يتعرف على وجه المستشار العام إلا بصعوبة، وانحنى بيلتوف بجفاف محييًا إياه.

- يبدو أنك تأتي إلى هنا يا فلاديمير بتروفيتش لتعطي نفسك الفرصة للاستغراق في الأحلام والأفكار.

- نعم، ولذلك أحب البقاء بمفردي.

قال المستشار العام وهو يجلس على الدكة:

- يجب عليك هذا فعلًا، فلا شيء كالوحدة يمكنه أن يكون أفضل لتعليم الإنسان. إلا أن بعض أنواع الرفقة أحيانًا لا تكون أسوأ من الوحدة. التقيت الآن بسيميون إيفانوفيتش كروبوف. لقد وجد لنفسه سيدة.

كان بيلتوف قد نهض في اللحظة التي جلس فيها المستشار، وكان على وشك الانصراف، لكن هذه العبارة الأخيرة أوقفته. لقد كشف منظر المستشار الساخر بوضوح الهدف الذي جعله يقول هذا الكلام. الاحتمال الأكبر أنه جاء إلى الحديقة بتكليف معين من ماريا ستيبانوفنا.

قال بيلتوف متنهدًا من الغضب:

- أعرف السيدة التي مضى معها كروبوف.

قال المستشار الوقح:

- وكيف لا تعرفها؟ هههههه. أنتم أيها الشباب تعرفون جميع الحسناوات.

- إما أنك مجنون أو أحمق، وفي كلتا الحالتين وداعًا.

قالها بيلتوف وتوجه إلى الممشى. صاح المستشار من خلفه، وقد احمر وجهه كنبتة عود الصليب، وقد قفز من جلسته على الدكة:

- كيف تجرؤ على أن تحدثني هكذا؟

- ماذا تريد مني؟ أتريد أن نتبارز[١٧٧]؟ هيا! سأفعل ذلك مهما

(١٧٧) في هذا الوقت عندما كان شخص يتعرض لإهانة كان يدعو غريمه للمبارزة، وهي مبارزة بإطلاق النار من أسلحة نارية، لا بالسيوف.

كان الأمر مقززًا. إذا لم تكن تنوي ذلك فعذرًا إذن، فلديَّ عادة دنيئة أن أضرب بالعصا من يعطلني عن التنزه.

– عن أي عصا تتحدث؟ من أنت لتهددني بالضرب بالعصا؟

في أي فرصة أخرى كان بيلتوف سينفجر ضحكًا من كل قلبه على المستشار العزيز، ولكن في هذه المرة كان يشعر بالغضب الشديد قبل مجيء المستشار، ولم يستطع تقريبًا أن يتذكر جيدًا ماذا يجب أن يفعل، وكيف يتصرف مع المستشار. تعجب المستشار ورحل بيلتوف.

في صباح اليوم التالي، وبينما كان جريجوري مشغولًا بإعداد حاجات سيده، ذهب بيلتوف إلى الغرفة، وكان يشعر بهذا الفراغ يكتنف عقله وقلبه، وكأنها نصف حياة؛ نصف وجود قد غرق في المياه ولم يعد حاضرًا، صار يشعر بالهلع والألم وبارتجافة، وفجأة تنهمر الدموع. حدث عشر مرات أن توجه جريجوري إليه بسؤال وأجابه قائلًا: «سيان»، وفي الحقيقة لم يقتصر الأمر في هذا الوقت على أن يبدو له سيان أي معطف يرتديه في الطريق، بل كان سيان له أيضًا الوجهة التي يتوجه إليها؛ سواء كانت باريس أو توبولسك. دخل سيميون إيفانوفيتش في حالة مختلفة تمامًا عن حالته بالأمس، فآثار الدموع كانت واضحة في عينيه، كما أنه دخل بهدوء، ومسح قبعته بطرف كمه، وظل واقفًا عند النافذة، ولاحظ جريجوري أن عربة سيميون إيفانوفيتش لم تُربط جيدًا، وأنه لم يكن بصورة عامة في حالته المعتادة.

قال بيلتوف ضاحكًا ودامعًا في الآن ذاته:

- أراضٍ عني يا سيميون إيفانوفيتش؟

- لقد أسأت إليك، ولكن ماذا كان في يدي؟ سامحني على دفعي لك للمغادرة بهذه الطريقة.

ذوى صوت العجوز. مد بيلتوف كلتا يديه إليه قائلًا:

- إنه الكمال يا سيميون إيفانوفيتش! إنه الكمال!

- أريد أن أقول لك شيئًا آخر: فلتسمع مني هذا ليبقى في ذاكرتك. أحببتك بصدق، وأريد أن... (وهنا سلَّمه حقيبة مغربية كبيرة) أريد أن أعطيك هذا الشيء للطريق. إنه شيء ثمين جدًّا بالنسبة لي.

فتح بيلتوف الحقيبة ونظر إلى الشيخ، وارتمى على عنقه. بكى العجوز وقال:

- يبدو لي الأمر سخيفًا حقًّا أن أتحايل على عقلي. يا للغباء! صرت شيخًا وأنخرط في البكاء!

اندفع بيلتوف صوب المقعد، وأسند الحقيبة إليه. لقد احتوت على بورتريه للوبوف ألكسندروفنا.

وقف كروبوف أمامه، وأراد أن يؤكد لبيلتوف بصورة نهائية أنه لا يشعر بشيء على الإطلاق، أدلى بهذه التعليقات وهو يمسح دموعه خلسة.

- منذ عامين مر هنا رسام إنجليزي جيد، ورسم صورًا زيتية كثيرة. صورة الحاكم مثلًا المعلقة في المكتب هو الذي رسمها، وحينها أقنعت لوبوف ألكسندروفنا أن تدعه يرسمها، وقلت لها إن الأمر لن يستغرق أكثر من ثلاث جلسات وحسب.

لم يسمعه بيلتوف، ولذا لم تكن بلية كبيرة حينما قطع صاحب الفندق حديث كروبوف وأعلن بلهفة وصول السيد قائد الشرطة. سأل بيلتوف:

- وماذا يريد؟

أجاب صاحب الفندق:

- يريد سيادتك في أمر ما.

- قل له أن يتفضل.

دخل قائد الشرطة، وسيفه يصدر قعقعة صاخبة، وظهر من بعيد عبر فتحتي الباب المفوض الهزيل، وخادم يحمل في خوف معطف قائد الشرطة.

نهض بيلتوف، وجسده كله يُعبِّر عن التساؤل، فلم تكن هناك حاجة إلى الكلمات. بدا تلقائيًّا أن السؤال هو: «ما الأمر بحق الجحيم؟».

- يؤسفني بشدة يا فلاديمير بتروفيتش أنه يتوجب عليَّ أن أعطلك لبضع دقائق. يبدو أنك راحل عن المدينة، أليس كذلك؟

- بلى.

- الجنرال يطلب منك أن تذهب إليه. لقد قدم فيرس بتروفيتش يلكانيفيتش شكوى ضدك، يدعي فيها أنك أهنت سعادته. أشعر بالخزي الشديد، ولكن أظن أنك ستوافقني بنفسك على أن هذا هو الواجب الذي يفرضه عليَّ عملي، وأنت تعرف بالطبع أنه يتوجب أحيانًا على المرء أن ينفذ مثل هذه الإجراءات المحرجة.

- ليس لديَّ وقت إطلاقًا لهذا. قُل لي من فضلك كم من الوقت سيعطلني هذا؟

- الأمر يعتمد عليك. السيد يلكانيفيتش إنسان نبيل، ولا ريب أنه لن يعقِّد الأمور إذا استطعت أن تقدم تفسيرًا لما حدث.

- وكيف يمكن أن يُقدَّم هنا أي تفسير؟

- آه يا فلاديمير بتروفيتش، ماذا أفعل بك؟ إنك لا تفهم شيئًا حقًّا. (هكذا قال كروبوف) حسنًا، هل تريدني أن أكون وسيطًا مع السيد قائد الشرطة، وننهي الأمر في ربع ساعة؟

- سأكون مضطرًّا لذلك، مضطرًّا جدًّا.

قال قائد الشرطة:

- عفوًا، هذا واجبنا المقدس، وإني أشعر بالسرور حينما أستطيع أن أنهي مثل هذه المسائل بصورة سلمية ومن أجل الصالح العام.

وهذا ما حدث.

بمرور أسبوعين، وعلى هذا الطريق الذي مرت به سابقًا بالقرب من الطاحونة عربة تجرها أربعة خيول، والتي توجهت من «بيلي بولي» إلى طريق دورميز الكبير، جلس جريجوري فوق صندوق، وأشمل غليونه، والحوذي يحث الجياد على التقدم بصورة أفضل، ولكي يُقرِّب الأمر أكثر إلى أفهام الجياد كان يكرر الأصوات ذاتها: أو... آه... وما إلى ذلك. ومن ناحية النهر وقفت امرأة عجوز ترتدي قلنسوة بيضاء ودثارًا أبيض، مستندة إلى يد الخادمة، وأخذت تلوح

بمنديل أبيض ثقيل ومبلل بالدموع للرجل الجالس في العربة، ولوَّح لها هو أيضًا بمنديل، وانحرف الطريق إلى اليمين قليلًا. عندما انحرفت العربة في هذا الاتجاه لم يعد يظهر منها سوى الجزء الخلفي، ولكن سرعان ما تعالت سحابة من الغبار، وتناثر هذا الغبار ولم يعد يمكن للمرء أن يرى شيئًا سوى الطريق، وكانت العجوز لا تزال واقفة تشب على أطراف أصابعها محاولة تبين أي شيء.

صارت العجوز تشعر بالملل والخواء في بيلي بولي، وقبل ذلك كان فولديمار يأتي مرة أو اثنتين أسبوعيًا، وقد تعودت على أن تسمع أصوات الأجراس قادمة من بعيد، من ناحية الجبل، وتخرج للقائه عند هذه الشرفة الخارجية التي كانت تنتظره عندها قبل ذلك عند فرع الشجرة الذي سفعته أشعة الشمس. شيء ما دعاها إلى الذهاب إلى (ن. ن)، فهناك عاشت المرأة التي يحبها ابنها، والضحية التعيسة لحبها له. في واقع الأمر ذهبت العجوز إلى هناك لقضاء فترة الشتاء. لقد وجدت لوبوف ألكسندروفنا ذاوية ومتداعية، أما سيميون إيفانوفيتش الذي تضاعف وجومه، هز رأسه عندما سألوه عنها، بينما انخرط ديمتري ياكوفليفيتش، مسحوقًا تحت وطأة الحزن، في الصلاة والشرب. طلبت صوفيا ألكسيفنا أن يؤذن لها بزيارة المريضة، وقضت أيامًا كاملة عند فراشها، وكان هناك شيء شعري رفيع في هذا الاقتران بين الجمال المحتضر والشيخوخة الجميلة؛ في هذه المرأة الذاوية ذات الوجنتين الغائرتين والعينين اللامعتين

الكبيرتين، والشعر المستلقي بلا عناية على كتفها، وهي تسند رأسها إلى يدها الهزيلة، وفمها نصف مفتوح، والدموع تلمع في عينيها، تستمع إلى الحكايات اللا نهائية للأم العجوز عن ابنها؛ عن فولديمار الذي صار بعيدًا عن كلتيهما الآن!

١٨٤٦ - ١٨٤١





ألكسندر جيرتسن (1812 – 1870) مفكر وأديب روسي، اشتهر في الأساس بمشاركته الفكرية الفعالة في تهيئة الأجواء لتحرير الفلاحين الأقنان وصياغة نظرية اشتراكية ثورية، كما أنه اشتهر في مجال الأدب بروايته الشهيرة: «من المذنب؟». وصلت شهرة هذه الرواية في روسيا إلى أن صار السؤال الذي يطرحه العنوان أحد أشهر وأهم الأسئلة في المجال السياسي والاجتماعي الروسي.

نُفي إلى لندن، وجاب الكثير من البلدان الأوروبية، والتقى في فترة الهجرة بأبرز الأدباء الروس، مثل: تورجينيف، وتولستوي، ودوستويفسكي، وكرّس حياته للعمل الفكري والثوري بعيدًا عن قبضة السلطة القيصرية، واشترى مطبعة في لندن، وأسس مجلة «نجم القطب الشمالي»، وجريدة «الناقوس». طاف جيرتسن بلدانًا أوروبية أخرى بعد لندن، واستقرت به الحال في باريس وتوفي هناك، وقد أنجز أعمالًا فكرية وأدبية شديدة الأهمية؛ ربما من أشهرها كتابه «الماضي والأفكار».

من المذنب؟

منذ أن صدرت هذه الرواية في عام 1846، وقد صار هذا السؤال واحدًا من الأسئلة الكلاسيكية في الأدب والفكر الروسيين. "من المذنب؟" هي رائعة ألكسندر جيرتسن الروائية، وهي من الروايات الروسية الأم التي شكّلت فن الرواية الروسية بأكمله في زمن لم تكن قد ظهرت فيه بعد أعمال تولستوي ودوستويفسكي وغيرهما. إنها رواية اجتماعية مبهرة، ترصد قطاعات عريضة ومختلفة من المجتمع الروسي، وتؤسس لفن الرواية النفسية التي برع فيها الروس.

أبطال جيرتسن ليسوا أخيارًا أو أشرارًا بصورة مميزة، بقدر ما هم أبناء عصرهم. صحيح أن بعضهم يرتكب جرائم أخلاقية شديدة، لكنها تتم داخل إطار العصر، فتبدو عادية تمامًا، إلى درجة أن يتساءل القارئ: وهل كان بالإمكان أن تسلك الشخصية على نحو مغاير؟

لم تتناول الرواية الأطر الاجتماعية والسياسية التي أفضت بالشخصيات إلى مصائرها وحسب، بل تناولت أيضًا العوالم الداخلية بدقة وعمق؛ الأمر الذي ساعد على تحويل سؤال «من المذنب؟» برفقة أسئلة أخرى مثل «ما العمل؟»، إلى أن يكون الموضوع الرئيس لأعمال تولستوي ودوستويفسكي.





